



التحوّل

ميشيل بوتور

ترجمة:

د. هناء صبحي



ميشيل بوتور

ترجمة: د.هناء صبحي





التحول

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

التحول

ميشيل بوتور

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

PQ 2603.V73 M652. 612 2009

Butor, Michel

[La Modification]

التحول: رواية/ تأليف ميشيل بوتور؛ ترجمة: د. هناء صبحي. - ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

246ص؛ 24x17 سم.

تدمك: 978-9948-01-449-2

يتضمن مراجع بيليوجرافية.

1 - القصص الفرنسية. 2 - الواقعية - الواقعية الميثولوجية.

أ- Leiris, Michel. ب- الواقعية الميثولوجية. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

La Modification

Butor, Michel

©1957, 1980 Les Editions de Minuit



info@kalima.ae

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

الجزء الأول

-1-

وَضَعتَ قَدمَكَ اليُسرى على الفرضة النُحاسية وبكتفك اليُمنى تحاول عبثاً أن تدفع الباب المنزلق، أكثر قليلاً.

تَدلف عبرَ الفتحة الضيقة وأنت تحتك بحافتيها، ثم تنتزع حقيبتك المُغَلَّفة بجلد مُحَبَب غامق في لَون قنينة دكناء، حقيبتك الصغيرة جدا لِرَجل تَعوّدَ الأسفار الطويلة، تنتزعها من قبضتها الدبقة، بأصابعك التي سرى فيها الدفء لحملك إياها حتى هنا، على كونها غير ثقيلة، ترفعها وتحس بعضلاتك وأوتارها ترتسم لا في سلاميّاتك وفي راحة يدك، وفي قبضتك وفي ذراعك فحسب، ولكن في مَنْكِبك كذلك، وفي جماع نصف ظهرك وفي فقراتك ابتداءً من عنقك وحتى صلبك.

لا، ليس الوقت الصباحي المبكر هو وحده المسؤول عن هذا الوهن غير المألوف، بل كذلك العمر الذي يحاول أن يُقنعك بهَيمنتهِ على جَسَدِك، مع أنك لم تبلغ عامك الخامس والأربعين إلا مُنذ مدة قصيرة.

عَيناك نصف مفتوحتين، كأنهما مُغَشّاتان بدخان خفيف، جَفناك حسّاسانِ وجافّانِ، صُدْغاك مُثقلان وكأن جلدَهما المشدود قد تصلب تجاعيدَ رقيقة، وشعركَ الأشعث، الذي راح يتناقص ويَشيب شيئاً فشيئاً، وإن كان لا يلحظه الآخرون، لكن أنت وهنرييت وسيسيل وحتى الأولاد ستلحظونه من الآن فصاعدا، وجسدك بكامله داخل ملابسك التي تعوقه، وتضيق، وتُثقل عليه، كأنما هو مغمور، في صحوته الناقصة، بماء عكر وغازيّ يعج بديدان مجهرية عالقة.

إن كُنتَ دَخلتَ إلى هذه المقصورة، فلأنك وَجدتَ المقعد إلى يسارك في الزاوية المطلة على الممر في اتجاه سير القطار، شاغرا. المقعد نفسه الذي كنت ستطلب من مارنال أن يَحجزه لك، كالعادة، لو كان الوقت يسمح بذلك، لكن، كلا، كنت ستتولى الحجز هاتفيا أنت بنفسك، وما ينبغي لأحد من شركة سكابيلي أن يعرف أن وجهتك هي روما، لقضاء هذه الأيام القلائل.

ثمة رَجلٌ إلى يمينك، وجهه بمستوى مرفقك، جالسٌ قبالة المقعد المواجه للمقعد الذي ستجلس عليه في هذه الرحلة، أصغر منك سناً بقليل، لا يتجاوز الأربعين، أطول قامة منك، سِحْنَتُه باهتة، شعرَه أكثر شيباً من شعرك، عيناه تَطْرِفان خلف نظارات مُجَسَمة، كفاه طويلتان ترتجفان، أظافره مُتآكلة، دَكِنَ لونها من التدخين، تَتشابك أصابعه ثم تنفك بعصبية بانتظار الرحيل. إنه دون شك صاحب هذه الحقيبة السوداء المملوءة بملفات تَلحظُ بَعضاً من حافاتها الملونة وقد تسللت من خلال فتق، وكتباً، مُجلدة هي بالتأكيد مُمِلّة، على الرف القائم فوق رأسه وكأنها شعار أو تعليق لا يَقِل دلالةَ، أو غُموضاً، لكونها شيئاً، ملكية خاصة وليس كلمة، مركونة على الشَبكة المَعدِنية ذات الثقوب المربعة، ومتكئة على الجانب المحاذي للممر.

يَتفحص هذا الرجل وَجهك مُنزعجاً من سكونك، ويقف متضايقاً من التصاق قَدَميه بقَدَميْك ويود أن يدعوك للجلوس، لكن الكلمات تعجز حتى عن الوصول إلى شفتيه الخجولتين فيحول وجهه عنك نحو النافذة ويزيح بإصبعه الوسطى الستارة الزرقاء التي نُسِجَ عليها «الشركة الوطنية للسكك الحديد الفرنسية» (SNCF).

على المصطبة نفسها التي يجلس عليها، وعلى مسافة مقعد واحد لا يشغله أحد الآن، لكنه حُجزَ بمظلة طويلة وضِعَت داخل غِلافها الحريري الأسود الذي شَكَلَ خَطاً على قماش المَقعد الأخضر المصنوعِ من الجلد، أسفل هذه الحقيبة الصغيرة الخفيفة، المزودة بقفلين من النحاس الزاهي، والمُغلفة بقماش اسكتلندي من المشمع، جَلسَ شاب أشقر لا بد أنه أنهى خدمته العسكرية، يرتدي بزة من التويد الرمادي الباهت وربطة عنق مزينة بخطوط مائلة حمراء وبنفسجية، يُمسك بيده اليمنى اليد اليسرى لشابة ذات سحنة أغمق من سحنته، يلهو بتمرير إبهامه على راحة يدها بينما تنظر هي إليه سعيدة بهذا. ترفع ناظريها نحوك وهلةً، متنبهةً إلى ملاحظتك لهما، ثم تطرق، لكن دون توقف.

ليسا بعاشقين فَحَسْب بل عروسان جديدان، إذ يَظهر في إصبعيهما خاتما الوثاق، الحديث العهد، لعلهما في رحلة شهر العسل، وقد اقتنيا، لهذه المناسبة، دون شك، هاتين الحقيبتين الكبيرتين المصنوعتين من جلد الخنزير، إلا إذا كانت هدية عم كريم، وقد وضِعتا

على الرف الواحدة فوق الأخرى، يُزين مقبضيهما إطار جلدي صغير مخصص لبطاقة المعلومات ومثبت بشريط رفيع مصنوع من الجلد أيضا.

إنهما الوحيدان اللذان حَجزا مقعديهما في هذه المقصورة، كما تُشير إلى ذلك بطاقتاهما - بلونيهما البني والأصفر وبأرقامهما السود الكبيرة الحجم - المعلقتان بإحكام في العمود النيكلي .

في الجانب الآخر من النافذة، يجلس وحيدا على المصطبة، خوريٌّ في نحو الثلاثين، بَدين بعض الشيء، شديد النظافة، باستثناء أصابع كفه اليمنى الملوثة بالنيكوتين. يبدو انه ينهمك بقراءة كتاب الصلوات الغني بالصور. يجلس أسفل محفظة وثائق كالحة، بلون الإسفلت، سَحابها الطويل مفتوح كأنه فم أفعى مليء بأسنان دقيقة، موضوعة على الشبكة التي تجد أنت صعوبة في بلوغها وكأنك أحد لاعبي قوى الساحات العامة الساخرين، رافعاً بيد واحدة ومن الحلقة المخصصة لها، سبيكة كبيرة الحجم لكنها فارغة، فيما لا تزال تُمسك بأصابع اليد الأخرى، الكتاب الذي اقتنيته توا من المحطة. ترفع حقيبتك ذات الجلد الأخضر المحبب وعليها الأحرف الأولى من اسمك (ل. د). هدية أسرتك في عيد ميلادك الأخير، فقد كانت ما تزال حينذئذ أنيقة وملائمة تماماً لمدير مكتب باريس للآلات الكاتبة علامة سكابيلي، وما زالت تحتفظ بشيء من رونقها على رغم البقع الدهنية التي لا تبدو واضحة إلا إذا أمعنا النظر فيها، وعلى الرغم من هذا الصدأ الخفي الذي أخذ ينخر حلقاتها.

أمام ناظريك، بين الخوري والشابة اللطيفة الوديعة، ومن خلال زجاج النافذة، عبر زجاج نافذة أخرى، تَلمح في الظل على نحو واضح، ما وراء الانعكاسات المتكونة، باطن مقصورة أخرى تبدو أكثر قِدَماً من المقصورة التي تحل أنت فيها، بمقاعدها الخشبية الصفراء ورفوفها المصنوعة من الحِبال، تلمح رجلاً بطولك، لا تستطيع تحديد عمره أو تصف ملابسه بدقة، يُحاكي ببطء أكثر الحركات المُتعَبة التي انتهيت توا من فعلها.

تمد ساقيك، وأنت جالس، على جانبي ساقي هذا المثقف الذي بدا عليه الارتياح أخيرا فأوقف أصابعه، تفك أزرار معطفك الثخين المبطن بقماش حريري حال لونه بقِدَمه، تُزيح

نهايات المعطف عن ركبتيك المكسوتين بقماش أزرق غامق تجعدت طيته على الرغم من أنّها كُويت البارحة. تفك عقدة وشاحك الصوفي المحبب ذي النسيج الرخو الذي تذكرك عقده، ذات اللون الأصفر البني الصدفي، بالبيض المخفوق. تلفه بيدك اليُمنى ثم تطويه ثلاث طيات كيفما اتفق وتدسه في جيبك الواسع حيث توجد علبه سجائر جلواز زرقاء، وعلبة كبريت، وبالطبع بقايا تبغ مخلوط بالأتربة ومتجمع في زوايا الجيب.

ثم، تحاول أن تغلق الباب المتحرك، ماسكاً بعنف المقبض الكرومي الذي كشف زوال شيء من طلائه عن الحديد الصدئ، لكنه، بعد بضع انتفاضات، يرفض أن يتقدم أكثر، في اللحظة نفسها التي يظهر في النافذة إلى يمينك، رجل قصير القامة ذو سحنة وردية جداً، يُغطيه واقي مطر أسود اللون، يعتمر قبعة مستديرة، يمرعبر الفتحة الضيقة لباب المقصورة، كما فعلت أنت قبل هنيهة، دون أن يسعى قط لتوسيعها، كما لو كان متأكداً من عطل المزلاج، معتذراً بصمت لإزعاجك، بحركة لا تكاد تُرى من شفتيه وجفنيه، بينما تُثني ساقيك لتدعه يمر، انجليزي على ما يبدو، إنه دون شك صاحب هذه المظلة، السوداء الحريرية التي تُحزز الجلد الأخضر، يأخذها بالفعل، ويضعها وكذلك قبعته، الوحيدة في هذه المقصورة حتى الآن، لا على الرف المشبك، بل تحته، على الرف الضيق المتكون من علاقات، إنه حتما أكبر منك سناً بقليل، شَعره أقل كثافة من شعرك بكثير.

إلى اليمين، من خلال الزجاج البارد حيث تسند صدغك، تلحظ عبر النافذة الممر نصف المفتوح، ومن خلال نافذة الممر نصف المفتوحة التي مرت من أمامها توا مُسرعةً بعض الشيء، امرأة غطت رأسها بقبعة من النايلون، تتعرف إلى ساعة رصيف المحطة التي لا تكاد تُرى بفعل السماء الرمادية و يتابع عقرب الثواني النحيف فيها دورته المتقطعة مشيراً إلى الثامنة وثماني دقائق على وجه التحديد، أي ما زالت هناك دقيقتان للرحيل وأنت لا تزال تُمسك وتضغط بيدك اليسرى على الكتاب الذي اشتريته بعجالة لا تكاد تتوقف في صالة المحطة، من دون أن تقرأ عنوانه أو اسم مؤلفه، واثقاً من دار نشره، وتكتشف في رسغ يدك مخفيةً إلى هذا الحين تحت الأكمام الثلاثة: الأبيض والأزرق والرمادي لقميصك، وسترتك ومعطفك، ساعتك المستطيلة المثبتة بسير من الجلد الأرجواني بأرقامها المطلية بمادة تميل إلى الخضرة، تلمع ليلاً، مشيرة إلى الثامنة واثنتي عشرة دقيقة فتصحح تقدمها.

ترى في الخارج، عربة تعمل على النضائد تشق لها درباً متعرجاً وسط الحشد الرمادي المنهمك والمثقل بأحماله، الذي يتحرك ويتداخل في غمرة لقاءاته ولحظات الوداع مُرهفا سمعه لِنُتَف العبارات المشوهة التي تسكبها مكبرات الصوت، ثم يهتز القطار الآخر، وسط الضجيج وتمضي قاطراته الخضر الواحدة تلو الأخرى حتى القاطرة الأخيرة التي تتيح لناظريك وهي تنسحب، كما تكشف الستارة عن خشبة مسرح فسيحة، رؤية رصيف آخر مزدحماً له ساعة أخرى وقطار ثابت لن يرحل على ما يبدو إلا بعد أن يكون قطارك قد رحل.

تَجد صعوبة في إبقاء جفنيك مفتوحين ورأسك مرفوعاً؛ تود أن تدس نفسك في الركن، تحفر فيه حفرة مريحة بكتفك، لكن ظهرك يتقوس دون جدوى ثم يدركه الارتجاج والحركة.

يتسع الفضاء الخارجي بغتة؛ إنها قاطرة صغيرة تدنو ثم تختفي على أرضية مُقَطَعة بتحولات الخطوط الحديدية: لم يتمكن نظرك متابعتها إلا لحظة واحدة كَخَلْفيّة البنايات الكبيرة المتسخة التي تعرفها جيدا، وهذه الدعامات الحديدية المتصلبة، وهذا الجسر الكبير الذي تعبره شاحنة موزع الحليب، وهذه الإشارات وعقد الأسلاك، وأعمدتها وتفرعاتها، وهذا الشارع الذي تلمحه في هذا التتالي حيث ينعطف راكب دراجة عند الزاوية، ولا يفصل هذا الشارع الذي يمتد موازيا للسكة الحديدية عنها إلا هذا الحاجز الهش، وهذا الشريط الضيق من الحشائش الشُعْث الذابلة، هذا المقهى الذي ترتفع ستارته الحديدية، هذا الحلاق الذي لا يزال يحتفظ بذيل حصان معلق بكرة ذهبية اللون بمثابة لافتة، محل البقالة هذا الذي تتصدر واجهته حروف قرمزية اللون، محطة الضاحية الأولى هذه التي ينتظر أهلها قطاراً آخر، هذه الأبراج الحديدية الضخمة حيث يُخْزَن الغاز، هذه المشاغل التي طلي زجاجها باللون الأزرق، هذه المدخنة الكبيرة المتصدعة، مخزن الإطارات العتيقة هذا، هذه الحدائق الصغيرة بأكواخها وأوتادها، هذه القصور الصغيرة داخل أسوارها برحاها الصوانية وهوائيات تلفازها.

ينخفض ارتفاع المنازل، وتزداد فوضى ترتيبها، وتتضاعف الخروقات في النسيج

الحضري، الأدغال بمحاذاة الطريق، والأشجار التي تفقد أوراقها، أولى كتل الطين، وأولى المساحات من الريف الذي يبدو أكثر خضرةً تحت السماء المنخفضة، أمام سلسلة الهضاب التي تُلمح في الأفق بغاباتها.

هنا، في هذه المقصورة، تُهَدْهِد الضوضاءُ المتصلة الوجوهَ الأربعةَ قبُالتك، وهي صامتة، بلا حراك، وتقض مضجعها معا باهتزازها العميق المستمر المشوب، بين حين وآخر، برشقات مزعجة من صرير وولولة كثيفة شائكة، بينما يغلق الكاهن في الجهة الأخرى من النافذة، بشيء من التذمر ونفاد الصبر، كتاب الصلوات المُغلف بجلد طري أسود، محتفظا بسبابته علامةً دالة بين الصفحات ذات الحافات المُذهبة، تاركاً الشريط الحريري الأبيض الرفيع مرخى.

تلتفت فجأة جميع الأنظار نحو الباب الذي يفتحه على مصراعيه بضربة كتف، دون أي عناء ظاهر، لاهثاً، رجل ذو سحنة حمراء، لا بد أنه صعد إلى عربة القطار في اللحظة التي كان فيها القطار على وشك التحرك، يقذف على الشبكة حقيبة منتفخة وصرة مكورة كيفما اتفق، مغلفة في جريدة ومربوطة بخيط رث، ثم يجلس إلى جوارك فاكاً أزرار واقي المطر الذي يرتديه، واضعاً ساقه اليُمنى فوق اليسرى، ساحباً من جيبه مجلة سينمائية أسبوعية ملونة الغلاف يأخذ بتفحص صورها.

يخفي جانب وجهه الغليظ عنك وجه الخوري الذي لم تعد ترى منه غير يده وقد وضعها على مسند النافذة، وأصابعه المتأثرة بالحركة العامة، وسبابته تضرب بهدوء، آليا وبصمت وسط الضجيج، الصفيحة المعدنية المثبتة التي خُطَ عليها باللغتين الفرنسية والإيطالية، وأنت تعرف ذلك (إذ لا تتمكن من قراءتها حقا بل تخمن على وجه التقريب فحسب، الحروف الأفقية واحداً واحداً، التي تبدو لناظرك مسحوقة ومشوهة بفعل الأفق: «من الخطر الانحناء خارج النافذة».

تذرع الأعمدة الإسمنتية أو الحديدية بقاماتها السوداء كل فضاء النافذة، مسرعة ومتتابعة بلا انقطاع؛ تعلو أسلاك الهاتف، تتباعد، تنخفض، ثم تعاود الارتفاع، تتشابك، تتضاعف ثم تجتمع منسقة بخطوطها العازلة كما لو كانت سُلماً موسيقيا معقدا مجرداً من النوطات الموسيقية لكنه يشير إلى الأنغام وانتظامها من خلال ترتيب سطورها فقط.

أَبعدُ قليلا وأَبْطَأُ بعض الشيء تلتف كتلة الغابات، التي لم تعد تقطع تواصلها القرى والدور، تنفرج على ممر، تنطوي على ذاتها كما لو كانت تتستر خلف أحد أعضائها.

إنها غابة حقيقية هذه التي يحاذيها القطار، لا بل يمر من خلالها، إذ يمتد أمام ناظريك مشهد الغابة الشعثاء الدكناء نفسه الذي يزداد كثافةً وراء هذه النافذة التي ما زال صدغك يستند اليها، في الجانب الآخر من الممر الخالي الآن، وعبر نوافذه الزجاجية الممتدة حتى نهاية القاطرة.

تحفر السكة الحديدية فيها خندقاً لا يلبث أن يضيق إلى حد أنك لم تعد ترى السماء البتة، و ترتفع الأرض نفسها لتشكل أكواما من التربة الجرداء أو بنايات ترتسم عليها للحظة زمنية فحسب، الوقت الكافي لتتعرفها فقط، الحروف الكبيرة المرسومة بالأحمر على لوحة بيضاء مستطيلة الشكل كنت تنتظرها بالتأكيد لكن ربما ليس بهذه السرعة، والتي سبق وأن قرأتها مرات عديدة، التي تترقبها عند كل ممر إن كانت الرؤية جيدة، فهي تعلمك أن الوصول قريب أو أن الرحلة قد ابتدأت فعلاً .

تمر محطة فونتين بلو–آفون، في الجانب الأخر من الممر تتوقف سيارة سوداء بقوة أحد عشر حصانا أمام مبنى البلدية.

إن كُنتَ تخشى ألا تُدرك هذا القطار الذي اعتدتَ الآن حركته وضجيجه، فليس لأنك نَهَضْتَ متأخرا هذا الصباح أكثر مما كان يجب، فخلاف ذلك، كانت أول حركة شَرَعْتَ بها حين فَتحتَ عينيك هي أنك مَددتَ يَدكَ لمنع المنبه من الرنين، بينما أخذ الفَجرُ ينحت شراشف سريرك المبعثرة، التي كانت تبزغ من الظلمة كأشباح مهزومة، مسحوقة على مستوى الأرض الرخوة والحارة التي كنت تحاول انتزاع نفسك منها.

وأنت تلتفت بعينيك صوب النافذة، رَأيتَ شَعر هنرييت الذي كان أسود، وظهرها مُرتَسماً رويدا خلال قميص نومها الأبيض الشفاف بعض الشيء ثم فجأة، مع أول ضياء كامد ومثبط للعزيمة، يزداد بوضوح شيئاً فشيئا كلما كانت تزيح وتثني بجلبة، الستائر المعدنية ذات الفتحات الممتلئة بالأتربة الزغبية الفحمية التي تتسم بها المدينة، مع بعض آثارٍ للصدأ هنا وهناك كأنها دم متخثر.

انتشرَتْ في عُموم الحُجرة كُتلة من الهواء البارد المخدش، مُلامِسَةً منخريك وحين انكشَفَتْ الشبابيك الستة بكاملها مرة واحدة، ذَهَبَتْ، بفعل تأثرها بالبرد، وهي تلملم بيدها اليمنى ياقتها المزينة بدانتيلا لا قيمة لها أو فائدة، على صدرها الذابل، لتفتح باب الدولاب ذي المرآة، طراز لويس فيليب، مُغَيرةً بحركتها هذه على حين غرة انعكاسات السقف ونتوءاته، وهذا الشق الذي يزداد غوراً شهراً بعد شهر وكان ينبغي أن تصلحه وتخفيه منذ زمن طويل (تحت هذه الإضاءة المنتشرة، ولكن الضعيفة، كما لو أنها خُففَتْ بعدد من الألواح الزجاجية الشفافة الزرقاء، كان خشب الأكاجو نفسه يبدو كأنه بلا لون؛ وحده بريق نُحاسي يميل إلى الصفرة أكثر منه إلى الحمرة كان يرتعش بالقرب من زاوية النتوء الذي يُزين باب الدولاب)، فَتَحتهُ كي تبحث – من بين كل هذه الملابس المُعلقة في مواضعها، بأكمامها المتدلية على نحو مستقيم ونحيف كما لو تكسو الأذرع المتصلبة والخيطية الشكل للظلال الساخرة على نحو قاسٍ لنساء «ذي اللحية الزرقاء»[1] بصمتهن، وتأرجحهن – عن قميص نومها ذي المربعات الرِمادية والصفراء الذي ارتدته كاشفة عن إبطها وهي ترفع ذراعها العارية، ربطت بعصبية حزامه الحريري وبدت فيه كأنها عليلة بتقاطيع وجهها المتوترة، القلقة، المرتابة.

في تلك اللحظة، لم تكن هناك، بالتأكيد، رقة في نظرتها، لكن هل كانت ثمة حاجة لتنهض فيما كان بإمكانك أن تتدبر أمرك بنفسك، كما فَعلتَ مرات عديدة حينما كانت هي والأولاد في إجازة، لكنها غير قادرة على منحك الثقة بشان هذه التفاصيل، حينما تكون موجودة، متصورة دائما أن وجودها ضروري لك وتريد أن تُقنعك بذلك...

انتظرتَ خروجها من حجرة النوم وإغلاقها الباب برفق كي لا توقظ الأولاد النائمين بالقرب من حجرتكم، كي تربط ساعتك بساعدك (كان الوقت حينئذ يكاد يتجاوز السادسة والنصف)، وتجلس على سريرك، تدس قدميك في خفك، تحك رأسك وأنت تنظر بِشرود من خلال زجاج النافذة إلى قبة مقبرة العظماء (البانتيون) التي أَخَذتْ ترتسم

1– ذو اللحية الزرقاء «حكاية من التراث الفرنسي لشارل بيرو، 1697: يشنق ذو اللحية الزرقاء زوجاته الست الواحدة تلو الأخرى ويعلقهن في إحدى غرف قصره وفي اللحظة الأخيرة قبل ان يقتل زوجته السابعة لانتهاكها هذه الحجرة، بعد أن كان قد حذرها من الاقتراب منها، يأتي إخوتها وينقذونها.

قليلاً على السماء الرمادية، متسائلاً عن تعبير وجه زوجتك، متسائلا ليس بالطبع عما إذا كانت على علم بشيء ما، فهذا أمر أكيد، ولكن على علم بماذا بالتحديد، وخاصةً عما يتعلق بهذه الرحلة، وإلى أي مدى تَمكَنَتْ من كشف أسرارك .

لقد سُرِرْتَ بالطبع بارتشاف فنجان القهوة بالحليب هذا الذي أعدته لك، لكنه لم يكن ضَرورياً وهي تعلم هذا، اذ كُنتَ تنوي، على أي حال، أن تتناول فطورك في المطعم الموجود في القطار.

لم تتجرأ أن ترفض لها قبلتها الحزينة، على عتبة الباب:

«حان الآن وقت رحيلك ؛ صحيح أنك في مقصورة الدرجة الأولى تستطيع دوما الحصول على مقعد شاغر».

كيف عَرفَتْ أنك لم تتمكن أن تحجز مقعداً هذه المرة ؟ أحقا أنت الذي أخبرتها؟ ولماذا؟ مهما يكن الأمر، هناك أمر تجهله هي، بالتأكيد، وهو في أي نوع من العربات أنت، وأن هذه الرحلة، لم توعِز لك بها شركة سكابيلي ولن تدفع لك تكاليفها،إذ تقوم بها دون علم مُديري فرع الشركة في روما ودون علم موظفيك في باريس .

أغلقتْ باب شقتك قبل أن تبدأ بنزول درجات السلم، مُضيعةً بهذا آخر فرصة لها لاستمالة قلبك، لكن من الواضح أنها لم تكن تسعى إلى هذا مُطلقاً، وإذا كانت قد استيقظت مبكرا هذا الصباح لخدمتك، فهذا أمر اعتادته فحسب، أو بالأحرى بدافع الشفقة الممزوجة بالاحتقار، من الواضح أن من بينكما أنتما الاثنين هي المتعبة أكثر. لم تُريد أن تنحوَ باللائمة عليها لمجرد أنها لم تنظر إليك وأنت ترحل بعد هذه الكلمات القلائل التي ربما كانت تنم عن السخرية والتي لم تستطع أو لم تشأ الرد عليها، أما كان من الأفضل لكما، لو لم تنهض هي مطلقا من فراشها، لو لم تفتح عينيها أبدا، لو تركتها تغط في نومها، وتزيح الأغطية وهي تتنفس بعمق النائمة، لا تكاد تُرى في الحجرة المظلمة التي لوكنت تَركتَ ستائرها مُسدَلة.

إن كُنتَ قد خَشيتَ ألا تلحق بهذا القطار الذي يسير بانتظام بين الحقول الجرداء والأحراج البنية اللون؛ فذلك لأنك أمضيت وقتا أطول مما كنت تتوقع في العثور على

سيارة أجرة، إذ كان عليك أن تجتاز شارع سوفلو بكامله حاملاً حقيبتك بيدك، ولم تستطع أن توقف سيارة بقوة أحد عشر حِصاناً، أخيراً، إلا في منعطف شارع سان ميشيل، قبالة مقهى «مايو»، بعد محاولات عديدة فاشلة، ولم يكلف سائقها نفسه حتى بفتح الباب أو بمساعدتك لوضع حقيبتك الصغيرة، فقد تَملكك حينئذ انطباع سَخيف يوحي بأنه كان يقرأ في محياك أنك تسافر هذه المرة على الدرجة الثالثة، وليس على الدرجة الأولى كعادتك، والمزعج في الأمر هو ادراكك فجأة انك أَخذتَ تتصرف كما لو كان هذا عاراً، إنه حقاً خلل ينتاب الأفكار الصباحية حين لا يكون المرء في حالة صحو تام، ولا يزال تفكيره مُثقلا بأنصاف أحلام ثقيلة.

كُنتَ مُنزَوياً في الرُكن الأيمن كما أنتَ الآن، رَأيتَ جذوع الأشجار تمضي على الأرصفة التي ما زالت مُقفِرة، أمام الدكاكين التي ما زالت جميعها مُغلقة، وكنيسة السوربون وباحتها الخالية، وهذه الخرائب التي تُسمى حمامات جوليان لابوستا للمياه المعدنية، على الرغم من أنها فيما يدو، أقدم عَهداً من هذا الإمبراطور، وترى سوق النبيذ بالجملة، وسياج حديقة النباتات الطبيعية، وإلى اليسار صدر الكاتدرائية القابعة في جزيرتها، متجاوزة في ارتفاعها جوانب جسر اوسترليتز، وسط الأجراس الأخرى، وإلى اليمين برج المحطة بساعته التي تُشير إلى الثامنة.

في اللحظة التي كُنتَ تَسال فيها المُستَخْدَم الذي كان يثقب تذكرتك التي اشتريتها تواً من شباك تذاكر الخطوط الدولية، عن الرصيف الذي ينبغي أن تتجه إليه، لَحَظْتَ أنه قبالتك تقريبا، بساعته ذات العقارب الساكنة مشيرة لا إلى الوقت حينئذ بل إلى ساعة رحيل القطار، الثامنة وعشر دقائق، واللائحة التي تُشير إلى التوقفات الرئيسة التي تعرفها عن ظهر قلب: لاروش، ديجون، شالون، ماكون، بور، كليوز، اكس ليبان، شامبيري، مودان، توران، جنوة، بيزا، نابولي، ريجيو، سيراكوز، وقد اغتنمت اللحظات القليلة التي كانت لا تزال لديك لتشتري، دون تمحيص، الكتاب الذي لم يبرح منذئذ يدك اليسرى وكذلك علبة السجائر التي لم تفتحها بعد، القابعة في جيب معطفك، تحت وشاحك.

في الجانب الآخر من الممر، تنطلق سيارة سوداء بقوة أحد عشر حصاناً قبالة كنيسة،

وتَسلك طَريقاً يُحاذي السكة الحديد، تنافسكم في السرعة، تدنو، تبتعد، تختفي خلف غابة، ثم تَظهر مُجَدَداً، تجتاز نهراً صغيراً بصفصافه، وقارباً مُهملاً، تُخَلفونها وراءكم، فتستدرك المسافة، ثم تتوقف عند ملتقى طرق، تستدير، ثم تَتوارى باتجاه قرية تختفي أجراس كنيستها وراء منعطف طريق. تمر محطة مونتورو.

ثمة رَنين يَشق الزجمرة فترى موظف قاطرة المطعم يتجه نحوك بقبعته الزرقاء المطرزة باللون الذهبي وسترته البيضاء، لم تكن تنتظره أنت فقط، إذ رفع العروسان الشابان عينيهما، وتبادلا النظرات والابتسامة.

يخرج رجل وامرأة، وامرأة أخرى لا تلمح سوى ظهرها من مقصورتهم ويبتعدون؛ كُم معطف مَطَريّ يمسح زجاج النافذة الذي ما زلت تَسند صَدغك إليه، ثم تَضربه بعض الضربات حقيبة يد كبيرة من النايلون الأسود ذات زر من البلاستيك.

ارتفعت درجة الحرارة قَليلاً وَبَدَأتَ تَشعر بحرارة هذا البساط المعدني الذي يمتد بين المصاطب، المزين بأشكال مَعينيه. جارك، آخر من جاء، يبدو أقل ثراءً بين الموجودين في هذه المقصورة، يطوي مجلته الأسبوعية التي كان يقرأها، يتردد وهلة، لا يدري أين يضعها، ينهض يدسها على الرف حيث تنفرج كأنها مروحة، يخلع واقي المطر ويدسه بفظاظة، مجعداً، بيده الضخمة التي تعصره كما لو كان خرقة لمسح زجاج السيارات، بين صندوقه المُغلف بورق جريدة وحقيبتك الموجودة على الرف (تصطدم حلقة الحزام بالمعدن ثم تبدأ بالاهتزاز في نهاية الحزام المتدلي) يلتقط مجلته ثانية يفتحها ثم يُعاود الجلوس .

زواج أيٍّ ممثلة تمثل هذه الصورة ياترى؟ وكم هو رقمه في سلسلة زيجاتها ؟ عودة الرنين تجعلك تلتفت إلى اليمين، وتتبع بناظريك لبضع لحظات سترة النادل البيضاء الذي يعود إلى عربته ليصب في الفناجين الباهتة الزُرقة كسماء ربيع متذبذب فوق مدينة من مدن الشمال، قهوة رديئة باهظة الثمن.

المرأة الشابة، الأولى التي عزمت على النهوض، والتي تبعها زوجها، يعتذران وهما يمران بجانبك، تعلو وجهيهما الحمرة خجلاً، كلاهما كان يبتسم، كما لو كانت هذه هي رحلتهما الأولى، فأبسط الأحداث، بل كل شيء، هوبالنسبة لهما متعة وأعجوبة، يغلقان باب المقصورة، الذي كان قد تُركَ مفتوحاً قبل هنيهة، ثم يحثان الخُطى.

هذا الذي قبالتك يرفع الستارة المحاذية له.

هيا أنت أيضا؛ هذا الكتاب الذي يُربك حركتك، دسه في جيبك وغادر هذه المقصورة؛ ليس لأنك جائع حقا، فقد تناولتَ قهوة قبل قليل؛ وليس لأنك مُعتاد على هذا فحسب، فأنت الآن في قطار آخر غير الذي اعتدت أن تستقله، وتخضع لتوقيت غير الذي ألفته، «لا»، فهذا يشكل جزءاً من قراراتك، إنها الآلية التي وَضَعتَها بنفسك والتي بدأتْ تَفعل فعلها في غَفلةٍ منك.

إنه المكان بعينه، وهذه هي المقصورة التي كُنتَ قد غادرتها، وهذا هو الرجل الأشيب، المستغرق الآن في قراءة كتاب ثخين ذي غِلافٍ أسود غير متقن، الذي كان قبالتك مع جاره ذي الوجه الأحمر، النظيف جداً، ذي العينين الصغيرتين كأنهما عينا سمكة شرهة، وهذا الكاهن القريب من النافذة الذي يحاول عَبثاً أن يستغرق في كتاب صلواته من جديد.

أما العريسان، العاشقان، اللذان تركتهما على بُعد أربع عربات، وهما منحنيان على مائدتهما في حديث هادئ، فكل شيء لهما هو ذريعة للكلام، كل شيء مصدر رضىً جديد، أما أنت، فالضجر والوحدة، دفعاك حتى هذه الخانة، مأواك في فضاء هذا القطار الذي يحملك، موسوم بهذا الشيء الذي يخصك: حقيبتك إلى يسارك فوق الشبكة.

لكن مكانك أسفل هذه الشبكة، في الركن المُطل على الممر باتجاه سير القطار، حيث كُنتَ سَعيداً جداً عندما وجدته شاغرا في محطة ليون، هو الذي توصي الكسندر مارنال بحجزه لك دوماً في مقصورة الدرجة الأولى في رحلاتك الرسمية، كان ينبغي أن تحجزه بالكتاب الذي يثقل معطفك، ويمط جيبك المثقل، والذي ما كنت ستقرأه هناك؛ يشغله الآن هذا القادم الأخير الذي وَجدته كَريهاً حال دخوله بطريقته هذه لاستعراض قوته، فاتحاً الباب بضربة كتف واحدة، وهذه الثقة الحمقاء وهذه السوقية، إنه ما يزال مُستغرقاً في مجلته الأسبوعية المصورة، دون أن يُبدي أي نية في إزعاج نفسه ليعيده إليك، إنه يُمثل شَركة ما، ليس في هذا أدنى شك، ولكن في أي مجال ؟ نبيذ، مُنتجات صيدلانية، ربما ملابس، لكن بالتأكيد ليس في مجال الآلات الكاتبة، فلو كان كذلك لكانت أمتعته مختلفة تماما، إلا إذا كان مثلك هارباً من شيء ما...

هل استمرت درجات الحرارة بالارتفاع أثناء غيابك، أم أنها الحركة التي قُمتَ بها، أوالمشروب الساخن الذي تناولته، إنك تنضح عرقاً. يرتجف وجهك، بمستوى المرآة تماماً، داخل إطارها بفعل حركة القطار. لقد حَلقت بعجالة هذا الصباح لذلك تَلحظ نقاطاً

سوداء عديدة بالقرب من أذنيك. تُمرر يدك النَدية على ذقنك. بشرتك ليست خشنة الملمس فحسب، بل متوترة أيضا؛ قسمات وجهك متعبة، نظرتك مُطفأة، فمك فيه طعم مرارة. لم تفلح بعد في أن تستيقظ تماماً مع أنك أخلدت إلى النوم مبكراً ليلة أمس، على رغم فنجان القهوة الأخير، ومع ذلك، فأنت تتحقق من هذا بالنظر إلى ساعتك اليدوية، لقد تجاوز الوقت التاسعة بكثير، في مثل هذا الوقت في يوم من أيام الأسبوع الاعتيادية تكون في عملك في جادة الأوبرا، ويصل كُتاب الآلة الكاتبة المتأخرين عن العمل مذعورين.

يَنبغي أن تكون هذه الرحلة تحريراً، تجديداً للشباب، تَطهيراً شاملاً لجسدك ورأسك؛ ألا يُفترض أن تَشعر الآن بمنافعها والحماسة لها؟ ما هذا المَلل الذي يُلازمك، بل تكاد تقول هذا الضيق؟ أهو التعب المتراكم منذ شهور وسنوات عديدة، الذي احتواه توتر ما كان ليرتخي قط، هو الذي ينتقم الآن، فيجتاحك، مُفيدا من هذه الإجازة، التي تمنحها لنفسك، كما يفيد المد الكبير من أدنى شق في السد ليغمر بمرارته المُقفِرة الأراضي التي كان هذا السد قد حماها حتى ذلك الوقت.

ولكن أليس من أجل تَدارك هذا الخطر الذي كُنت تَعيه تَماما إن أَقدمتَ على هذه المغامرة، ألا تقودك هذه الآلة إلى الشفاء من جميع هذه التصدعات المُنذرة بالشيخوخة، حيث تنتظرك أي سكينة وأي تصحيح في روما ؟

لِمَ إذن تتقلص أَعصابك، وهذا القلق الذي يعوق دوران دمك ؟ لِماذا لا تبدو عليك بوادرالاسترخاء بعد؟ أهو حقاً التغير البسيط في جدول مواعيدك الذي يُثير فيك هذا الاضطراب، هذا التغرب، وهذا الوجل، ألأنَكَ رَحَلتَ في الثامنة صباحاً وليس في المساء مثلما اعتدت، هل غَدوتَ روتينيا وتابعا إلى هذا الحد ؟ آه، لقد كانت هذه القطيعة إذن ضرورية وَمُلِحة، فالانتظار بضعة أسابيع أخرى، كان يعني ضياع كل شيء، كان هو الجحيم الباهت الذي كان يُطبق عليك، وما كُنت لتجد الشجاعة ثانيةً. أخيراً، يقترب الخلاص ومعه سنوات رائعة.

والآن، اخلع معطفك، اطوِه، ارفعه وضعه فوق حقيبتك. بيدك اليمنى تُمسك بالقضيب المعدني، ينبغي أن تنحني جانباً، إنه وضع غير مريح ولاسيما أنك مُلزم بالإبقاء عليه برغم

الاهتزازات المتواصلة، لتضغط بإبهامك على أزرار القفلين اللماعين اللذين ينفتحان فجأة محررين الغطاء الجلدي الذي يرتفع ببطء كما لو كان يتحرك بفعل نابض بطيء، كي تُمرر أصابعك تحته وتتلمس على غير هدى المحفظة الصغيرة المصنوعة من النايلون الغامق ذي الخطوط الحمراء والبيضاء التي رَميتَ فيها هذا الصباح (كيفما اتفق، دونما ترتيب، بعجالة ونفاد صبر، مباشرة بعد أن جففت هذا الوجه الذي كنت قد استجوبته في مرآتك الخاصة في: 15 ساحة البانتيون) فرشاة الحلاقة التي ما تزال ندية، وصابونة الحلاقة في علبتها الرمادية، المصنوعة من البلاستيك، وعلبة الشفرات الجديدة، وفرشاة أسنانك، ومشطك، ومعجون أسنانك، والمحفظة الصغيرة الملساء المصنوعة من النايلون، التي تحوي كل هذا، بحلقة سحابها الصغيرة، ثم الحافظة المصنوعة من الجلد التي تضم خفيك، وقماش بجامتك الحريري الأحمر القاني الذي اخترته مساء أمس بتأنٍ من أجل سيسيل، من بين ألوان قوس القزح المميز من احتياطي ملابسك في الدولاب ذي المرآة في غرفة نومك، حينما كانت هنرييت تُشرف على التحضيرات النهائية لوجبة العشاء، وكان يتناهى إلى أسماعك، مُخَفَفاً بعازل جدار واحد، مشاجرة الأولاد الذين ينبغي أن يكونوا في سنهم هذا قد أصبحوا قادرين على أن يتحمل بعضهم بعضا، ثم، أخيراً، الكُراسة التي كُنتَ تبحث عنها.

يعود الغطاء ثانيةً إلى مكانه مع بعض الاهتزازات المرتخية لكنك تهمل إعادة غلق أقفاله.

تجلس وَسط المصطبة بين الكاهن الذي يتلو صلواته (كم من الساعات يستغرقهم هذا!) قبالة النافذة التي تطل على الحقول المُسرعة والأفق البطيء المُضَبَبْ، والوكيل المُتَجَوِل المنحني على صحيفته المُشرعة، شاقاً طريقه ببطء، وبدقة، وسط حكاية زواج النجوم هذا، أمام النافذة التي تطل على الممر حيث يمر معطف من القطيفة الحمراء المُحَززة التي كُنتَ قد لمحتها قبل هنيهة في مطعم القطار.

تَشعر بالحرارة تَخترق نَعْلَي حذائك الأشقر الذي أَصلحتَ أحدَ أشرطته بعمل عقدة مخفية لكنها تَرفع قليلاً جلد الحذاء، كأنها دُمل صغير وتضغط على جلدك، بينهما زوجا حذاء آخر أسود اللون، ملمع، تتجه مقدمته المدببة بالاتجاه المُعاكس، يلتمع في الظل، يُطبق

على جوارب قطنية زرقاء دكناء تُغطيها حافة بنطال من الصوف ذي خطوط دقيقة بلونين رماديين متقاربين ينشر عليه خَيطٌ دقيق أبيض دوائرَه الحلزونية، وفوضى من الغيوم بعثرتها ريح الصباح.

تَرتفع هذه القدم السوداء وهي ترتجف نحو اليمين، تتقاطع الساق التي ترتبط بها هذه القدم مع نظيرتها الثانية، وبعد أن لَمْلَمتَ ساقيكَ، شرعت تتأمل الغلاف الأزرق السماوي المربع الشكل لدليلِ مواعيد رحيل القطارات «شيه» الخاص بالمنطقة الجنوبية الشرقية الذي تُمسكه بيديك المرتجِفتين هما أيضا كما ترتجف هذه المقصورة برمتها بهدوء في انتقالها من باريس إلى روما .

إنها «طبعة الثاني من تشرين الأول 1955، لجدول المواعيد الشتوي، ساري المفعول حتى الثاني من حزيران 1956»، بإعلاناته: «في جميع الفصول، فندق دولابيه، نيس» (لم يسبق لك أن نزلت فيه قط)، «نوغا[1] شابير وكيو»، ثم بحروف صغيرة جدا تُقَربها من عينيك كي تتمكن من قراءتها، ومما يَزيدُ الصعوبةَ في قراءتها أنك لا تتمكن من إبقائها ثابتة إزاء عينيك: «إلى الخلية الذهبية»، منحنيةً كأنها قبة بعروة سلة فوق رسم يمثل خلية قديمة، كوخ صغير مستدير، سقفه من القش وأربعة بقع غير متسقة تمثل بالطبع نحلاً (طنين هذا القطار منخفض، لكنه يُذَكر من وقت لآخر بهذه النبرة الحادة، أنه معدن يدور ويحتك بمعدن، وفي مكان آخر: «عشب راعي الحمام» (لم يسبق لك أن تذوقته! لا بد أنه يميل إلى الخضرة ومذاقه حلو، يمكنك أن تَسأل بعد هنيهة في قاطرة المطعم إن كان لديهم منه! فهم يقترحون عليك دوماً شراباً كحوليا».

تتذكر حينذ أن اسمها «بوي اون فاليه»، واحدة من هذه المدن العديدة التي لم تذهب إليها قط، واحدة من مدن الريف الفرنسي التي لا بد أنها تنضح ضَجراً على الرغم من معالمها الجيولوجية النادرة وسدودها البركانية، إن كانت هذه تسميتها فعلا، وكاتدرائيتها المزينة بالرسومات، مدينة يقطن فيها أحد موظفيك، وهو ممثل شركة سكابيلي في عموم منطقة «السيفين»، فهؤلاء ليست بهم حاجة، فيما يبدو، كبيرة لآلات كاتبة، وهذه بديهة

1- نوع من الحلوى البيضاء المعجونة بالجوز والفستق (المترجمة).

يمكن لصبي حصل تواً على شهادة الدراسة الابتدائية أن يخبرك بها (لكن كان لا بد إن تنتشر فروع الشركة في جميع أنحاء فرنسا)، وحيث من الطبيعي جداً ألا يتدبر أمره جيدا، هذا الرجل الذي طلبت أمس أيضا أن يبعثوا إليه برسالة إنذار، هذا الرجل الذي لم تره قط ولم تحفظ حتى اسمه، إذ كُنتَ قد كلفت «مولاندون» الذي يذهب كل عام إلى منطقة «بوي» أثناء جولته التفقدية في وسط فرنسا، بمتابعة هذه القضية بكاملها.

العريس الشاب وزوجته الحديثة العهد، لا بد أن يكونا قد عادا منذ مدة، فقد وصلا قبلك إلى عربة المطعم وكانت طلباتهما على المائدة حين لحظتهما وأنت تدخل المطعم يضعان الزبدة على الخبز المحمص. صحيح إنهما معاً، هُما، يكتشفان، وهما مبتهجان، ويقومان بهذه الرحلة أول مرة فيما يبدو، لديهما الكثير من الأشياء ليقولاها أحدهما للآخر، ليست بهما حاجة لتمديد المراحل المختلفة لهذه الرحلة كي يملآ قدر المستطاع الفراغ ويبددا السأم، ولإبطاء حركة فكيهما كما كنت تفعل قبل هنيهة كي تتآكل مزيداً من الدقائق، فأي شيء سيأخذ منهما الكثير من الوقت وسيمضي بالنسبة إليهما بسرعة كبيرة، فهما لا ينوءان بالتعب المُسبق بفعل الساعات الطوال هذه قبل الوصول التي اعتدتها تماما، هذه الساعات الطوال التي تفصلك عن سيسيل يجب عليك أن تحتملها هذه المرة في هذه المقصورة غير المريحة من الدرجة الثالثة، لكن هذا لن يقلق متعتهما، وإذا كانا ذاهبين إلى روما مثلك، ستراهما غدا صباحاً يستيقظان متعبين ولكنهما مبتسمان.

تدخل هي، لطيفة، نَبهة، تعتذر إلى جارك الجالس إلى يمينك، الوكيل التجاري الذي أخذ مكانك، فيرتفع رأسه عن مجلته المصورة التي كان يحاول أن يحل أحد ألغاز الكلمات المتقاطعة، مُسنداً إياها على ركبته كي يكتب بقلم الرصاص، تعتذر كذلك للأستاذ الجالس قبالتك (لا يمكِن أن يكون إلا أستاذاً) الذي يغلق كتابه المُغلف بغلاف أسود والمزود ببطاقة بيضوية الشكل من الورق المُتَسخ ملصقة على ظهره، خُطَت عليها بالحبر الأسود بريشة غليظة من الطراز القديم الأرقام التي تتواءم دون شك مع تصنيفه في مكتبة جامعية، ثم إلى الرجل الانجليزي (اذ لا بد أن يكون انجليزياً) الذي يجلس باستقامة تامة، الوحيد الذي لا يقرأ حاليا في هذه المقصورة، ثم تتوجه بالاعتذار إليك، لا تسحب ساقك بسرعة؛ فتتعثر،

تمد يدها اليسرى إلى أمام، محتفظةً بيدها الأخرى بحقيبتها بهيئة سلة مصنوعة من القش المحاط بالجلد الأبيض، مقبضها من الحبال، يبرز منها طرف وشاح وصفحات مجلة نسوية مطوية الوسط؛ تستند أصابعها برهة على الجلد الأخضر بالقرب من فخذك تماما، فيلامس معطفها المطري ركبتيك. تلتفت هي إلى الخلف، شفتاها الآن بمستوى عينيك تماما، تبتسم لرفيقها الذي يتبعها، مُمسِكاً بيده اليمنى القضيب النيكلي الذي يؤطر الشبكة الموجودة قبالتك. ها قد استعادت توازنها؛ تنحني الآن متعمدةً لتلتقط الكتابين اللذين حَجَزا بهما مقعديهما، الدليل السياحي الأزرق[1] وكتاب تعلم الايطالية بالطريقة المبسطة، الذي تناوله إلى زوجها فيضعه على الرف.

هما أيضا لحظا تغير درجة الحرارة، فخلعا معطفيهما المطريين.

تجلس بالقرب من النافذة، تدس حقيبتها اليدوية بجانبها في الركن، تضم يديها بين ركبتيها مقعرة بذلك تنورة من التويد الرمادي. يستعيد هو كتبه من على الرف ويجلس؛ يتبادلان النظرات، ينظران إليك ويبتسمان، إذ كانا قد عرفاك هناك فيما كان هو يسحق السكر في فنجانه الأزرق الثخين؛ ثمة صداقة بسيطة نشأت بينكم أنتم الثلاثة تميزت عن الأربعة الآخرين، بتناولكما هذه الوجبة الخفيفة في الصالة المتحركة نفسها، وإن يكن على انفراد، إلى حد أن بإمكانك الآن أن تقترب قليلا وتبدأ حديثاً معهما، لكن بما أنك لا ترغب بهذا، ينتابه الملل بسرعة، فيشيح بوجهه عنك، يستعيد هيئته الرزينة، يفتح دليله السياحي، يبسط خارطة مدينة ما، بينما تُخرج هي من حقيبتها اليدوية مجلتها النسوية وتبدأ بتقليب صور فساتين. يَثني الكاهن الشاب ذراعه، يستغرق ثانيةً في كتاب صلواته التي يتمتمها بهيئة ملل. نرى بقرات في الحقول. تعود إلى دليل مواعيد الرحلات الذي تتصفحه.

ها هي الفقرات المتراصة للتعليمات، الأعمدة الضيقة لأسماء المحطات، جداول الخطوط الدولية، هو ذا الجدول الذي يعنيك: E: حيث تجد القطار الذي تستقله الآن 609، السريع، الدرجات الأولى، والثانية، والثالثة (يبدو أن هذه الأخيرة لن يكون لها في

1- Le Guide Bleu دليل سياحي ذائع الصيت يصدر في فرنسا ويمتاز برصانة معلوماته.

العام المُقبل وجود)، ثمة مَعين أسود اللون يُشير إلى وجود معلومات تكميلية في الحاشية فترجع إليها، ومن خلالها تكتشف أن هناك عربات قطار مباشرة ليس من باريس إلى روما فقط، بل إلى «سيراكوز» أيضاً، وتتساءل إن كُنتَ في إحدى هذه العربات، وإن لم يكن العاشقان، العروسان ذاهبين إلى هذه المدينة التي لا تعرفها لكنها تبدو لك، وفق ما سمعت عنها، ووفق الصور التي رأيتها، ملائمةً تماماً لرحلة زفاف، خاصة في هذا الفصل، فقد لا يكون الجو حسناً حتى في روما.

تَمُر محطة «سان جوليان دو سالو» بمصابيحها وبلافتات هذه المصابيح، والكتابات بحروف كبيرة على جانب البناية، وبرج أجراس الكنيسة، والطرقات، والحقول، والغابات، والزوجان الشابان يتحدثان عن تفاصيل ما يُشيران إليها على الخارطة. في الجانب الآخر من الممر، ثمة أراضٍ متفرقة للصيد، وأراضٍ متموجة، إزاءها طريق خارجي تسير فيه شاحنة تبتعد، ثم تعود، وتتوارى خلف بيتٍ ما، يتبعها راكب دراجة بخارية يجتازها على وفق منحنى جميل بهيئة قوس قزح، ثم يتركها تتجاوزه، مثل قطارك، ويغادر المشهد.

هذا القطار الذي رَحَل كما يرحل كل يوم في الثامنة وعشر دقائق من محطة «ليون» في باريس، والذي يضم عربة مطعم كما يُشيرُ إلى ذلك وضع الشوكة والسكين الصغيرتين المتقاطعتين، عربة المطعم نفسها التي استخدمتها تواً، كالعروسين الإيطاليين والتي ستعود إليها لتناول وجبة الغداء، ففي العشاء سيكون حينئذ قطار آخر، إيطالي هذه المرة، وسيتوقف في مدينة ديجون ثم يغادرها في الحادية عشرة وثماني عشرة دقيقة، سيمر في بور في الثالثة عشرة ودقيقتين، يترك ايكس - لي - بان في الساعة الرابعة عشرة وأربعين دقيقة (سيكون هناك فيما يبدو ثلج على الجبال المحيطة بالبحيرة). سيتوقف ثلاثاً وعشرين دقيقة في شمبيري ليتسنى لمسافرين آخرين إتمام الرحلة، وعند اجتياز الحدود من الرابعة وثمانٍ وعشرين دقيقة حتى الساعة الخامسة وثماني عشرة دقيقة لإتمام الإجراءات (هذا البيت الصغير بعد كلمة مودان، هو خط مبهم يعني جمارك)، سوف يصل إلى محطة «تورينو بيازا ناسيونالي» في التاسعة عشرة وست وعشرين دقيقة (آه سيكون الليل قد

أسدل ستاره منذ وقت طويل) سيغادرها في الساعة العشرين وخمس دقائق، سيترك محطة بيازا برانسيبي(المحطة الرئيسة) في جنوة في الساعة الثانية والعشرين وتسع وثلاثين دقيقة، سيصل إلى «بيزا في الواحدة والربع مساءً، وأخيرا المحطة النهائية روما غداً صباحا في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، قبل الفجر بكثير، هذا القطار الذي لا تعرفه لأنك تستقل عادة القطار الآخر، هذا الذي يظهر في العمود الآخر، السريع رقم سبعة، روما- اكسبريس المزود بمقصورات للنوم، الذي لا يضم إلا الدرجتين الأولى والثانية، ويفوق بسرعته القطار الحالي، إذ لا يستغرق إلا ثماني عشرة ساعة وأربعين دقيقة في قطع المسافة، بينما يستغرق هذا، دعنا نَرَ، إحدى وعشرين ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة، هذا ما يجعل الفرق ساعتين وخمس دقيقة، ووقت رحيله اكثر مواءمة بكثير، إذ يغادر في وقت العشاء ليصل في بداية عصر اليوم التالي.

هذا القطار الذي أنتَ في داخله، كي تبحث عن معلومات أوسع عنه، (الآخر، المعتاد، روما - اكسبريس، تكاد تعرف مواعيده عن ظهر قلب وحينما تستقله لا تحتاج قط إلى هذا الكتيب المربع الشكل الذي تتخبط فيه على الرغم من خبرتك) ينبغي أن ترجع إلى الجدول خمسمئة الذي يُفَصِل الرحلة على نحو أفضل، إذ يذكر جميع المحطات، حتى تلك التي لا يتوقف فيها القطار، ثم، ابتداءً من «ماكون» حيث نترك الطريق الرئيس «باريس - مارسيليا» في الجدول خمسمئة وثلاثين، لكن بعد مدينة مودان ستحتاج إلى جدول مواعيد إيطالي، فالجدول الحالي ليس فيه إلا هذه الصفحة بالمراحل الرئيسة للرحلة: تورينو، جنوة، بيزا، بينما ستكون هناك بالتأكيد توقفات أُخَر، في ليفورن فيما يبدو، وربما في سيفيتافيجيا.

سيكون الليل دامساً. سوف تصحو بصعوبة بعد نوم متقطع في الأغلب، خاصة إن كنت مُرغماً على ملازمة هذا المكان الرديء في وسط المصطبة، لكن مع ذلك ثمة احتمال كبير في أن تنجح باستعادة إحدى الزوايا في اللحظة التي سينزل فيها أحد رفاقك الحاليين، لأن من المُحال أن يستمر الجميع إلى هناك.

أيّ واحد، مِن بين هوؤلاء الستة، سيبقى حتى المحطة النهائية في هذه المقصورة المُضاءة

بهذا القنديل الأزرق الخافت فقط، بهذه الزجاجة الكروية الشكل المعتمة التي تلحظها في داخل المصباح المعلق بين المصباحين الشفافين الآخرين، الكمثري الشكل؟ في الريف، سيكون ضوء المنازل مُطفأً. سترى مرور مصابيح بعض الشاحنات، وفوانيس المحطات؛ ستشعر بالبرد؛ ستمرر يدك على ذقنك التي ستكون أكثر خشونةً مما هي عليه ألان؛ ستنهض، وتخرج، وتذهب حتى نهاية الممر لتضع قليلا من الماء على عينيك.

حينئذ، بعد مصافي النفط بشعلتها، والمصابيح التي تُزين أبراجها العالية المصنوعة من الألمنيوم مثل شجرة عيد ميلاد، بينما ستجول في جُل أنحاء المدينة التي ستكون مظلمة ونائمة باستثناء عربات الترامواي والباصات الكهربائية التي ستكون قد ابتدأت ضجيجها، بعدها سوف تتتابع محطات ضواحي روما: روما – تراستفيري (وستلحظ بعض الانعكاسات في ماء النهر الأسود)، روما –اوستينسي (ستلمح أسوار الهرم وقمته المدببة المضيئة)، روما – تسكولانا(حينئذ، ستدخل، من البوابة العظمى، مباشرة نحو المركز).

وأخيرا روما– تيرميني (المحطة النهائية)، المحطة الشفافة، حيث يحلو الوصول إليها مع الفجر كما يُتيح ذلك هذا القطار في فصل آخر، أما غداً فسيكون الليل حالك الظلمة بعد.

في الجانب الآخر من الممر، ثمة حقلٌ فيه مجموعة من أشجار الحور الصفر، وطريق ضيقة متعرجة تنعطف ثم تظهر ثانية خلف ساحة كبيرة من خطوط محراث دقيقة، محدبة، تنتشر عليها الغربان، حيث ينطلق راكب دراجة بخارية يعتمر خوذة، ويرتدي سترة من الجلد يقترب من السكة، ثم يتوارى بين أكوام من التراب تحت جسر حيث ترى مقدمة العربة التي تسحبك والعربات الأولى التي تسبقك. تحاول أن تراه ثانية عبر زجاج النافذة بين الكاهن والمرأة الشابة، لكن لا بد أنه الآن بعيد جدا خلفك.

لقد اتخذتَ قَرارهذه الرحلة على نحو مُفاجئ، حينما عُدتَ إلى منزلكَ لتتناول طعام العشاء، دون حقيبة سفرك التي كُنتَ قد تركتها في مكتبك، في جادة الأوبرا في زاوية شارع «دانيال – كازانوفا»، إذ لم تكن سيارتكَ معك، ولم تكن قد قَررتَ شيئاً بعد، حتى وإن كانت لديك النية منذ مدة طويلة في إيجاد عمل لسيسيل في باريس، لكنك لم تكن

قد اتخذت أي إجراء إيجابي في هذا الإتجاه، إلا يوم الثلاثاء صباحاً، بعد أن تَفحصتَ جميع القضايا المعتادة، وقرأتَ البريد الذي كان قد تراكمَ أثناء إقامتك في روما، إذ تتصل بأحد زبائنك، جان دريو، مدير وكالة السفريات «دريو» التي كنت تلحظ واجهاتها من نافذتك، كي تطلب إليه، موصياً إياه الكتمان، إن كان يعلم بعمل يمكن أن يوائم امرأة ذكية جداً، في الثلاثينيات من عمرها، تتحدث الإنجليزية والإيطالية بطلاقة، تعمل حاليا، سكرتيرة لملحق عسكري، إن كانت ذاكرتك جيدة، في السفارة الفرنسية في روما، إذ لا يعجبها العمل كثيرا، وستكون مستعدة لقبول مرتب متواضع نظراً لرغبتها الشديدة في العودة إلى باريس.

كان من الممكن تماماً أن يجد شيئاً، أجابك قائلا؛ سيتصل بك حال حصوله على معلومات، وهذا ما فعله عصر اليوم نفسه مما أثار دهشتك ورضاك، مُعلناً أنه كان يود إجراء تعديلات عديدة في عمله وأن شخصاً كالذي كنت قد حدثته عنه يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة في إطار هذا التجديد، مقترحا مبلغاً معقولا تماماً إلى حَد أنك أخذت على عاتقك مهمة ضمان موافقتها.

أما بشان تاريخ بدئها العمل ؟ فمتى تشاء، كلما كان مبكراً كان أفضل، لكن ليس الأمر عاجلاً، لتأخذ الوقت اللازم لتصفية أمورها في روما، استقالتها، انتقالها من منزلها، استقرارها في باريس، كان يعرف جيداً كم من الصعب التكهن بكل الصعوبات التي يمكن أن تبرز في مثل هذه المناسبات، وكانت في صوته، في لباقته، نبرة تواطؤ مزعجة.

في تلك اللحظة، كُنتَ تُفكر بترتيب كل شيء من خلال الرسائل وألاّ ترى سيسيل مرة أخرى إلا في رحلتك الشهرية القادمة، أثناء اجتماع نهاية العام الشامل لمديري الفروع الأجنبية لشركة سكابيلي، ولم تتعجل الأمور إلا يوم الأربعاء، وهذا دون شك لكونه الثالث عشر من تشرين الثاني،عيد ميلادك الخامس والأربعين إذ أن هنرييت ما تزال متمسكة بهذه المناسبات الأسرية التافهة، وقد أولته أهمية خاصة هذا العام، لشكوكها المُقنعة أكثر مما تظن هي، مُعتقدةً أنها تُمسك بك، تحصرك في شبكة الطقوس الصغيرة هذه، ليس بوازع الحب بالتأكيد، فكل هذا كان قد انتهى بينكما أنتما الاثنين منذ زمن بعيد (وإذا كانت

ثمة عاطفة صبيانية قديماً، فإنها لا تُقارن بالشعور بالتحرر والبهجة الذي كانت سيسيل تمنحك إياهما)، لكن بخشيتها المتزايدة يوماً بعد يوم (آه، كم كانت تهرم !) من أن ترى تغيراً يطرأ على النظام الذي كانت قد اعتادته، ليس بدافع الغيرة تماماً، بل بهاجس من أن طَيشًا منك أو مشاجرة عنيفة تأتي لتفسد راحتها وراحة الأولاد في حين أنها ما كان ينبغي أن تخشى شيئا بهذا الشأن، لكنها لم تمنحك ثقتها يوماً، أو في الأقل أنها فقدت هذه الثقة منذ زمن بعيد، هذا ما كان دون أدنى شك سبب هذا التمزق بينكما الذي مافتئ يزداد على مر السنين، وأن نجاحاتك الأكيدة التي تدين لك بها في هذه الشقة الجميلة التي كانت تعتز بها كثيراً، لم تقنعها أبداً، وكنت تشعر على نحو متزايد، حتى قبل أن تكون لها أسباب حقيقية لذلك، أنها تنحو باللائمة عليك بصمت، وتترصدك.

حينما دَخلتَ إلى غرفة الطعام يوم الأربعاء لتتناول وجبة الغداء(كانت تلتمع من خلال زجاج النافذة غصينات إفريز البانتيون[1] الرائعة المضاءة بشعاع شمس تشرين الثاني البيضاء الذي ما لبث أن أصبح كامداً)، حينما رأيت أولادك الأربعة منتصبين خلف مقاعدهم، مستقيمين، ساخرين، حينما لمحت على وجهها وعلى شفتيها في الظل، هذه الابتسامة المنتصرة، خُيل إليك أنهم اتفقوا جميعا أن ينصبوا لك فخاً ليوقعوك فيه، وأن هذه الهدايا في صحنك هي طُعم، وأن وجبة الطعام هذه كلها كانت قد أُعدت بعناية لإغوائك (وكيف لها ألا تعرف ميولك وأذواقك وأنتما تعيشان معاً منذ ما يقارب عشرين عاما)، وَرُتِبَت لإقناعك بأنك أصبحت من الآن فصاعدا رجلاً مُسناً، مركوناً، مُرَوَضاً، بينما كانت قد انفتحت لك منذ زمن قصير جداً هذه الحياة المختلفة تماماً، هذه الحياة الأخرى التي لا تحياها سوى بضعة أيام في روما، والتي لا تمثل حياة الشقة الباريسية، إلا وهمًا لها، ولهذا أنت متمسك بالحذر على الرغم من توترك، فقد أتقنت لعبتهم، ونجحت في أن تبدو مَرِحاً بعض الشيء، مُهنئا إياهم على اختيارهم، مُطفئاً بارتياح الخمس والأربعين شمعة ولكن عازماً تماما على إيقاف هذا الخداع الذي أصبح مُستديماً، وسوء الفهم الراسخ هذا، في أسرع وقت ممكن. فقد حان الوقت تمامًا!

الآن ستأتي سيسيل إلى باريس وستمكثان معا، لن يكون هناك طلاق، ولا فضائح

1– البانتيون: مقبرة العظماء، تقع في قلب باريس.

كُنتَ مُتيقناً تماماً من هذا ولا تزال؛ فكل شيء سيحدث بهدوء، هنرييت المسكينة ستلزم الصمت، والأولاد، يمكن أن تذهب لرؤيتهم مرة واحدة في الأسبوع تقريباً؛ وكنت مُتيقناً من موافقة سيسيل بل ومن فرحها المنتصر، هي التي طالما كانت تنكدك بشان رذائلك البرجوازي.

آه، كان ينبغي الهرب من هذا الاختناق النذير بأسرع ما يمكن، وتنفس نفحة كبيرة من هذا الهواء المستقبلي، من هذه السعادة القادمة، كان ينبغي أن تُعلن لها هذا النبأ وَجهاً لوجه كي ينتهي الأمر دون احتمال سوء فهم.

بعد الظهر، في جادة الأوبرا، تحققت كذلك من أن ليس ثمة أمر عاجل، وأبلغتَ مينار، مساعدك، أنك ستغيب بضعة أيام، من الجمعة إلى الثلاثاء، وأرسلته ليشتري لك جدول مواعيد الرحلات الذي بين يديك، لكن لم تطلب منه أن يشتري لك تذكرتك، ويحجز لك مَقعداً إذ لم تكن لديك رغبة بأن يعلموا في الشركة أنك عائد إلى روما.

حينما أَخبرتَ هنرييت في المساء أن ثمة ظروفاً استثنائية تُرغمك على الرحيل يوم الجمعة صباحاً، صباح الجمعة هذا الذي يمضي، لم يكن أمر رحيلك هو الذي أثار شكوكها، إذ سبق لك أن اضطررت عدة مرات للذهاب إلى المركز الأم في رحلة سريعة، بين رحلتين نظاميتين، لأمر عاجل، لكنها الساعة غير المعتادة، وغير المؤاتية لرحيلك كما يبدو، التي اخترتها كي تفيد من عطلة نهاية الأسبوع برمتها مع سيسيل، وتتناول وجبة الغداء معها غداً السبت، وكذلك، ينبغي الاعتراف بذلك، لوجود درجة ثالثة في هذا القطار، ولأنك كنت تحسب أن هذا الهروب، المهم جداً بالتأكيد لسير حياتك المستقبلية، لكن كان بوسعك الاستغناء عنه، فهو بالطبع غير مدفوع لك، وسيكلفك إلى حد ما باهظاً، إذ أَخَذَت هنرييت تطرح الأسئلة بشأن مسألة الساعة هذه بالذات، وبشأن القطار الذي اخترته، فكان ينبغي لك أن تختلق الأعذار الواهية، دون مهارة كبيرة والحق يقال، إلى حد أنها كان بوسعها أن تواجه كل واحد منها باعتراضات صائبة ما كنت تجد لها جواباً، وكانت تندهش عندما تراك تصر بشكل غير معقول البتة.

في أثناء العشاء الذي تبع ذلك، وكان متعباً للجميع، ما انفك الأولاد يضحكون

ساخرين، وجوههم في صحونهم، وقلما تبادلتم الحديث إلا عندما طَلبتَ من جاكلين أن تذهب لتغسل يديها الملطختين تماماً بالحبر، ولكونها ذهَبتْ وهي تهز كتفيها امتعاضا، أغضبك هذا غَضباً شديداً، وظنت والدتها بالطبع أن من الأفضل أن تدافع عنها جِهاراًإلى حد أن الصغيرة، عندما عادت، من دون أن تفوتها كلمة واحدة من الحديث الصاخب الذي دار وهي في الحمام، جلست وهي فخورة في أنها تغلبت عليك، (هي، الصغيرة المفضلة لديك، إذ لا تربطك بالآخرين أي صداقة، لا تعلم بماذا يفكرون، ولا تفهم ما يحبون، إنهم يشكلون هم الثلاثة ما يُشبه العصبة ضدك، إلا عندما يتشاجر الولدان) مشهد، لو كان في دخيلتك شيء من التردد، لتخلصت منه.

ما أن ازدردت اللقمة الأخيرة حتى ارتديتَّ معطفكَ، ونزلتَ، وذهبتَ لتأخذ من المرآب، في شارع ليستراباد، سيارتك بقوة الخمسة عشر حصاناً، التي قَطعتَ بها من باريس نحو مئة كيلومتر في الليل الممطر، وتركتهابمحاذاة الرصيف في ساحة البنتيون حينما عُدتَ بعد منتصف الليل لتجدَ هنرييت في سريرك لم تغفُ بعد، لم تقل لك شيئا، كانت ترمقك فقط بنظراتها الساخرة والمحقرة بعض الشيء.

في اليوم التالي، أي يوم أمس الخميس، كان الوضع، لحسن الحظ، قد هدأ، ومرت وجبات الطعام بهدوء، في هذا الجو البارد البائس، الذي يستمر ويتفاقم، في هذا اليوم المتسارع والمتوتر، إذ كان ينبغي أن تكون قد أنجزت، من أجل هذه الإجازة القصيرة التي تجرأت فمنحتها لنفسك حتى يوم الأربعاء، القضايا المُعقَدة دوماً لشركة سكابيلي، لكن في المساء بدا لك أن زحام ساحة المسرح الفرنسي، كان أكثر من المعتاد بُطْئاً في الإنفراج، لكن في المرآب، حيث كُنتَ ترغب أن يستثمروا وقت غيابك كي يُنظفوا بعناية سيارتك التي أخذت تصر على نحو غير اعتيادي هذا الأسبوع، كان ينبغي لك الانتظار، وأخيرا بعد أن نَفدَ صبرك صرخت كي يتكرم عاملٌ ما ويهتمُّ بك، لكن المصعد في 15 ساحة البنتيون كان معطّلاً، فاضطررت إلى صعود الطوابق الأربعة على الأقدام، وعلى الرغم من تأخرك لم تكن المائدة قد أعدت بعد، وكانت تتناهى إلى أسماعك صرخات هنري وتوما في غرفة نومهما، فضلاً عن صرخات هنرييت العقيمة، والخرقاء، التي كانت نظراتها

حينما خرجت إلى الممر لتنادي مادلين، كئيبة، منهكة، نظرة شخص ميت، مشوبة بلهب الريبة والضغينة حينما رأتك، وهذا الاحتقار الذي تثقلك به كما لو كنتَ مسؤولاً عن قلة شانها البديهي، أنصاف الحياة هذه كانت تُغْلَق عليك مثل كماشة، مثل يدي خناق، كل هذا الوجود اليرقاني، الغسقي، الذي ستهرب أخيراً منه.

كان جدول مواعيد القطارات ذو الغلاف الأزرق هذا الذي تُمسكه بين يديك موجوداً في حقيبتك، حيث لا تزال عيناك تنظران إليه دون أن تميز شيئاً في الوقت الحاضر، وبعد العشاء، تماماً قبل أن تأوي إلى الفراش وحيداً في السرير الواسع دون هنرييت التي لم تلحق بك إلا بعد أن غفوت،وضعته في حقيبتك فوق هذه الملابس القليلة النظيفة التي أخذتها معك.

كان كالتعويذة، كالمفتاح، كبرهان على خلاصك، ووصولك إلى روما متلألئة، لرحلة استعادة الشباب هذه التي يضفي طابعها السري المزيد إلى سمتها السحرية، لهذه الرحلة التي تبدأ من جثة هذه المرأة المستمرة بإيهامنا بأفعالها المفيدة، من هذه الجثة الاستجوابية التي إن كنت قد ترددت زمنا طويلاً في هجرانها فبسبب وجود الأولاد الذين تُبعدهم عنك كل يوم موجة أخرى، إلى حد أنهم غدوا من تلقاء أنفسهم مثل تماثيل من الشمع، يخفون عنك حياتهم أكثر فأكثر حتى إن رغبتك في معرفتها وفي مشاركتهم إياها أخذت تتناقص شيئا فشيئا، مِنْ هنرييت هذه التي يستحيل الطلاق منها لأنها لن تذعن له أبداً، وأنت بمركزك الإجتماعي تريد أن تتجنب أي فضيحة، (لن ترضى شركة سكابيلي، الإيطالية، المُنحازة للقساوسة، والمنافقة، عن الأمر البتة)، مِنْ هذا العمل الذي يقيدك وقد يقودك إلى الأعماق الخانقة لهذا البحر من السأم، والعزوف، والروتين المستهلِك والضبابي، من اللاوعي حيث يجر أذياله، لو لم يكن لديك هذا الخلاص: سيسيل، لو لم تكن لديك نفحة الهواء هذه، هذا الاحتياطيّ من القوة، هذه اليد المُنقذَة التي تمتد نحوك مُبشرةً بالأماكن السعيدة والمُضيئة، مِنْ هذا الظل الثقيل المزعج الذي ستتمكن أخيرا من التخلص منه فعلاً، إلى هذه الساحرة التي تنقذك، بوداعة نظرة من نظراتها، من هذا الوجود الكاريكاتوري المرعب، لتعيدك إلى ذاتك من خلال نسيان نافع لهذه الأثاث، ولوجبات الطعام هذه،

لهذا الجسد الذي ذبل مبكراً، لهذه الأسرة المنهكة، رهان قرار الانفصال هذا الذي اتخذته أخيراً، كي تتحرر من لِباس الهواجس غير المُجدية هذا، من كل هذا الجُبن الذي يشل حالك، وكي تلقن أولادك أيضا هذه الحرية، وجرأة هذا القرار الذي أضاء بشعاعه، وأتاح لك أن تجتاز دون إذعان، ودون تنازل عن شيء، ودون أن تضيع إلى الأبد، اسبوع المطر، والصراخ وسوء الفهم هذا، رهان هذه الرحلة التي تجهل هنرييت أمرها، إن كُنتَ قد أخبرتها أنك ذاهب إلى روما فعلاً، فقد أخفيت عنها أسبابك الحقيقية، السرية بالنسبة لهنرييت التي تعرف جيداً، مع ذلك، أن وراء تبدل جدول المواعيد هذا سراً ما، سرك الذي تعرف هي جيدا أنه يحمل اسم سيسيل، إلى حد أننا لا نستطيع القول حقا إنك كنت تخدعها في هذا الأمر، حتى إن أكاذيبك إزاءها ليست أكاذيب بكل معنى الكلمة (يحق لنا أن نعدها هكذا) إذ إنها على الرغم من كل شيء مرحلة ضرورية لتوضيح العلاقة بينكما، نحو الصدق الغامض حالياً بينكما إلى حد عميق، نحو خلاصها هي أيضا إلى حد ما، سرية، لأنهم في جادة الأوبرا يجهلون وجهتك، لأن أي بريد لن يتمكن من الوصول إليك هناك بينماعادة، حينما تصل إلى فندق كيرنال، تكون في انتظارك رسائل وبرقيات، بحيث إنها المرة الأولى منذ سنين عديدة، ستكون أيام العطلة القلائل هذه استرخاءً حقيقياً في الزمن الذي لم تكن لك فيه بعد مسؤوليتك الحالية، إذ لم تكن قد نجحت حقا بعد.

سرية لأنه في شركة سكابيلي، على الكورسو، لا أحد يعرف أنك ستكون في روما من السبت صباحاً حتى الإثنين مساءً، ولا أحد ينبغي أن يلحظ ذلك حينما ستكون هناك، مما سيرغمك على أخذ بعض الاحتياطات خشية أن يتعرف إليك أحد من أولئك المستخدَمين المُجاملين جداً، المرحين جداً، الألوفين جداً، سرية هي حالياً حتى بالنسبة إلى سيسيل إذ إنك لم تُعلِمها بوصولك، رغبةً منك في التمتع بمفاجأتها.

أما هي، فسوف تقتسم تماماً هذا السر معك، هذا اللقاء الذي لا تتوقعه، سيكون السيف الذي سيقطع أخيراً عقدة كل القيود التي كانت تقيدكما أنتما الاثنين، وتبقيكما بَعيدَين أحدكما عن الآخر على هذا النحو المؤلم.

أيقظك، أثناء الليل، صرير فرامل في ساحة البانتيون، وبعد أن أضأت المصباح الموضوع

على يمينك، المُرَكَب فوق شمعدان من طراز الإمبراطورية، نَظرتَ إلى التعيسة هنرييت راقدةً في الطرف الآخر من السرير، شعرها الذي أصبح رمادياً بعض الشيء مُسْدَلٌ على الوسادة الاسطوانية الشكل، فمها فاغر قليلاً يفصلها عنك نهر من الكتان يتعذر اجتيازه.

فيما وراء النافذة، بين المرأة الشابة والخوري، تتتابع أبراج أسلاك ذات ضَغط عالٍ على امتداد شارع تَسير فيه شاحنة ضخمة تجر قاطرة بنزين، مُقتربة من السكة التي تنعطف انعطافة حادة فوق الحقول بعد جسر يشق طريقه من تحته. ربما يراه الرجل الجالس قبالتك الآن من الجانب الآخر من الممر حيث تتتابع لناظريك أبراج أسلاك أخر ذات ضغط عالٍ فوق أراضٍ ذات تموجات آخذة في الازدياد.

في كَنفً الليل، سيتحول زجاج النوافذ العُليا في «ستازيوني ترميني» إلى مَرايا كامدة بعد أن تكون قد تَقدَّمْتَ على رصيف القطار، حقيبتك في يدك، تحت القبة الإسمنتية النحيفة، بين الأعمدة المربعة الزوايا من الرخام الأسود الصقيل، بين الحشد الذي لم يأخذ كفايته من النوم لكنه يحث الخطى بعشوائية نحو منافذ الخروج، سوف تسلم المستخدم الإيطالي جزءاً من هذه التذكرة التي اشتريتها هذا الصباح في محطة «ليون» المطوية الآن من الوسط، الموجودة في محفظة أوراقك مع هوياتك الشخصية، هوية العائلة الكبيرة، وأخرى غيرها، داخل سترتك في الجيب الأيسر؛ وفي البهو حيث ستكون المكتبات ودكاكين أُخر مغلقة، سوف تلحظ هذه الصالة الشبحية الأخرى منعكسةً في القواطع الزجاجية الواسعة، وليس حمامات ديوكليسين المعتمة في الجانب الآخر من الساحة فحسب، بل أنوار الشارع، وشرارات الترامواي الزرقاء، وشيئاً من ضياء السيارات في مستوى الأرض.

بعد تناول قهوتك الأكسبريس في البار الذي، إن لم يكن قد فُتح فَسَيُفْتَح في تلك الأثناء على وجه التقريب، ستكون قد نزلت في «البيركو ديورنو»، في الطابق السفلي كي تستحم، وتحلق لحيتك وتغيّر ملابسك، ستكون قد صعدت إلى الطابق الآخر وتكون حينئذ قد أودعت حقيبتك في مستودع المحطة وحسب، وسيشرع شفق الفجر بالبزوغ خافتاً، لكن لن تشرق الشمس حقا إلا قُرابة السادسة والنصف أو حتى السابعة، كاشفةً باللون الرمادي والبني الحائل إلى الصفرة، عن جميع الواجهات والأطلال المحيطة بالساحة،

وبما أنك ستشرب ببطء، طليق اليدين، وطليق الذهن، كافيه لاتيه (قهوة بالحليب) ذات الرغوة، جالساً على نحو مُريح تماماً قبالة المشهد، كي تستقر تماما، في هذا النهار الجديد، قارئاً الصحف اليومية التي ستكون قد اشتريتها تواً، في اللحظة نفسها التي سيكون راكب الدراجة الهوائية قد سلمها، بينما سينتشر الضياء، ويزداد كثافةً، ويسخن تدريجيا؛ وحينما ستترك المحطة مع الفجر، ستبدو المدينة في حمرتها الدكناء، الدم القديم ناضِحاً من كل آجرة فيها، مُخَضباً كل غبارها، تحت السماء التي ستكون، دون أن تشك في هذا، صافيةً وجميلة؛ وبما أنه سيبقى لك نحو الساعتين للتسكع قبل أن يكون الوقت مُلائماً لتفاجىء سيسيل وهي على عتبة دارها، سيسيل التي لن تكون على علم بهذا، التي ستحث الخطى مثل كل صباحات الأسبوع نحو السفارة ستغوص أنت راجلاً على رسلك تماما في هواء روما الرائع هذا الذي سيكون مثل عودة الربيع بعد الخريف الباريسي دون أن يزعجك شيء، ودون أن يمنعك شيء من اكتشاف الانعطافات التي ستجتذبك مهما كانت طويلة، وعرة وغريبة.

لكن رحلتك على العموم ستقودك كالعادة، إلى ساحة «الايسدرا» في البدء، حيث تتساءل عما إذا كانت النافورة التي يعود تاريخها إلى ألف وتسعمئة تعمل في هذه الساعة، وعما إذا كانت نساؤها الشهوانيات المصنوعات من البرونز، المثيرات للسخرية والجميلات، هل سيكن ينضحن ماءً أم جافات، مع هذا الاختلاف، وهو أنك هذه المرة لكونك راجلاً، سيكون بوسعك أن تمر تحت الرواق، ثم عبر شارع ناسيونال حيث ستبدأ المخازن بفتح أبوابها، والدراجات البخارية بالانطلاق بكل حماستها المقيتة؛ لكن غداً بدلاً من أن تتوقف عندها، بدلاً من دخولك، والجلوس فيها، وإنزال حقيبتك هناك، لن تفعل سوى المرور بسرعة على الرصيف الآخر قبالة «اوتيل كيرنال» النائم، إلا إذا سلكت، في هذا المكان بالتحديد، وقد يكون هذا حذراً مفرطاً مُثيراً للضحك نوعاً ما، شارعاً موازياً، مُختبئاً عن بوابها بدلاً من أن يستقبلوك ويرحبوا بك بمجاملة مُفرطة، سوف تواصل نزولك نحو النُصب في «فيكتور – ايمانويل» مُحيياً النفق وأنت تمر، سوف تترك «الكورسو» المحتشد على يمينك، وتُحاذي قصر «فينيسيا»، ستجتاز «الجيزو»، ثم تواصل

حتى «سانت اندريه دي لافال»؛ أو... لا بالأحرى، فالوقت سيكون حتما لا يزال مبكراً برغم كل التعرجات، والانعطافات والتوقفات التي ستكون قد عرفت اختراع مَسلكها، وزخرفتها، لمرافقة هذا الطريق والتعليق عليه، الذي يبدو لك أجزاؤه طويلة جداً وغالباً مُملة جداً حينما تجوبها في سيارة أجرة، أو في الإتجاه المعاكس ليلاً حينما تعود سيراً على الأقدام من غرفة سيسيل حتى الفندق، لكنها غداً ستكون قصيرة أكثر مما ينبغي على رغم كل تباطئك، متعباً جراء الليلة التي أمضيتها في القطار؛ كلا يجب عليك التنزه أكثر من هذا، أفضل من هذا، والإفادة على نحو أفضل من وجودك النادر هنا في هذا الوقت، ومن هذا اللون النادر هنا بالنسبة إليك ومن هذه الإضاءة الجديدة التي يتيحها لك، من هذا الاستهلال لهذه الأيام الثلاثة التي تُمهد لزمن المستقبل، ينبغي ألا تستمر على هذا المنوال فوراً، ألا تصل حتى إلى ساحة جيزو، بل بخلاف ذلك ينبغي أن تدور حول «الكابيتول» وتعاود النزول حتى نهر التبر، ثم تصل إلى «لاركو أرجنتيا» ببرجه القرسطوي والحفرة الواسعة في وسطه، المليئةً بالقطط المتضورة جوعاً، وأطلال معابدها الأربعة التابعة للعهد الجمهوري من خلال هذا الشارع الرئيس الذي نسيت اسمه، والذي ينفذ إلى جسر «غاريبالدي» وهو الذي تسلكه عادة حينما تذهب لتناول العشاء في مطعم للبيتزا في تراستفيري أو أيضاً...

لن تَخرجَ من بيتها قبل الساعة التاسعة، لكنك ستكون قبل هذا الوقت بكثير في شارع «مونتي ديلا فارينا»، في ركن شارع «دي باربييري»، قُبالة بيتها العالي جداً، الذي تتصدر بابه صورة القديس أنطوان دي بادوا الدكناء واللوائح الصدئة لشركتي تأمين، كي ترقب انفتاح مغاليق نوافذها في الطابق الرابع، وأنت تدخن واحدةً من السيجارات التي ينبغي ألا تنسى شراءها حينما تذهب المرة القادمة إلى عربة المطعم.

في الجانب الآخر من الممر، انطلق راكب دراجة بين مستودع حصاد ومشجر صغير بالقرب من مُستنقع صَغير، منعطفاً إلى يمينه، ثم تحجبه فجأة حافلة زرقاء اللون سقفها مغطى بالأمتعة، ينعطف يساراً نحو مسكن حارس سكة حديد يجتازه القطار كالسيارة بعد قليل، بينما تظهر من بعيد قرية ببرج أجراس كنيستها وخزان مياهها. ينظر العروسان

الشابان من خلال زجاج النافذة، رأساهما متجاوران، يهتزان معاً. تمر محطة «جواني»، فتنعكس الضاحية برمتها في رافد الإيون.

تعود إلى جدولك الخاص بمواعيد القطارات الذي تغلقه ثانية، وبينما تتفحص فوق غلافه الأزرق الفاتح الخارطة التخطيطية للمنطقة الجنوبية - الشرقية حيث أشرت على السواحل المتوسطية والحدود فقط بخط خفيف ليساعد في البحث عن المدن الواقعة قريباً منها، توصل بينها خطوط مستقيمة سوداء سميكة أو دقيقة، مثل شبكة متشققة، مثل إطار من مادة الرصاص لنافذة كنيسة ضاعت ملامح موضوعها، ينهض الرجل الجالس قبالتك، لا يزال واقي المطر الذي يرتديه مُزرراً حتى الياقة، وحزامه لا يزال مزموماً، لا لأنه يجب أن ينزل في المحطة المقبلة، في التوقف الإلزامي الأول هذا، لجميع القطارات الكبيرة، «لاروش ميجن»، ذات الوجود المهم، إذ يترك مظلته وقبعته على الرف، وحقيبته المغلفة بنسيج اسكتلندي ذي مربعات خضراء وزرقاء على الشبكة، لكن لأنه دون شك يريد الذهاب إلى نهاية الممر فقط، جاهلاً أننا سنصل قريبا إلى هذه المحطة حيث يمنع استخدام هذه المرافق أثناء التوقف، لكن هذا المنع مكتوب في هذه العربة، هذا صحيح، باللغتين الفرنسية والايطالية فحسب، لغتان لا يقرأهما، فيما يبدو، على نحو جيد بفعل ازدرائهم للأوربيين الآخرين إلى حد أنه قلما سيزعجه هذا.

لكن لا بد أن التعليمات نفسها موجودة في بلده، في انجلترا؛ وكيف عرفت أنه لا يجيد قراءة الفرنسية ولا الإيطالية، وأنه ليس مثلَك أحدُ زبائن هذا الخط، بل أفضل منك زبونا لهذا القطار، بل أكثر من هذا، كيف عَرفتَ أنه إنجليزي هذا الرجل الذي كل ما يحق لك أن تقول عنه حاليا هو أنه يبدو انجليزياً، وأن له سحنة وملابس وأمتعة رجل انجليزي، لم يتفوه بكلمة، يحاول عبثا أن يعيد غلق الباب خلفه؟

يتوقف القطار في الوقت نفسه فيرفع الجميع أنظارهم، تاركين قراءاتهم في صمت وسكون مباغت.

في الممر، ترى قفا هذا الذي خَرجَ تواً يخفض زجاج النافذة، يحني رأسه نحو الخارج كي ينظر، ويرى هذه اللافتة المعدنية المطلية باللون الأبيض الملطخ بالصدأ حول (البرغي)

الذي يربطها بعمودها، مع اسم «لاروش – ميجن» باللون الأحمر، وهذه السماء الرمادية المحززة بأسلاك تيار القطار السوداء، الأرض السوداء المحززة بخطوط سكك حديد لماعة، بعربات خشبية، وبيوت صغيرة وقديمة.

حينئذ تدخل نفحة هواء نقي إلى المقصورة ونسمع صوت مكبر صوت أجش ينطق مقاطع لفظية لا يمكن تعرفها بسهولة لكن نهاياتها تبدو كأنها تشكل شيئاً مثل: «القطار لا يتوقف حتى ديجون».

إلى يسارك، يربت الكاهن بأظافره على الجلد الأسود لكتاب صلواته المغلق ثانية؛ هذا الذي تدعوه أستاذاً يرفع نظاراته، ويمسح زجاجها المستدير بجلد شاموا؛ هذا الذي تُسميه وكيلاً تجارياً عاد إلى كلماته المتقاطعة؛ وفي الممر، هذا الذي تدعوه الإنجليزي يأخذ من جيب واقي المطر الجلدي الذي يرتديه علبة «جيرج مانز»، يستل منها السيجارة الأخيرة، ويرميها على السكة الحديدية، ثم يغلق بهدوء زجاج النافذة ثانية، يعود نحوك، يطقطق عود كبريت، يبدأ التدخين، يذهب ليأخذ صحيفةً من جيب سترته ذات المربعات «ما نجستر كارديان» التي يبدأ بقراءتها، يطويها، يبدأ بالسير، يتوارى عن الأنظار، ويختفي.

تتملكك الرغبة في تقليده؛ تنهض، تدس جدول المواعيد تحت غطاء حقيبتك التي ظلت مفتوحة؛ تتناول معطفك، تفتش في جيبه الأيسر، تحت هذا الوشاح، لتخرج منه الرواية التي كُنتَ قد اشتريتها في «محطة ليون» قبل الرحيل تماما، وتضعها على المصطبة في المكان الذي تركته تواً، وعلبة السجائر غير المفتوحة التي تُمزِقُ ركناً منها.

مد الرجلان الجالسان على جانبي الباب سيقانهما المتقاطعة؛ تعتذر لإزعاجهما وتخرج.

تَستعيدُ المكان الذي تركه تواً الوكيل التجاري، الذي صادف أحدَ معارفه في الممر بينما كانت ترتسم في الأفق وسط المنظر البرغوني[1] الذي يهرع للقائك محطة «لوم - أليزيا» بمستودعها المخصص للقاطرات القديمة، على مقربة من «اليز - سانت - رين» التي لا نراها حيث هزم جول - سيزار، وفق التقاليد، الغاليين[2]، دون أن تمس الرواية التي كنت قد وضعتها بجانبك قبل هنيهة بمثابة إشارة في المكان الذي كنت تشغله، وإذ كانت إحدى النوافذ الأخيرة في بداية العربة مفتوحة قليلا، مما يمرر بمحاذاة أنفك خيطاً من الهواء المنعش أكثر مما ينبغي، فتسحب الباب، رغبة منك في الحد منه، فتستسلم فجأة، وتغير موضعها بما يقارب عشرين سنتيمتراً.

عقب لَهْوِكَ بضعَ لحظات بغطاء منْفَضة السجائر المثبتة بإطار النافذة، تُخرج ثانيةً من جيبِ سترتك الأيمن علبة سجائر «الجلواز» التي لم تُمزق إلا إحدى نهايتها دون أن تمس الشريط الورقي الأبيض الملصق في الوسط مثل ختم، والتي تنقصها سيجارتان؛ تأخذ منها سيجارة ثالثة تشعلها وأنت تحمي شعلتك بيديك الاثنتين، يدخل دخانها في عينيك، فيضطرك إلى أن تطرفهما مرتين أو ثلاث مرات ثم، بعد أن نَظرتَ إلى ساعتك، لحظت أنها العاشرة والربع، وأنك كنت قد رحلت إذاً قبل أكثر من ساعتين تقريباً، وأنه لا يزال لديك إذاً قرابة ساعة قبل التوقف القادم في ديجون في الحادية عشرة واثنتي عشرة دقيقة، تُسقط رمادَ سيجارتك، وبينما تشرع ثانية بالاستنشاق من خلال هذه القصبة الورقية البيضاء اللون المملوءة بذرات من الأوراق اليابسة، تَرى نقطتين حمراوين مرتجفتين تُضيئان في عدسات قُصر النظر للرجل الجالس قبالتك، لم يعد الرجل الإنجليزي الآن، بل من جديد جاره الأستاذ، مكبا على كتابه الكبير ذي الصفحات المصفرة، نقطتان حمراوان تزداد كثافتهما ثم تخف حدتهما مع كل نَفَسٍ من أنفاسك، إلى جانب جزء من الصورة الصغيرة

1- نسبة إلى مقاطعة برغونيا في فرنسا.

2- سكان فرنسا قديماً.

المشوهة للنوافذ الثلاثة ولفتحة الباب الضيقة، يتتابع فيها مشهد مُنحنٍ، أسفل جبهته الصلعاء الموسومة بأخاديد ثلاثة واضحة جداً.

يبذل جُهداً كي يبقي نظره ثابتاً على الأسطر المتحركة بفعل ارتجاج العربة، كي يسرع في قراءته لكن دون أن يفوته أي شيء ذي أهمية، ثمة قلم رصاص في يده اليمنى يؤشر فيه من وقت لآخر صليباً في الحاشية، إذ لا بد أن هذا النص يفيده لتحضير شيء ما، محاضرة غير جاهزة دون شك لا بد أنه سيلقيها اليوم بعد الظهر، محاضرة في القانون على الأرجح، فإن كان العنوان الذي يهتز بشدة إلى حد أنك لا تتمكن من فك رموزه بالمقلوب، فإنك قادر مع ذلك على فك رموز الحروف الثلاثة الأولى L. é. g. من الكلمة الأولى التي لا بد أن تكون «تشريع» (législation)، يلقيها على الأرجح في «ديجون» فما من جامعة أخرى على الخط قبل الحدود.

إنه يَضع خاتم زواج في أصبعه الممشوق المتحرك؛ لا بد أنه يأتي لإلقاء محاضراته مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، ربما مرة واحدة إذا ما تدبر أمره على نحو جيد، إن كان له نزل هناك أو فندق معتدل التكاليف يوائمه، فلا بد أنه لا يتسلم مُرتباً فَخماً، ولا بد أنه ترك زوجته في باريس حيث يسكن مثل معظم زملائه، مع أولاده إن كان له أولاد مرغمين على المكوث معه بسبب دراستهم، لافتقار هذه المدينة إلى مدارس ثانوية ممتازة، بل ربما لأنهم حصلوا على شهادة التعليم الثانوي، الابنة البكر في الأقل، أو الابن البكر (إنه بالتأكيد رد فعل غبي جداً، لكن من المؤكد أنك كنت تفضل أن يكون مولودك البكر صبياً)، فإن كان أصغر منك سناً ببضع سنوات، فربما تزوج قبلك وأبناؤه الذين تمت متابعتهم على نحو أفضل، لم يلقوا صعوبات في التفوق بدراستهم على نحو أفضل من مادلين، على سبيل المثال، التي لا تزال في الرابع الإعدادي وهي في السابعة عشرة من عمرها.

يَقلب الصفحة بعصبية؛ يعود بالأوراق إلى الوراء؛ إنه مضطرب؛ لا بد أنه ينحو باللائمة على نفسه لأنه أَجَّلَ، منذ وقت طويل حتى هذه اللحظات الأخيرة، عملاً كان عليه إنجازه بكل سكينة؛ أو أن صعوبة مباغتة برزت فوجد نفسه مرغماً على إعادة كل ما كان قد هيأه

فعلاً، هذا الدرس الذي ظن أنه ما عاد يحتاج إلى تكريس وقت له، والذي كان يستأنفه كل عام دون مشكلات منذ أن حصل على عمله؟ يحس المرء أن ثمة نزاهة وتميزاً حقيقياً لدى هذا الرجل.

مع أن من المُستبَعَد جداً أن يسمح له مرتبه بهروب إلىٰ روما كالذي تحققه أنت الآن، لكن لا بد أنه يود، لو كانت لديه الإمكانات المادية، لو لم يكن أمر تجنب المصروفات الفائضة على الملابس مهما كلف الأمر قد أضحى لديه طبيعة ثانية، لا بد أنه يود ارتداء ملابس أخرى غير هذه التي يرتديها، إذ تكاد تكون رثة، وحتى عندما كانت جديدة لا بد أنها لم تكن تمتلك أدنى شروط الأناقة، معطف آخر غير هذا الرداء الذي ربما أصبح أسطوريا في الكلية، أسود ذو أزرار كبيرة، لم يخلعه، فهو الوحيد الذي لم يأخذ راحته في هذه المقصورة، ليس لأنه يشعر بالبرد أكثر من الآخرين؛ بل لأنه لم يتنبه لهذا، فهو مستغرق تماما في مشكلته؛ وجهه الذي كان شاحباً جداً قبل هنيهة هو الآن محتقن قليلاً، ومن خلال انعكسات نظاراته ترى عينيه تطرفان باضطراب.

إنه لا يملك القُدرة على شراء سيارة بالطبع (إن كان هو نفسه لا يفكر في الأمر، و لايعاني منه على نحو مباشر، فلا بد أن يكون كتوماً بقدر ما هو نزيه، ولا بد أن زوجته وأولاده بهم حاجة لهذا)، كيف يمكن للمرء أن يحيا هكذا، أستاذ في القانون؟ بل بالأحرى كيف يمكن للمرء أن يكون مديراً للفرع الفرنسي لشركة سكابيلي ؟ صحيح أنك تتقاضى من المال أكثر منه بكثير، وتملك سيارة، وبوسعك أن تمنح نفسك بعض الإسراف، وأنك أنيق جداً، وزوجتك كذلك حينما تريد، أقصد بوسعها أن تكون كذلك لو كانت لديها الرغبة، ولكن إن كان عمله لا يستهويك، فمن المؤكد أنه يستهويه هو وأنه اختار هذه المهنة بنصف فقرها لهذا السبب، بينما أنت، قبل أن تدخل إلى شركة سكابيلي، من الواضح جداً أنك كُنتَ تسخر تماما من الآلات الكاتبة ومن بيعها؛ ثم هناك العطلة المعروفة بينما وقتك أنت يلتهمه مكتبك على نحو تام تقريبا، حتى عندما تترك باريس نحو منطقة أخرى غير روما.

من المتفق عليه أنها آلات جيدة، تضاهي بجودتها الآلات الأخرى، معدات جميلة

للغاية تعمل جيداً، لكن هذا خارج نطاق قِسْمك تماماً، خارج مهام عملك وهواجسك، إذ أنك لا تُعنى مُطلقاً بالإنتاج، فعملك هو إقناع الناس بشراء آلة سكابيلي بدلاً من أوليفتي أو هيرمس حسب، وهذا دون سبب حقيقي بالطبع، لعبة جد مسلية أحياناً، لعبة مزعجة، لعبة لا تترك لك شيئا من الراحة، لعبة مُربحة، لعبة يمكن أن تدمرك تماماً، مثل رذيلة، لكنها لم تفعل فأنت اليوم حر، إذ ستلقى حريتك التي تُدعي سيسيل؛ وقد تكون أنت دون شك من يستحق الشفقة بدلاً منه على رغم يُسرك المادي، وضيقه المادي الواضح تماماً،ما دام يمارس ما يستهويه، ما دام قد وجه حياته نحو ما يعجبه، لو لم يكن لديك هذا الحب الرائع، دليل استقلالك، دليل نجاحك، أنت، على الصعيدين، إذ لديك من المال ما يكفيك تقريبا من جانب، وتحتفظ بما يكفي من شباب الذهن لتفيد منه الآن من أجل مغامرة رائعة.

أنت لا تملك من المال ما يكفيك حقاً، لا تتمتع بحرية كافية إزاء المال، وإلا لكنت في الدرجة الأولى ولكان هذا أفضل، لكن بوسعنا أن ننظر إلى الأمور من زاوية أخرى، ونقول إنك لم تخش قط انعدام الراحة هذا في الدرجة الثالثة، واحتفظت بذهنية مرنة إلى حد ما كي لا تُعير أهمية لعقبة بسيطة كهذه. إنك الآن تشعر بأنك يقظ، وحيوي ومنتصر.

سيجارتك تحرق أصابعك؛ لقد استهلكت من ذاتها. ينهض العريس الشاب، يضع دليله الأزرق وكتاب تعلم اللغة الإيطالية فوق مقعده، يعتذر لإزعاجك، يخرج، ويتوارى خلفك.

تُسقِطُ الرماد الذي انهار على بنطالك، على الأرضية المعدنية المزخرفة بأشكال مَعينية بالقرب من حذاء الأستاذ الذي أغلق كتابه ثانيةً ونهض، أيضاً، لكن من أجل أن يخلع معطفه الأسود فقط فيضعه بكومته على الشبكة بين محفظته المليئة بالأوراق وحقيبة الرجل الأسكتلندي ذات المربعات باللونين الأخضر والأزرق، ويستأنف بحثه بعجالة.

تسحق عقب سيجارتك في المنفضة. ثمة يد تطرق بشيء معدني على زجاج النافذة، يدُ المفتش حاملةً ثاقبة التذاكر، فتبحث داخل سترتك عن محفظة أوراقك، ليست السوداء التي أعطاك إياها الأولاد يوم الأربعاء لمناسبة عيد ميلادك والتي تركتها في علبتها في طابقٍ من الدولاب ذي المرآة في غرفة نومك، بل الحمراء القديمة، وعن جواز سفرك

الذي ستنتهي مدته خلال شهر والذي يجب عليك إذن أن تطلب من مارنال تجديده قبل سفرتك المقبلة إلى روما لاجتماع نهاية العام، خمس ورقات نقدية من فئة الف فرنك مطوية من الوسط وفي أحد الجيوب اثنتان من فئة عشرة آلاف، أي أكثر من العشرين ألف فرنك التي يحق لك حملها مبدئياً عند اجتياز الحدود، حتى بعد خصم تكاليف الغداء في قاطرة المطعم، لكن حتى وإن تحققوا استثنائياً هذه المرة (لم يحدث لك هذا أبداً)، فلن يضايقوك من أجل مبلغ ضئيل كهذا (وإذا ما أثاروا اي صعوبة فإنك ستنزل عن الفرق المُدان)، وعن هويتك الشخصية المتسخة إلى حد ما، بصورتها القديمة التي لا تُعرَف فيها بسهولة، بضعة آلاف من الليرات، ثلاث بطاقات للمترو الباريسي، مجموعة بطاقات باص غير مفتوحة (إنه الكاهن الآن الذي يُبرز المستطيل الكارتوني، ويضعه مرة أخرى بين الصفحة التي يريد الاحتفاظ بها وغلاف كتاب صلواته بعد أن انتهى من التمحيص)، ثلاثة طوابع إيطالية، بطاقة الأسرة الكبيرة، صورة فورية لكَ ولسيسيل التُقِطَت على الكورسو، هويتك في جمعية أصدقاء اللوفر التي فاتك أن تجددها، هوية جمعية «دانتي الكبيري»[1]، أخيراً بطاقة سفرك التي تمدها، فتُثقَب، ثم تحتفظ بها.

يلتقي المفتش، وهو خارج من المقصورة، بالعريس الشاب متأهباً للدخول، فيضطرب هذا الأخير قليلاً، يومىء لزوجته، يبحث في جيبٍ ثم في الجيب الآخر، يجد أخيراً، يتحرر، يعتذر لك.

تطوي هي جريدتها ثانيةً، تضعها بجنبها، حاجبةً بهذا الدليل الأزرق وكتاب تعلمِ الإيطالية، تُعيد خصلةً من شعرها إلى مكانها، تأخذ حقيبتها وتنهض، تلتقي بزوجها بين المصطبتين، تبتسم لك بينما يلامس جوربها الحريري بنطالك، ويجلس زوجها في المكان الذي تَركتهُ، بالقرب من النافذة، قبالة الخوري.

يتركَ المُفتش تواً المقصورة المجاورة، ويطرق بثاقبته على زجاج نافذة المقصورة التالية.

يغلق الأستاذ كتابه، يبدو راضياً، لا بد أنه اكتفى بهذا القدر، وأن محاضرته جاهزة،

1- الشاعر الإيطالي الكبير، مؤلف الكوميديا الإلهية. (فلورنسا 1265-رافين 1321).

وسيتدبر أمره، ثم يضع قلمه الرصاص في جيبه تحت ثنيته بالضبط، بالقرب من قلم الحبر، فوق المنديل الذي سبق أن استخدمه كما يبدو، يفرك يديه، يُمَرر أصابعه خلف أذنيه، ثم بين نظاراته وعينيه، ينهض، يأخذ محفظته من على الشبكة، يضع فيها كتابه المغلف بنسيج أسود، الموسوم بأوراق ممزقة، يخرج هو أيضاً، يصفر بأغنية لا يتناهى إلى سمعك منها شيء واضح لكن بوسعك أن تتتبع إيقاعها بفعل حركة شفتيه، ويقطع وزنها بقفا يديه على ما يصادفه، مرتين على زجاج النافذة إلى يمينك قبل أن يتوارى، لتحل محله على الفور تقريباً المرأة الشابة التي تلحظ حتى قبل أن تدخل إلى المقصورة أن زوجها قد أخذ صحيفتها، يتصفحها بسخرية، زاويتا شفتيه ترتفعان وتنخفضان بانتظام وفق إيقاع العربة كلها، إذ وصل بلا شك إلى بريد القلب، ثم وهي تقترب منه، تقول مازحةً: «آه، ترى جيداً أن هذا يستهويك أنت أيضاً»، إنها أولى الكلمات، باستثناء عبارات التأدب العديدة، التي نُطِقَت بصوتٍ عالٍ فعلاً منذ الرحيل في صالة الانتظار المتحركة تجعله يرفع منكبيه بلطف.

تمرّ محطة دارسي. في الممر بعيداً إلى حد ما، يخرج المفتش من مقصورة ليذهب إلى المقصورة اللاحقة التي لا بد أن تكون الأخيرة، ثم تاتي شابة بعمر مادلين على وجه التقريب يتبعها بمسافة، الوكيل التجاري الذي كان قبل هنيهة في هذه الزاوية التي كنت قد اخترتها عند الرحيل من باريس والتي نَجَحْتَ في استرجاعها. يجلس العريسان الشابان من جديد أحدهما قرب الآخر، لكن موقعيهما انعكسا، هو قرب النافذة وهي إلى جانب الرجل الإنجليزي. وفي الجانب الآخر من الممر يمر قطار بضائع طويل مزود بعربات مبردة مصنوعة من الخشب المطلي باللون الأبيض الكَدِر، موسومة بحروف سوداء كبيرة.

ليتَ الجوَ جميلٌ في روما، ليتك تستطيع غداً صباحاً، دون أن تكون بك حاجة للاحتماء تحت باب مجاور متحرك من زخات مطر روما الخريفية الحادة، وهو ما قد يمنعك من ملاقاة سيسيل، من لمحها أو إدراكها في اللحظة التي ستهرب فيها على عجل بواقي المطر الشفاف الذي ترتديه نحو السفارة، ليتك تستطيع انتظارها بسكينة في الهواء الطلق، مرتاحاً، متجدد النشاط عقب هذه الليلة التي لن تكون ممتعة بالطبع، وأنت تدخن إحدى السيجارات التي ستكون قد اشتريتها بعد هنيهة في عربة المطعم، معطفك تحت

ذراعك، في الظل، لكنك مبتهج بالشمس التي تُذهب أعالي المنازل، في زاوية شارع دي باربيري، قبالة الرقم 56 في شارع مونت دي لا فارينا، الذي سيكون عنوانك السري على مدى ليلتين.

ستكون مَغاليق شبابيك الطابق الرابع ما تزال مُغلقة حينما سيبدأ ترقبك، ولن تنجح، فأنت تعرف جيداً نفاد صبرك، على الرغم من جولاتك، في الوصول إلى مراكز المراقبة بعد الساعة الثامنة، ولسوف يلزمك أن تصبر وقتاً طويلاً، أن تقتل الوقت بتفحص هذه الواجهة وتصدعاتها، ووجوه أوائل الأشخاص الذين سيمرون، قبل أن يُفتح أخيراً شباكها، لكن ربما ستراها تظهر، تنحني إلى الخارج متتبعةً بنظرها انعطاف دراجة بخارية صاخبة، شعرها، قاتم السواد، شعر إيطالية، مع أنها من أبٍ فرنسي، وهو لم يُصَفَف بعد، سترميه خلف منكبها بحركةٍ من رأسها، وفي هذه الحالة ستلمح دون شك هيئتك في هذه اللحظة، لكنها وهي تجهل كل شيء عن مجيئك، لن تتعرف إليك، ستجد، في أفضل الحالات، في هذا المتسكع الذي يتفحصها بهذا الإلحاح، بعض الشَبه بك.

هكذا، سوف تتاملها، بغيابك، إذا صَحَ القول، ثم ستتوارى في داخل غرفتها المظلمة الكبيرة والمرتفعة في منزلٍ روماني عتيق عَرفَت كيف تنسقه بهذه الأريكة في الزاوية التي تكفيكما أنتما الاثنين وهذه الزهور التي تجددها بكثير من العناية، والتنويع، بالقرب من هاتين الحُجرتين اللتين تؤجران للسياح في الربيع أو في الصيف، اللتين ستكونان خاليتين الآن وستكون إحداهما سكنك رسمياً في هاتين الليلتين، مفصولة بعض الشيء عما بقي من الشقة. حيث تسكن صاحبة الدار، السيدة دابونت، مع أسرتها، مثل مؤلف مغناة موزارت أو رسام باسانو، في الجانب الآخر من المدخل الصغير الدامس الظلام الذي يطل من باب مزجج على المطبخ الفسيح مباشرةً.

عند الباب إذن، فوق صورة القديس انطوان التي تكاد لا تُرى خلف زجاجها المغبر، تترقب إطلالتها، وعلى منكبيها هذا الشال الأبيض الكبير الذي أهديته إياها، هكذا تأمل أن تراها، على هذا النحو ستكون في أبهى طلعتها، بثوبها ذي الطيات الواسعة بتشجيراته البنفسجية والحمراء بلون الدم، أو، إن كان الجو بارداً، بثوبها ذي القطعتين من القطيفة

المضلعة بلون أخضر أغمق قليلاً من الزمرد، بشعرها الأسود المجدول والملتف فوق جبينها بمشبكين أو ثلاثة ذات رؤوس زجاجية بألوان قوس قزح كي تمسكه، بشفتيها المخضّبتين، وحاجبْيها اللذين ينتهيان بخطٍ أزرق، لكن دونما شيء على باقي وجهها، لا شيء على هذه البشرة الرائعة.

ستلتفت حالاًّ إلى يسارها نحو سانت اندريا دي لا فيلا، إنه الطريق الذي اعتادته، والذي تفضله مع أنه ليس الأقصر، لكن هذه المرة لا يمكنها ألا تراك، ولا سيما أنك سوف تؤمِيء لها، ستناديها إذا اقتضى الأمر، ستحث الخطى نحوها إن كان هذا لا يكفي، ستتوقف، غير مصدقةً عينيها.

حينئذ، سيبدو الاضطراب على قسمات وجهها كما تشوش الريح نبات الدلبوث.

ستضحك أنت. ستخبرها أنك هنا حتى الإثنين مساءً فقط، لا شيء أكثر من هذا، ينبغي تدريج المفاجأة، التعبير عن كل متعها، وإذاقتها إياها قطرة قطرة دون أن يفوتها أحد عناصرها؛ ستجعلها تغير طريقها، مصطحباً إياها لتتناول قهوتها في لاركو أرجنتينا، على الرغم من اعتراضها، خشية أن تصل متأخرة إلى السفارة، لن تعودَ لهذا أهمية، مُقبِلاً ومُطَمئِناً إياها، ثم تُرافقها في سيارة أجرة (لا بد من وجود سيارات أجرة، تفتش عن زبائن، في مثل تلك الساعة، في كورسو فيتيريو–ايمانويل)، مبادرةَ تَرَفٍ مَحْضة إذ أن المسافة قصيرة إلى حدٍ لا يجعل اختصار الزمن شيئاً ذا قيمة، حتى ساحة قصر فارنيس، حيث سَتُعِدُها وأنت تَتركها أن تعود لاصطحابها في الواحدة بعد الظهر.

ستكون وحيداً طوال ما بقي من النهار، غير مستقر بعد، حقيبة سفرك ما تزال في مستودع المحطة، سائح في روما، ولسوف تفيد من هذه الحرية، من هذه العطلة كي تذهب لتزور ثانيةً متحفاً لم تدخله منذ سنين، منذ أن تعرفت إلى سيسيل على أي حال، أحد الأماكن النادرة في هذه المدينة، باستثناء مكاتب سكابيلي وجميع المكاتب التي يمكن أن تكون لها علاقة بهذا الشان، إذ لم تذهب قط معها، أولاً لأنه لا يُفتح صباحاً إلا من العاشرة حتى الثانية ظهراً ولأنه ثانياً مُغلَق طوال يوم الأحد: الفاتيكان.

لَمْ تذهبا معاً، قط، إلى «سان بيير»، فضلاً عن أنها تمقت البابوات والقساوسة قدر مقتك إياهم، بل على نحو أكثر حِدَّةً وعلانية منك (إنه أحد الأسباب التي تجعلك تحبها كثيراً) مما لا يمنعها أبداً من استحسان النافورات، والقِباب، والواجهات الباروكية، وأنت، بالتأكيد، ليست لديك أي رغبة لأن تعود غداً صباحاً إلى داخل هذا الإخفاق العماري العملاق، هذا الاعتراف الكبير والفاحش الثراء بالفقر.

ما يجب عليك فعله في البدء، إذ ستكون البضعة الآلاف من الليرات التي بحوزتك قد نَفَدَتْ تقريباً بعد أن تدفع عشاء هذا المساء في عربة المطعم الإيطالي، هو أن تذهب لسحب بعض النقود من حسابك في فرع بنك روما على الكورسو قبالة قصر دوريا، ثم تستقل حافلةً حتى ساحة رزورجمنتو، وبما أنه ستبقى لك مسافة طويلة تجتازها على الأقدام مُحاذياً الأسوار الرائعة، ستكون الساعة العاشرة حينما تصل إلى المدخل، الذي سيكون مفتوحاً حينئذ.

ستجتاز على عجالة هذه الممرات اللامتناهية التي رُصِفَت بغباء، دون أي اعتبار لنوعيتها أو لعصرها، تماثيل قديمة نُهِبَت من أماكن مختلفة، كومة من الأشياء المبتذَلة حيث تسطع أحياناً تحفة رائعة أُضيفَ إليها رأسٌ غبي تماماً، ذراع، أو أقدام غبية تُجَردها من كل نبل (ألا يوجد إذن في هذه المدينة الفاسدة منذ زمن طويل شخص ليعارِضَ فضيحة هذه الفوضى وهذا الكذب؟)؛ ستذهب لتُلقي نظرة على «ستانس»، ستتوقف برهة من الزمن قبالة «سكستين»[1]، ثم تعود على رسلك مروراً بشقق بوركيا.

في الساعة الواحدة، في ساحة قصر «فارنيس»، ستجول سيسيل بنظرها هذه المرة وهي تخرج بحثاً عنك، أثناء الغداء، في مطعم «تري سكاليني»، على سبيل المثال، في بيازا نوفا، سيرك «كلود» القديم، وأنت تتأمل بإعجاب القبة وأبراج أجراس «بوروميني» البيضوية الشكل، الممتدة بفعل الحركة العامة إلى هذه المساحة المستطيلة، والماء متدفقاً من نافورة الأنهار الأربعة الكبيرة، الدانوب، والنيل، والكونج ذي الأنف الأفطس المنقلب إلى الوراء من شدة الذهول، والريو دي لابلاتا الذي ليس بوسعنا رؤية وجهه، الذي لا

1- مصلى الفاتيكان، رسمه الرسام الإيطالي الشهير ميخائيل أنجيلو.

يكاد يبرز من الأوشحة التي كانت تغطيه، هؤلاء العمالقة الأربعة من الحجر الأبيض وهم يدورون على نحو لولبي بحركات حول هذه الصخرة العالية التي تَسند المسلة من الصوان الوردي اللون، ستشرح لها وأنت تلف التاكلياتي[1] على الشوكة، أسباب رحلتك، وأنك لم تأت هذه المرة من أجل سكابيلي، بل من أجلها وحسب، وأنك وجدت لها عملاً في باريس، وأنك لم تنزل في البيركو كيريناك، بل ستمكث كلياً معها، ولهذا سوف يتعين عليك في البدء، في بداية وقت العصر، أن تذهب وتتفاهم مع السيدة دي بونت، ثم تسحب حقيبتك من مستودع المحطة، قبل أن يكون بوسعكما، بعيداً عن أي عجالة، أن تُحيطا بخصر بعضكما بعضاً مثل شابين، متمتعين بفضاء روما، بآثاره وأشجاره، بالشوارع التي ستكون جميعها متاحة لكما، حتى الكورسو والبيازا كولونا، فالشركة ستكون مغلقة في هذا الوقت، باستثناء شارع فتوريو فيتو، خاصة بالقرب من «كافيه دي باري» حيث اعتاد السيد ايتور سكابيلي أن يُمضي ساعات عديدة.

عند غروب الشمس، ستعودان إلى شارع «مونت ديلا فارينا» كي تأخذا معطفيكما، ومن المحتمل أن تكون لسيسيل الرغبة في الذهاب لتناول العشاء في مطعم للبيتزا في الحي، متفحصين في طريقكما عروض دور السينما لكن من أجل مساء اليوم التالي فقط، إذ ستشعر غداً بتعب الليلة السابقة غير المريحة والمضطربة، وتعب الليلة القادمة، يتلبسك، وستخلد للنوم مبكراً جداً في غرفة نومها كي لا تبرحها هذه المرة إلا عند الصباح.

في الجانب الآخر من الممر، لا تبدو على الغيوم الرغبة في الانبلاج. الرجل الإنجليزي تقاطع إحدى ركبتيه الأخرى. فيما وراء النافذة يرتجف تموج بطيء من الهضاب المُغطاة بكروم بلا أوراق.

قبل أن تتعرف إلى سيسيل، كنت قد زرت الكثير من الآثار المهمة في روما، أعجبك مناخها، لم يكن لديك قط هذا الحب نحوها؛ معها فحسب بدأت تكتشفها على نحو مُفصَل، ويلون الشغف الذي توحي لك به كل شوارعها إلى حد أنك تحلم بها وأنت بالقرب من هنرييت، تحلم بروما وأنت في باريس.

1- نوع من أنواع المعكرونة الإيطالية.

فالإثنين الماضي، بينما كُنتَ قد وصلت تواً بقطار روما– اكسبريس في الساعة التاسعة، بعد أن أمضيت في الدرجة الأولى ليلةً بالتأكيد أفضل بكثير من هذه التي تنتظرك هذه المرة، كانت هناك شمس صباحية تلتمع من خلال زجاج النوافذ، فبدلاً من أن تترك محطة ليون مباشرةً كالمعتاد، وتستقل سيارة أجرة، وتذهب إلى بيتك في «خمسة عشر ساحة البانتيون»، كي تحلق وتستحم قبل أن تنزل إلى مرآب شارع الإسترا باد لتأخذ سيارتك وتذهب إلى مكتبك، فتشت عما إذا كان في الصالة الكبيرة ما يعادل البيركو ديورنو، وبالفعل وجدت بناية حمامات حيث نظفت نفسك في مغطس، والحق يقال، قليل النظافة؛ ثم... بما أنك عند عودتك من روما، لا تكون عموماً في مكتبك قبل العاشرة والنصف، فقد أفدت من الوقت الذي بقي لك كي تتسكع قليلاً، مثل سائح روماني في باريس، كما لو كانت روما مأواك الدائم وأنك لا تأتي إلى باريس إلا بين وقت وآخر، كل شهرين أو كل شهر إذا اقتضى الأمر، من أجل أعمالك.

بعد أن تركت حقيبة سفرك في مستودع المحطة، قائلاً في نفسك أنك ستكلف مارنال بالذهاب لجلبها خلال النهار، ذهبت حتى نهر السين، الذي اجتزته على جسر اوسترليتز، وبما أن الجو كان حقاً لطيفاً في شهر تشرين الثاني، فقد فتحت أزرار معطفك وأنت تحاذي «حديقة النباتات»، مَررتَ بجزيرة سان لوي حيث تناولتَ قهوة بالحليب مع شطائر، على الرغم من الشاي الذي كنت قد احتسيته والبسكوت الذي كنت قد قضمته في عربة المطعم بمثابة إفطار، كما جرت العادة، وهو ما لم يكن يكفيك أبداً وكنت دوماً تضيف إليه في بيتك وَجبةً مغذية، لا بد أنها كانت قد أُعِدَت الإثنين الماضي في انتظارك مثل كل المَرات الأخرى، ثم جُلْتَ في جميع أرجاء المدينة تقريباً، يداً في جيب بنطالك، والأخرى مُمسكة بمحفظتك، تؤرجحها على إيقاع لحن لـ«مونتيفيردي» الذي كنت تدندنه مع نفسك، ولابد أن الوقت كان العاشرة حينما صَعدتَ قبالة نوتردام في الباص رقم 69 الذي أنزلكَ في ساحة «باليه رويال».

من أجل إدامة هذا الانطباع بأنك لم تَعُدْ تماماً بعد، قَررتَ أن تتناول الغداء خارج البيت، لكن بما أنك لم تكن راغباً في إثارة قلق غيرِ مُجْدٍ لهنرييت، فقد اتصلتَ هاتفياً

بمنزلك، 2530 Danton، لتخبرك الطاهية مارسلين التي طلبت منها أن تُعلِم السيدة أنك لن تعود قبيل المساء، أنها كانت قد خرجت وأن الأولاد جميعاً، بالطبع، في مدارسهم.

بعد نصف ساعة، اتصلت هي بك:

– «أود التحدث إلى السيد ديلمون».

– نعم. أنا. كيف حالك؟ لن أتمكن من المجيء ظهراً. أنا متأسف.

– ستأتي، في الأقل، للعشاء، ؟

– بالطبع.

– وغداً؟

– هل من شيء خاص غداً؟

– لا شيء على الإطلاق، يوم الأربعاء هو عيد ميلادك...

– نعم بالفعل، لطف منك أن تتذكري هذا.

– هل أمضيتَ رحلة سعيدة؟

– تماماً كالمعتاد.

– إذن، إلى هذا المساء.

– إلى هذا المساء».

في الجانب الآخر من شارع «دانيال كازانوفا»، في الواجهة الأولى لوكالة السفريات «دريو»، كانت هناك ملصقات تدعو إلى رحلة قصيرة في بركونيا:

قرميدُ مَلْجأِ «بون» المطلي بالبرنيق، مزارعُ كروم محملةٌ في أيلول بين أوراقها المخططة بعناقيد عنب أسود، قبور الدوقة في ديجون؛ في الثانية، الكائنة في شارع الأوبرا، كان كل شيء يتحدث عن الرياضة الشتوية: التزلج على الجليد، حِبالٌ وأحذية ضخمة ذات شرائط حُمر، صور تلفريك كبيرة، مضامير جليد رائعة محززة بخطوط، أبطالٌ أيديهم ممتدة إلى أمام يؤدون قفزات، شاليهات خشبية ذات سقوف مغطاة بفراء أبيض هائل، متلألىء في الشمس، مشذر، بشُرَفِها من الخشب الرَطب، بفتيات شابات يرتدين بناطيل مغزلية الشكل، وبلوزة مزينة بزخارف «جاكار» بياقة مقلوبة، صور لمنطقة «سافوا» التي

ستجتازها بعد هنيهة والتي ما تزال مظلمة ومضببة، مع شيء من الثلج المتسخ المنتشر على نحو صفائح؛ الثالثة كانت مكرسة لإيطاليا، حيث الفضاء الداخلي لقبة «سان سوير» الكوكبية الشكل في تورينو، سلم قصر «بالبي» في جنوة، برج بيزا، عازف ناي من تاركينيا، ساحة سان بيير حيث مسلة سيرك نيرون التي نُقلَت إلى هنا على وفق أمر «سيكست–كانت»، وصور مدن عديدة أخرى تَجهَل معظمها: كنيسة لوك، قوس تراجان في بنيفان، مسرح فيسن الأولمبي؛ الرابعة كانت تدعوك إلى جزيرة «سيسيليا».

بعد أن اجتزت شارع «البيراميد»، تاركاً إلى يمينك الفارسة المذهبة تتلألأ بسكينة على خلفية من الغيوم وسط الشُرف المقوسة فيما كانت وكالات سفر أخرى تردد في الجانب الآخر من الشارع كلمة إيطاليا، استدرت إلى اليمين نحو ساحة «التياتر فرنسيه» (المسرح الفرنسي)، انتظرت أن يصبح الضوء الأخضر أحمر، موقفاً سير الآليات مثل سَد مفاجىء، كي تجتاز شارع «ريفولي»، توغل عبر شبابيك التذاكر، لتطل من الجانب الآخر مباشرة أمام هذه السماء العريضة الصدفية المتحركة على حدائق التويلري. بينما أنت تمر بالتماثيل الثلاثة الرديئة التي تمثل أبناء قابيل مختبئين في حديقتهم الصغيرة وبقوس النصر «كاروسيل»، رأيت منتصباً خلفه وقبالة قوس نصر الإيتوال، القصي، رأس المسلة الرمادي.

كانت السيارات متروكة، متراصفة الواحدة تلاصق الأخرى مثل كتب مكتبة، وكانت هناك سيارتان كبيرتان قرب مدخل جناح «مولين»؛ فتيات أمريكيات مجهزات بآلات تصوير، جالسات على مصطبات من الصخر، يتصفحن خرائط بانتظار دليلهن السياحي.

ارتقيت السلم المؤدي إلى انتصار «ساموتراس» (Samotrace)، دون أن تُعير اهتماماً أكثر من المعتاد للتوابيت الحجرية ولنسخ تحف الفاتيكان البرونزية القديمة، تاركاً العنان لمزاجك، يقتادك، دون أن تكون في ذهنك فكرة واضحة عن وجهة معينة؛ مررت بسلسلة الصالات المصرية؛ ارتقيت السلم اللولبي الصغير الذي يصعد إلى صالات القرن الثامن عشر.

كان نظرك يمر مروراً سريعاً على لوحات جاردي(Guardi) ولوحات ماجناسكو

(Magnasco) في القاعة الأولى، على لوحات واتو (Watteau)ولوحات شاردان (Chardin) في الثانية، ولوحات الرسامين الإنكليز ولوحات فراجونار (Fragonard)في القاعة الثالثة؛ لم تستوقفك إلا القاعة الأخيرة، لكن ليس من أجل كويا (Goya)، ولا من أجل دافيد(David). ما أنعمت النظر فيه بشغف، ما أخذتك إليه خطواتك، هما لوحتان مهمتان لرسام من الدرجة الثالثة، «پانيني» (Pannini)، تمثلان مجموعتين خياليتين معروضتين في قاعات مرتفعة مفتوحة على مصاريعها حيث تسير شخصيات مرموقة، رجال دين أو أسياد، تتنقل بين المنحوتات، بين الجدران المغطاة بمناظر طبيعية، وهي تُبدي إمارات إعجاب، واهتمام، ودهشة، وحيرة، مثل الزوار في مصلى «سكستين»، وما يلفت الإنتباه هو أن ليس ثمة فرق البتة في المادة المحسوسة بين الأشياء الواقعية المعروضة والأشياء المرسومة، كما لو أنه أراد أن يُجَسد في لوحاته نجاح هذا المشروع الذي يشترك فيه عددٌ كبير من فناني عصره «تقديم نظير مطلق للواقع، إذ يصبح متعذراً تمييز تاج العمود المرسوم عن تاج العمود في الواقع، باستثناء الإطار الذي يحيط به، كما يرسم في الفضاء كبار المهندسين المعماريين المقلدين للفن الباروكي الروماني ويجعلوننا نتخيل، بفضل نظام إشاراتهم الرائع، بفضل تجميعهم للأعمدة البارزة من الجدران، وانحناءاتها الشهوانية، صرحاً تُنافسُ، في نهاية المطاف، في تأثيرها وتميزها الكتل الحقيقية الضخمة للخرائب القديمة التي كانت دوماً تحت أنظارهم والتي كانت تُشعِرهم بالدونية، مُستَخدمين تفاصيل زخرفتهم لتكون قاعدة للغتهم الخاصة.

وهذا بالتحديد ما تؤكده اللوحتان المتناظرتان؛ هذا التوازن، وهذا الجهد للرد على ما كان يُستَشْعَر منذ القرن السادس عشر كتحدٍ مستمر أشهرته الامبراطورية القديمة بوجه الكنيسة الحالية: مجموعة لوحات فنية لروما الحديثة في الجانب الأيمن من النافذة التي تطل على الباحة المربعة الشكل، مجموعة لوحات فنية لروما القديمة إلى يسارها، حيث كنت تتسلى في التعرف على «الكوليزيه»، وعلى «كاتدرائية ماكسنس» (Maxence)، «البنتيون»، كما كانت عليه قبل مئتي عام، تقريباً في الوقت الذي حفرها «بيرانيز» (Piranèse)، تيجان الأعمدة الثلاثة البيضاء هذه تكاد بصعوبة ترتفع فوق مستوى

الأرض، وهي تيجان أعمدة معبد «مارس التور» (Mars Ultor) .بملامح «اوغست» (Auguste) في ميدان هذا الأخير، الآن جد شاهقة على أعمدتها الرائعة، رواق معبد «انتونا وفوستين» (Antonin et Faustine) في واجهة الكنيسة التي كانت قد شُيدت في الداخل والتي لم تُهدم بعد، قوس النصر قسطنطين وقوس النصر تيتوس الذي كان حينئذ مُدمجاً في البيوت، حمامات كاراكالا(Caracalla) في قلب الريف تماماً، والمعبد المدور الغامض، ويسمى معبد «منيرڤاميديكا» (Minerva Medica)، الذي يمر به المرء في القطار حينما يصل إلى المحطة.

فيما وراء النافذة، بين حقول الكروم تحت السماء التي تتلبد بالغيوم وتسود، يهيمن البرج العالي لكنيسةٍ، بأشكاله المعينية من القرميد المدهون باللون الأصفر، على قرية ململمة. على الأرضية المعدنية الساخنة بين المصاطب، تتقاطع الخطوط الحديدية مثل سكك حديدية صغيرة جداً في محطة فَرز للخطوط.

قبل سنتين، بل أكثر قليلاً، بما أن الوقت كان ما يزال صيفاً، في نهاية شهر آب، كُنتَ جالساً في مقصورة من الدرجة الثالثة شبيهة بهذه، في هذا المقعد بالقرب من الممر باتجاه وجهة السير، وقبالتك كانت سيسيل التي لم تكد تعرفها، وقد التقيتها تواً في عربة المطعم، عائدة من إجازتها.

كان الوقتُ متأخراً أكثر من هذه الساعة، في وقت العصر، في قطار كان يرحل صباحاً مثل هذا القطار ويصل إلى روما عند الفجر، إنه دون شك هذا القطار نفسه، مع شيء من الاختلاف في مواعيد الرحيل، لا بد من أنه أقلك في تلك المرة بسبب الصعوبات التي كانت قد برزت في اللحظة الأخيرة، ولم تعد تتذكرها بالضبط، لكن قبل وجبة الغداء كنت بالطبع في الدرجة الأولى، في عربة ايطالية فيها صور ملونة للوحات شهيرة، ربما رومانية، مرموزة لعاشقين في فيلا «بورجيز» (Borghese)على سبيل المثال، واحدة من اللوحات التي غالباً ما تُستنسخ.

حينما رأيتها في المرة الأولى، كنتَ قد اتخذتَ مكاناً بجانب المائدة بالقرب من النافذة لتتناول طعام الوجبة الثانية. كانت مدينة ديجون قد مرت منذ أوقات طويلة، بون، ماكون، شالون وحتى بور؛ لم تعد ثمة مزارع للكروم بل جبالاً.

كانت تَرتَدي فستاناً أحمر مائلاً إلى البرتقالي يكشف عن صدرها الأسمر، وشعرها الأسود المجدول، المعقود حول راسها، والمثبت بمشابك ذات رؤوس ذهبية، شفتاها مطليتان بلون أقرب إلى البنفسجي.

كان القطار يمتلىء شيئاً فشيئاً، لكنكما لحسن الحظ بقيتما وحدَكما جالسين حول منضدتكما. وبما أن الجو كان حاراً فكلمتك الأولى كانت لتطلب إليها إن كان بوسعك أن تفتح سلسلة الصفائح الزجاجية الصغيرة في أعلى النافذة، ثم، حينما رأيتها تُخرج من حقيبتها السوداء جدول مواعيد القطارات الذي لم يكن قط أزرق بلون السماء كالذي بحوزتك اليوم، بل بالأحرى أخضر فاتحاً بلون الطلاء أسفل الشبكات، إذ لم تكن تمتلك واحداً آنذاك، فسألتها عن موعد الوصول إلى أكس لي بن:

«ستكون قد أنهيتَ وجبة طعامك قبل أن تصل إليها.

– لن أتوقف فيها. أنا ذاهب إلى روما، لا كسائح لسوء الحظ، بل من أجل أعمالي.

في البدء لم تكن هناك إلا بضع كلمات مُجاملة، تفصل بينها فترات صَمت طويلة، ثم أضحى حديثاً متواصلاً دار بشكل خاص على وجبة الطعام شيئاً فشيئاً، والنبيذ الذي أذقته إياها، عما كانوا يضعون في صحنك، حتى اللحظة التي تبينت، بعد أن قرأت قائمة حسابها، أنها لم تكن قد احتفظت بما يكفي من العملة الفرنسية:

– هل سيوافق على تسلم ليرات؟

– نعم، لكن بسعر تحويل بخس تماماً؛ سأشتري منك ألفاً منها بسعر تصريف باريس».

حينئذ أخَذَتْ تُحَدِثكَ عن نفسها، مُخبرةً إياك أنها هي أيضاً كانت ذاهبة إلى روما، وتعمل أيضاً في روما، في قصر فارنيس، منذ سنوات، وأنها تُحب هذه المدينة كثيراً، هذه الحياة، هذا الوضع، لكنها تشعر بالوحدة فيها، وكانت تغادر باريس حيث كانت قد أمضت شهر إجازة، مع شيء من الحنين بالطبع، وأن أمها ايطالية، وأنها ولدت في ميلانو، لكن جنسيتها فرنسية، وأنها كانت قد أنهت دراستها أثناء الحرب في مدرسة سيفينييه.

وكانت قد عادت إلى أقاربها من أمها، عقب استئناف فتح الحدود، وتزوجت من

مهندس يعمل في شركة فيات كان قد توفي، بعد مدة قصيرة جداً من استقرارهم في مدينة تورينو، في حادث مُرَوع على الطريق السريع، بعد شهرين فقط من زواجهما. كانت القشعريرة ما زالت تتملكها من هذه الذكريات ومن أجل هذا كانت قد ابتغت هجر كل ما يؤجحها، ونزلت نحو الجنوب.

كان جميع الزبائن تقريباً قد عادوا إلى عرباتهم، وكان النادلون يطوون شراشف الموائد؛ فغادرتما؛ مررتما قبالة مقصورتك في الدرجة الأولى، لكن رَغبتكَ في أن تُحدثها عن نفسك كانت تتملكك إلى حد أنك رافقتها إلى مقصورتها وجلست إزاءها. كان القطار في هذه الأثناء يُحاذي البحيرة اللامارتينية[1].

كُنتما ما تزالان تتحدثان أثناء اجتياز الحدود، واتجهتما معاً، عند المساء، نحو عربة المطعم الايطالي. كان مشهد «بيمون» الفسيح المنحدر مُشمساً، والظل يملأ الوديان، لكن السقوف الخشبية الرمادية المنحدرة بعض الشيء كانت متلألئة، وكان العرق يتصبب من ظهرك ومع ذلك كنت تشعر أن الهواء قد أصبح منعشاً. كانت تضحك، وتُصغي، وتنظر إليك، معجبة بك. والوقت يمضي، والليل يرخي سدوله. لم يبق في مقصورتها، حين عُدتما، إلا ثلاثة أشخاص: عجوز ايطالية مُلفعة بالسواد، وسائحان فرنسيان، أخ وأخت.

كنتما قد وصلتما إلى أنفاق مدينة جنوة؛ تنظران إلى الدكاكين المُضاءة وإلى انعكاسات القمر على الماء؛ لم تعودا تقولان شيئاً؛ شخص ما طلب أن يُطفَأ الضوء. في السقف، لم يبق إلا المصباح الأزرق الصغير، لكن الستائر لا تزال مفتوحة على نوافذ الممر. ظَنَت في وهلة أنك تتأهب للمغادرة، وكنتَ، أنت نفسك، تتساءل عن هذا الشأن، لكنك عرفت كيف تقتنصه، هذا الأسف الذي كان يرتسم على وجهها! بَقيتَ جالساً باتجاه سير القطار، كما أنت الآن، وهي، قبالتك، في المقعد الذي كان يشغله الأستاذ قبل هنيهة، أَخذَتْ تبتسم وهي تميل رأسها نحو اليسار، تاركةً النعاس يتوغل إليها تحت حراستك، مع انتفاضات من وقت لآخر، ويداها تداعب إطار النافذة، فاغرةً فاها قليلاً في بعض الأحايين كي تتنهد، وهو ماكان يكشف عن نهايات أسنانها التي تطبق قليلاً على شفتها السفلى، متشنجةً، ومن ثم

1- نسبةً إلى الشاعر الفرنسي الرومانسي لامارتين الذي تغنى بحبيبته على ضفاف بحيرة ليمان على الحدود الفرنسية -السويسرية.

تهيمن عليها حركة القطار ثانية وتأخذها تَحتك قدماك بالأرضية الحديدية الساخنة. فيما وراء النافذة، هذا المطر الذي كان مجيئه أكيداً منذ الرحيل، ها هو بدأ تدريجياً، بقطرات دقيقة تاركة خطوطاً صغيرة على زجاج النافذة، أشبه بمئاتٍ من الرموش.

في الجانب الآخر، تُسمى اللوحة: مجموعة مناظر لروما الحديثة؛ تتصدرها لوحة النبي موسى لمايكل أنجلو، وداخل الإطارات جميع نافورات الرسام بيرنان (Bernin)؛ كُنتَ تجول بناظريك من نافورات الأنهار «بيازا نافونا»، إلى نافورة «تريتون» (Triton)، بالقرب من قصر «باربيريني» (Barberini)، من ساحة «سان بيير» إلى سلالم «ترنيتي دي مون» (Trinité des Monts)، في جميع هذه الأماكن المسكونة بالنسبة إليك بوجه سيسيل، بإصغاء سيسيل التي كُنتَ قد عَلَمتها حُب هذه الأماكن، التي من أجلها تعلَمتَ كيف تحبها أكثر.

حينما بَدأتَ تشعر بالجوع، نَظرتَ، من خلال زجاج النافذة، إلى الباحة المربعة الشكل حيث كان المطر يهطل، وإلى الساعة في الجناح المركزي التي كانت تُشير إلى الثانية عشرة والنصف.

تَرَجلتَ السُلَم اللولبي الصغير، اجتزت قاعات الآثار المصرية، لكن بعد أن وَصَلتَ إلى «انتصار ساموتراس» (Samothrace)، استدرتَ إلى اليسار بدلاً من الاستمرار على نحو مستقيم مباشرةً نحو الأسفل، ماراً بقاعة الأمتار السبعة، مجتازاً بخطوات سريعة الغاليري الكبير، شاقاً طريقك بين المجاميع الأجنبية العديدة حتى لوحات «بوسان» (Poussin)، و«لوران» (Lorrain)، فرنسيي روما.

تُحاول أن تَستذكر تَنسيق لوحاتهما دون أن تتمكن من إعادة ترتيبهما على نحو تام؛ أنت تعرف جيداً، بالتأكيد، أن على الجدار الأيمن كانت هناك اللوحة الصغيرة التي تمثل «ميدان روما» في القرن السابع عشر بأعمدة معبد «الديوسكور» (Dioscures) الثلاثة المغروسة حتى النصف في الأرض، «الكامپو ڤاجينو» (Campo Vaccino)، هذه الأرض المبهمة، سوق الحيوانات هذا الذي كان قد أضحى العمود الفقري لعاصمة العالم، كان هناك أيضاً «روث وبوز» Ruth et Booz التي تُشبه بساطاً بفضائها الشاقولي،

تتطور حركات الشخصيتين في اللوحة مثل حركات الحصادين في نقيشة مصرية، كدر الزمن والبرنيق حقل القمح فيها، ومن ثم، لكن هذا غير أكيد، ربما كان هناك طاعون أثينا أو اختطاف السابينيات[1]، على أي حال إحدى هذه اللوحات التي تشبه إلى حد كبير رسومات «يومبيي» (Pompéi) حيث يصعب على المرء أن يُسلم بهذه البديهة ألا وهي أن مؤلفها لم يكن بوسعه أن يعرف شيئاً عنها، وأنه عُرِفَ بقدرة عجيبة في التكهن فحسب، كيف يعثر على روحها من خلال لوحة «عرس الدوبراندين» (noces aldobrandines) الرديء الذي نفذ نسخته

العجيبة الموجودة في قصر «دوريا» (Doria)؛ لكن ماذا بشان الجانب الاخر؟ احتفال بباخوس بالتأكيد، لكن ماذا بعد؟ يوليسيس(Ulysse) يُعيد بريزيس(Briséis) إلى أبيها؟ ميناء بحري عند طلوع الشمس؟ وصول كليوباترا إلى تارس؟ الثلاثة؟

كُنتَ تتأمل شخصياتها المرسومة ببدائية تامة حتى أنها تدعو الروح إلى بعث الحياة فيها، إلى حد أنك توصلت إلى تخيل قصة لكل واحدة منها، متتبعاً إياها قبل المشهد المعروض وبعده، حركتها المعزولة والمثبتة وسط رحلاتها فوق المياه، في مغامراتها بين شوارع هذه المدن البحرية الرائعة، بين الأعمدة والقاعات، بين الحدائق ذات الأشجار الباسقة في هذه المساكن الثرية القديمة التي تستمد قِدَمها من أعاجيبها المغمورة بصوت فرجيل(Virgile) أكثر من فعل الترميم الغبي لآثارها الذي سيستمر في فرضه علينا، لا ندري إلى متى؟ هذا الكم من الأجيال الإمعات.

انتزعتك مَعِدَتك الدقيقة المواعيد مثل ساعة، من أحلام اليقظة هذه، وهذه، كما يُقال، هي إحدى إمارات الشيخوخة،، لكن، هنا أيضاً، كان بوسعك أن تترجل وتخرج أسرع بكثيرٍ مما فعلت، كان بوسعك أن تجتاز قاعة ڤان ديك (Van Dyck)وتجد مباشرة إلى يسارك السلم المؤدي إلى منحوتات العصر الوسيط؛ لا ... بل عُدت على أعقابك عبر الجَمع المنتشي، عِبرَ قاعة الأمتار السبعة، بالقرب من انتصار ساموتراس، وبسرعة، بسرعة كبيرة، لكن لم تتمكن من منع نفسك، فاسترقت النظرَ إلى موزاييك انطاكية، الصور

1- النساء الواتي كن يسكن في إيطاليا الوسطى سابقا.

الشخصية لسيدات رومانيات في عهد نيرون وتمثال هذا الأخير وهو طفل، في غاية الوقار بثوبه الفضفاض ووجهه المستدير.

كان المطرُ ينهمر مدراراً حين مَرَرْتَ بهذه الشُرفة التي تؤشر موضع النصب القديم في جومبيتا (Gambetta) حتى إن المرء لا يرى قوس نصر كاروسيل إلا لِماماً، ولا يرى، بالطبع، المسلة.

كان تدفق السيارات في شارع ريفولي، هو نفسه قبل نصف ساعة، لكن، ماسحات المطر كانت تمسح الواجهات الأمامية للسيارات.

في وجبة الغداء، في شارع ريشيليو، في مطعم سبق أن كانت لك فيه مواعيد عمل عديدة، طَلبتَ «سباجيتي بولونييز»، لكن هل ما قُدمَ لَك كان يستحق فعلاً هذا الاسم، أم هي الوحدة التي شَعرتَ بها على حين غرة وأنت تأكل هي التي حالت دون تذوقك إياها، وتثمينها وفق استحقاقها الفعلي؟ أما بالنسبة للقهوة، ففيما كانوا قد أكدوا لك بابتسامة أنها كانت أكسبريس، فقد قدموا لك بعد بضع دقائق قهوة مُرشحة، مرشحة ممتازة اتفقنا، لكن لم يكن لديك الصبر لتنتظر أن يُصبح الفنجان مملوءاً لِتُعبها وأنت تدفع قائمة حسابك. إن كنت تتغدى هكذا، بهذه المشاعر، هل كان الأمر يستحق حقاً ألا تعود إلى بيتك، أن تُعقد وتسمم علاقتك بهنرييت بكذبةٍ أخرى غير مُجدية؟

كانت قد بقيت معك سيجارة واحدة في علبة سجائر ناسيونال، لكن المطر كان ينهمر في الخارج بشدة إلى حد أنها انطفأت، فرميتها على قارعة الطريق. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، ولم تكن لديك أدنى رغبة في الوصول إلى مكتبك قبل خمس وعشرين دقيقة، ولو كنت وحدك في المكتب لنمت فيه: إنها عادة اكتسبتها من السفر بالقطار، حتى في مقصورات الدرجة الأولى المريحة، سفر طالما أتعبك لكنه أخذ يُتعبك أكثر فأكثر.

سيكون الوضع أفضل بكثير اعتباراً من المرة القادمة، فقد سبق أن طَرحتَ الموضوع مرات عديدة على سكابيلي وانتهيت بالحصول على القرار الذي بموجبه ستكون جميع رحلاتك من الآن فصاعداً مدفوعة على عربة فيها أسرة نوم، لكن اليوم، أنت لست حتى

في الدرجة الأولى، وحين تفكر بالأرق الذي ينتظرك هذه الليلة، ينتابك الندم على نزعة التقتير هذه، التي ورثتها من زمنٍ كنت فيه أقل يُسراً بكثير، لكنك تستدرك، كلا، إنه ليس بُخلاً إن كنت رغبت السفر هذه المرة تحت هذه الشروط، بل بفعل شيء من العاطفة، ومن الرومانسية، ففي لقائك الأول بسيسيل في هذا القطار قبل سنتين، في نهاية شهر آب، تَركتَ مقصورتكَ لتذهب إلى مقصورتها التي كانت شبيهة بهذه، واتخذتَ لك مقعداً قبالتها، هو المقعد نفسه الذي تشغله الآن؛ إذ أن جميع الرحلات التي قُمتَ بها بصحبتها كانت في الدرجة الثالثة؛ لكن هنا يعود التقتير ليكشف عن نفسه، فأنت الذي دَفعتَ أجور رحلاتها الأخيرة ولم تكن ترغب في أن يكلفك هذا ثمناً باهظاً، إذ كُنتَ دوماً تخشى ألا يكون لديك ما يكفي لأسرتك، لبيتك في خمسة عشر ساحة البانتيون، تخشى دوماً أسئلة هنرييت عن حساباتك. آه، لو كان بوسعك أن تنتزع نَفسكَ في وقت مبكر من هذا الضرب من البخل الذي أصبح الآن مثار سخرية بفعل رخائك الفعلي، لَعشتَ مع سيسيل على مدار السنة، منذ زمن طويل، هذه الحياة التي لم تذقها حتى الآن إلا أثناء مرورك السريع بروما.

إذن، بما أنه كان لا بُدَ أن تقتل نصف الساعة هذه، لكن الجو الرديء يمنعك من أن تفعل هذا من خلال تنزهك في الشوارع، فقد اجتزتَ جادة الأوبرا ورجعتَ فيها إلى الرصيف الأيسر، آخذاً بالإتجاه المُعاكس الطريق الذي كُنتَ قد سلكته قبل هنيهة لتأتي من مكتبكَ حتى اللوفر، محاذياً إلى يسارك واجهة المكتبة حيث أدلة روما وباريس السياحية الزرقاء، مُحاذياً واجهات وكالة السفريات لصديقك دريو، الذي لم يكن صديقك تماماً من قبل، لكنك مدين له بكثير من العرفان بالجميل إذ ستأتي سيسيل لتعمل في مكتبه، فهو الذي زَودكَ بمفتاح مجيئها إلى باريس، الذي زودك، دون أن يَعْلَمْ، بما تحتويه واجهة الوكالة عن سيسيليا، وعن إيطاليا حيث ساحة «سان بيير» التي تتوسطها مسلة سيرك نيرون، وعازف ناي من تاركينيا، وبرج بيزا، وسلم قصر بالبي، وقبة جاريني الكبير المرصعة بالنجوم، وما تحتويه واجهتها عن الألب، وفي شارع دانيل كازانوڤا واجهة الوكالة عن إقليم

بورجينيا[1]، عن هذه المحافظة التي تجتازها الآن، مقترباً من عاصمتها النَهِمة، مكان اكتشاف ولقاء فيما مضى، لكنها اليوم، منذ الهيمنة الباريسية، صارت مكان عزلة ومتعة قبل كل شيء، بصورها الفوتوغرافية الملونة ممثلةً باحة ملجأ بون وسقوفها القرميدية المبرنقة راسمةً أشكالاً متقاطعة، «ملاك يوم القيامة» لـ روجيه ڤان دير ڤيدن، «الهروب إلى مصر» لـ ملشيور برودرلام، و«آبار الأنبياء» بالأسود، والملصقات المرسومة مُحتفيةً بعناقيد العنب، ومزارع الكروم وقوارير النبيذ، ثم، في الجانب الآخر من الشارع، واجهتكَ أنت بهيئتها الإيطالية، حيث خُط اسم سكابيلي بحروف سوداء كبيرة، لم تُحدَد البتة بضياء نيون لكنها تبرز ليلاً بهيئة ظِلالٍ صينيةٍ على السطح الزجاجي الكبير المُضاء، الصقيل ذي الحدود المتعرجة، بنافذتها الممتدة حتى الأرضية، بجدرانها المُغَلَفة بالفُسَيفساء، و الحاسبات أو الآلات الكاتبة متدلية بمجموعة حِبال مُلونة موترة في نقاط مختلفة، كل واحدة منها مُضاءة بمصباح خاص (سبق لأوليفتي بالطبع أن قامت بهذا الضرب من الأشياء قبلكم)، ثم الباب إلى جانبها، باب البناية القديم، هذا المدخل الذي ينبغي أن يمر عبره كي يصلوا إلى مكتبك في الطابق العلوي ليس الموظفون العاملون فحسب بل جميع الزبائن المتنفذين، الذي تفكر بالتأكيد منذ زمن طويل بالعمل على تغييره بالرغم من تردد الإدارة الرومانية التي لم تكن لديها رغبة كبيرة في أن تصرف مبالغ طائلة لترتيب مكان لم يكن بوسعها أن تكون مالكة له، فهذا السُلَم هو الوحيد الذي يُفضي إلى جميع الطوابق العليا، ثم مكتبة برنتانوس وشركة الملاحة الإيطالية.

سَلكتَ جادة كابوسين حتى شارع كومارتان ودخلت إلى البار الروماني، المكتظ مساءً، وخاصةً مساء هذا اليوم، إذ أنك عُدت اليه مرة ثانية في أواخر العصر، متوخياً إرجاء وصولك إلى 15 ساحة البانتيون إلى أقصى ما بوسعك، إرجاء الساعة التي ترى فيها ثانية

1- كان اقليم بوركينيا(La Bourgogne) مُتَنَفذاً ومزدهراً بفعل ازدهار الزراعة والصناعة فيه، لكنه بدأ يفقد بريقه لهجرة سكانه إلى باريس العاصمة للعمل والاستقرار فيها.

هنريت والأولاد، بار مكتظ بنساء مخضبات جاثمات على المقاعد العالية، يحركن كعوب أحذيتهن المدببة في نهاية سيقانهن المتينة القصيرة في الأغلب إلى حدٍ ما، يُشبكن أقراطهن الصغيرة من الماس الصناعي، وهن يُربتن بإصبعهن على ماسك سجائرهن الطويل، لكنه خال تقريباً في مثل هذه الساعة من النهار، باستثناء بعض السادة المُسنين، البار الروماني «بأجوائه القديمة»، البعيد إلى أقصى حد عن البارات الحالية للعاصمة اللاتينية، لكنه كان بوسعه، بذوقه الرديء المُستَفز، أن يوضع بالفعل في روما نهاية القرن التاسع عشر، برسوماته المُثملة المسمرة التي تمثل مشاهد مُمَيَزة لهذه الحرية الأخلاقية الباذخة والمُضَبَبة في الوقت نفسه، لهذا النوع من المجون الفخم الذي كان يحلم به، كما يحلم بتحقيقه على نحو صريح ورائع، فسق الباريسيين المتخفي في زمن «العصر الجميل» (La Belle Epoque)[1] متحرراً من مبادىء الاحترام البورجوازي، «ميسالين في محجر لأمراض الزهري»، «دخول نيرون الظافر إلى روما»، وما إلى ذلك...، بكراسيه المنجدة بالقطيفة الحمراء ومجموعته من القطع النقدية، لكنك كنتَ تعرف جيداً أنه، على الرغم من رومانيته البحتة، فهذا البار ليس بوسعه أن يبيعك هذه القهوة «الأسبريسو» التي كُنتَ تواقاً إليها، فاكتفيتَ بإحتساء قهوة مرشحة من الدرجة الثانية وأنت تلحظ بطرف العين سيدين مُسنيين كانا يقرآن صحيفتيهما ويبوحان أحدهما للآخر همساً بأسرار ما، حتى اللحظة التي لَمحتَ فيها أن الساعة هي الثانية إلا خمس دقائق ولم يبق لك من الوقت بعد إلا ما يكفي للوصول إلى مكتبك أثناء فتحه بعد أن سلكت طريقاً ملتوياً لتشتري سجائر جلواز، وحينما خرجتَ منه في المساء، وكنت آخر من غادره، في السادسة والنصف، كان ثمة رذاذ مطر بألوان قوس قزح يتساقط ليلاً، على جميع اللافتات، والواجهات، وضياء السيارات، والإشارات المُضيئة، انتظرتَ برهة من الزمن على الرصيف، منادياً من بعيد كل سيارات الأجرة التي لم تكن واحدة منها شاغرة، حقيبةُ سفرك بيدك، ومارنال قد ذهب لأخذها من مستودع المحطة خلال وقت ما بعد الظهر، وكنتَ

1- يمتد «العصر الجميل» في باريس بين 1880 و1914 وسمي بـ «العصر الجميل» للرخاء الذي كانت تتمتع به طبقات المجتمع العليا وانفتاحه الفني والثقافي.

تجدها ثقيلة جداً، لتجرها في ممرات المترو الذي لا بد أن تُقرَ بأخذه في نهاية المطاف ولذلك صعدتَ ثانيةً إلى مأواك، إلى مركز القيادة حيث كل شيء كان خالياً ومُعتماً، وكنتَ ترى من خلال زجاج نوافذ الغرف الصامتة تحرك الظلال، والوميض الندي، كي تضعها على منضدتك، ثم، تحولت عن الطريق المباشر بمرورك بالبار الروماني الذي كان مكتظاً هذه المرة، مُكتظاً بسيدات ورجال أصغر سناً من أولئك الذين كانوا موجودين ظُهراً، حيث لم تمكث إلا ربع ساعة تقريباً، ما يلزم من الوقت لشرب شاي قوي جداً لأنك كنت تشعر بالبرد، دون أن تخشى، بعد الليلة التي أمضيتها بالقطار، أن يمنعك هذا من النوم في بيتك، ومن ثم ذهبتَ لتستقل المترو في محطة المادلين، شاقاً طريقك بين الحشود المُبتلة والمسرعة في الجادات، حولت خط المترو في محطة «سيفر بابيلون» حيث أخذت اتجاه محطة «اوسترليتز» وخرجتَ إلى السطح في محطة «أوديون» وكان حشدٌ من الطلاب من جميع الأجناس يهبط السلم، ليس لأن هذا هو الطريق الأقصر، فلو كنت على عجلة للوصول إلى 15 ساحة البانتيون، لكان من الأفضل أن تستقل الباص، لكنك كنت ترغب أن تُطيل أكثر قليلاً بعد هذه الرحلة الرومانية التي قمت بها طوال هذا النهار، من خلال مدينة باريس، ماراً بالأحرى بالقرب من النُصُب التي كانت تُذكركَ بنُصب روما، تلك التي كان حضور سيسيل قد أعانك كثيراً على الاهتمام بها، هذه التفاصيل الرومانية في باريس، التي كانت تبعث بالقرب منك، حينما كنت تتأملها، عيني سيسيل، وصوتها، وضحكتها، وشبابها، وحريتها المَصون.

كانت لديك رغبة، مثل سائح، في أن تسلك جادة سان جيرمان، وتجتاز جادة سان ميشيل، مشياً على الأقدام، ثم تستدير إلى اليمين لتسلكه ثانية على الرصيف الأيسر، لا لتتأمل طويلاً أبداً (لم تكن لديك أي رغبة في التوقف ليلاً وفي المطر؛ ثم؛ هل هناك شيء نتأمله؟) بل لتلامس هذه الجدران القرميدية والحجرية التي بقيت من الحمامات التي كان يعرفها جوليان لابوستا[1]، الأثر الوحيد المهم من لدن حبيبته لوتيس[2]، وهذا كاف جداً لتعليل بقاء اسمه عالقاً بها.

1– غزا الرومان باريس في عهد الإمبراطور الروماني جوليان لابوستا ولذلك سُميت باسمه.

2– اسم باريس القديم (Lutèce).

كانت ساحة البانتيون شبه مهجورة مثل كل المساءات في مثل تلك الساعة، لكن في مثل ذلك الوقت تكون عادةً قد عدت إلى بيتك، ودخلت اليه بسيارتك التي ما تزال موجودة الإثنين مساءً في مرآب شارع ليستراادا حيث ذهبتَ لتتركها فيه يوم أمس؛ ولأن كتلة المعبد الدكناء تُثقل على الشارع بقبتها غير المرئية، فقد بدا لك طويلاً جداً كي تجتازه، ثمة عربة كانت تستدير وسط الرطوبة مُضيئةً بمصابيحها لوهلة تمثال جان جاك روسو.

حينما ضَغطتَ على قاطع التيار، انفتح الباب مُحْدِثاً شيئاً من الصرير، وبما أن نوافذ حجرة البواب إلى اليسار مختبئة بإحكام بستائر يكاد يتسلل منها بصعوبة وميض يميل إلى الحُمرة؛ فقد أضأت المصباح الأوتوماتيكي، وأخذت المصعد إلى الطابق الرابع حيث رأيت هنرييت في مدخل الشقة تتقدم وهي تمسح يديها بمريلتها الرمادية.

كانت تنتظر أن تقبلها مثل كل مرة، لكنك رفضت أن تُطيل هذه الكوميديا وقتاً أطول، أخذتَ تفتح أزرار معطفك، وحينئذ سألتكَ:

– «ماذا فعلتَ بحقيبتك؟

– تركتها في المكتب؛ لم اشأ أن أُربك نفسي بها هذا المساء وأنا دون سيارة؛ كيف الحال هنا؟

– العشاء سيكون جاهزاً بعد لحظات. هل أمضيت نهاراً جيداً؟

– نهاراً ممتازاً. لكني مُنهك قليلاً بالطبع.

عادتْ لتؤنب مارسلين، وذهبتَ أنت لِتُلقي نظرة في غرفة نوم الولدين اللذين انتصبا بسيمائهما المُذنبة الوقحة، وكان هذا واضحاً تماماً على هنري الذي كان مستلقياً على فراشه وهو يقرأ رواية من روايات السلسلة السوداء، كان له من الوقت ما يكفي لإخفائها على نحو سيىء تحت الوسادة، في اللحظة التي كان قد سَمعكَ أتيت، وتوما، الذي كان يمسح خلسةً يديه ببنطاله من القطيفة المُضَلعة مُقلداً حركة أمه، أمام المغسلة المليئة بالماء وفيها قوارب ورقية صغيرة بأشرعة ملونة كانت تغرق فيه بسكينة، ومنفضة السجائر على المائدة الكبيرة، التي لا بد أن أحدهما قد سرقها من مقهى ما، طافحةً بقطع من الورق المحروق وباعقاب السجائر. قاموس جافيو ملقى على السجادة مع كتب مدرسية عديدة أخرى لا بد أنها استُخدمت كقذائف.

كانا يحبسان قهقهاتهما خلف الباب الذي أُعيدَ غلقه، ثم وَجَدتَ، في غرفة نوم البنات (في زاوية ما، عربة دمية جاكلين مليئة بملابس صغيرة مُبعثَرة، وفي الوسط، أسفل المصباح، كومة من أعمال خياطة غير مكتملة) مادلين مسترخية على الأريكة، ومستغرقة في قراءة مجلة «أيل»[1].

– أين شقيقتك؟

– أرسَلتها ماما لتُنجز واجبها في غرفة الطعام.

إنهم حقاً، حتى مادلين، في السن الحرجة، غير ناضجين بعد، بعد أن فقدوا وداعة وجاذبية الأطفال الذين نلقاهم مساءً لنتسلى معهم كما نتسلى بِلُعب رائعة، ولذلك لا يمكنك التحدث إليهم كما تتحدث إلى بالغين، إلى أصدقاء؛ غير قادر على تتبع دراستهم عن كثب بسبب عملك، وهمومك، ومشاغلك الأخرى، فأنت تعاني من صخبهم، وهذا ما يثير امتعاضك منهم، ما يحول دون ثقتهم بك، إلى حد أنهم أصبحوا بالنسبة إليك غرباء صغاراً معزولين، جريئين ومتواطئين، يعلمون جيداً أن ثمة شيئاً ليس على ما يرام بين والدتهم وبينك، يرقبونكما أنتما الإثنين، وإن لم يتحدثوا بينهم بهذا الشان، لا، إن هذا ليدهشك، لا بد أنهم يفكرون به، إنهم يعرفون أننا نكذب عليهم، فلم يعودوا يجرؤون بعد أن يطرحوا السؤال عليكما.

إذا كنتَ قد ترددتَ طويلاً جداً بشأن حُبّك لسيسيل، فقد كان هذا بسببهم بالطبع، لكن الحل بالتأكيد ليس أن تترك الأمور تتدهور ببطء على هذا النحو، بل على النقيض من ذلك، ما ينبغي أن تفعله، هو أن تبين لهم بصراحة تامة أن ما يهجسون وجوده بينكما هو الحقيقة، عملية جراحية ربما ستؤلمهم قليلاً، لكنها ستخلصهم من هذا الداء الذهني الذي بدأ يتلبسهم، هو أن تبين لهم انك رجل يمتلك شجاعة الجهر بعواطفه، وسيكونون ممتنين لك في نهاية المطاف؛ بسببهم. عليك إذن، أن تتخلى عن التردد، وعن التستر.

لن تتخلى عنهم قط، ستكون دائم الحضور لتسندهم، لتحرص على ألا ينقصهم شيء، وخاصة، الآن، سيكون بوسعهم أن يأتوا نحوك دون هذا الضرب من الشك، والابتسامة الماكرة؛ ستكون علاقتك بهم خالية من الشوائب.

1– (Elle) مجلة تعنى بالأزياء وشؤون المرأة.

في غرفة نومك، فَتَحْتَ النافذة، تأملتَ كتلة البانتيون السوداء التي كنت تُميزها تحت المطر فوق بعض مصابيح السيارات الرطبة، مع حمامات جوليان، فهي التي تقود ذهنك دوماً، من بين جميع نُصب باريس، نحو سيسيل، وهذا ليس لأن اسمها يذكرك بالطبع باسم المعبد الذي كان أجريبا (Agrippa) قد أهداه إلى اثني عشر إلهاً فحسب، بل أيضاً لأن الإفريز الشريطي، بمستوى شقتك تماماً، هو من بين كل جهود التزيين الكلاسيكية واحد من أكثر الأعمال المقلدة إتقاناً لأجمل النقوش الرومانية ثم وأنت تغلق مَصاريع شبابيك، وَجدتَ نَفسكَ غبياً وأنت تدخل إلى الحمام لتغسل يديك، حين نظرت إلى رفك الصغير تحت المرآة خالياً لأنك لم تُحضر حقيبة سفرك، مُتسائلاً كيف ستتمكن أن تحلق صباح اليوم التالي، أولادك ما يزالون صغاراً جداً لتكون هذه الأدوات بحوزتهم: فرشاة الحلاقة، وما إلى ذلك؛ وإذ لا يجوز قط أن تظهر بلحية عمرها أربع وعشرون ساعة لأنظار الآنسات كايدناك، لومبيروبيران، فالحل الوحيد هو أن تذهب إلى حلاق بعد أن تكون قد تناولت فطورك.

كانت هنرييت قد فكرت قبل هنيهة بهذا دون شك، في لحظة وصولك، فهي تمتلك انتباهاً مشحوذاً على نحو عجيب في هذا الضرب من التفاصيل، لكنها لم تشأ أن تُخبرك، إذ فَضَلَتْ أن تتبين الأمر بمفردك، كي تُمعن في إذلالك، كي تُشعرك بحاجتك إليها لا على صعيد الحب.. البتة، لقد فات الأوان، بل على صعيد كل هذه الأمور المادية الصغيرة. هذه كانت سياستها دوماً كي تمنعك من اتخاذ القرار، وتُجَنِب الأولاد الفضيحة، هذه السياسة الوَجِلة، الدنيئة دوماً، في حين أنها في دخيلتها ترغب في هذا الانفصال، قدر رغبتك أنت، لكنها تخشاه، تخشى شفقة صديقاتها، تخشى ما سيقوله للأولاد زملاؤهم في المدرسة، هو ذا ما وتخشى مواجهته، وتفعل كل ما بوسعها لتؤخر الفضيحة، آملةً أن عاطفتك وإصرارك سيذوبان بعد وقتٍ ما وأنه لن يحدث شيء.

إنها تستخدم من أجل هذا حيلةً دائمة، لكن، ماالذي ستجنيه إذا ما نجحت ؟ الميزة الحزينة بامتلاكك مهزوماً على نحو قطعي، لذة المعتوهين الكئيبة بجرِّ شخص آخر غيرهم إلى مستنقعهم الآسن وإلى سأمهم، منتصرةً، لكن أي انتصار بائس، مُستعيدةً وجودها إلى

جنبك كما بالقرب من رجل غير قادر على مقاومة حربها الاستنزافية ولن يكون بوسعها أن تضمر له بالنتيجة إلا احتقاراً أعمق بكثير من هذا الذي يتملكها طالما هي تصارع.

حينئذ ستُصبح لا تُطاق بالنسبة إليها وسيستحيل بُعدها إلى كَراهية، عارفةً أنها ستكون قد أبقتك على الرغم منك لضعفك فحسب، بعدوى خوفها إزاء رفيقاتها الغبيات، آه، وجه التأنيب هذا، كم سيكون مشحوناً! كيف سيكون بوسعها أن تسامحك وتسامح نفسها بعد أن عرَّتْ جُبنك إذ قَتَلَتْ فيك كل ما كان بوسعها أن تُحييه بعد؟

بأي وسيلة تتكالب على هذا النحو، بِنيَةٍ يمكن أن تُظهِرَ للآخرين أنها نية نبيلة، لتجركما أنتما الاثنين، إلى هذا الضياع المُتعذَر إصلاحه!

جَلَستَ على الكرسي ذي الذراعين في الصالون، بالقرب من هذه النافذة حيث يظهر على نحو رائع جداً إفريز البانتيون المُضاء، لتُصغي في الإذاعة إلى مقاطع من اورفيو لمونتي فردي، لَم تُضء إلا المصباح ذا العمود الحديدي الأسود؛ كان بوسعك أن تلمح مارسلين التي كانت تضع آنية المائدة في غرفة الطعام من خلال الأبواب المُزجَجة؛ كُنتَ تتأمل، على الجدار المقابل، لوحَتَي الرسم المطبوع الكبيرتين لبيرانيز[1]، واحدة عن السجون وأخرى عن الإنشاءات؛ من مكتبتك الصغيرة التي تضم مؤلفين لاتينيين وإيطاليين كونتها منذ بدء علاقتك بسيسيل، اخترت الجزء الأول من كتاب «الإنيادة» في مجموعة جيوم بوديه وفتحته عند بداية النشيد السادس. في هذه الأثناء، دَخَلَت جاكلين ولطخاتٌ سوداء على أُصبعيها الوسطى والإبهام في يدها اليمنى، جَلَسَتْ على الكرسي ذي الذراعين في الجانب الآخر من مدفأتك، بالقرب من مكتبة المؤلفين الفرنسيين الكبيرة، يداها متصالبتان، والارتباك بادٍ عليها.

– «بابا، هل أمضيتَ رحلة سعيدة؟»

– نعم، ياجاكلينتي، وأنتِ، هل كنت عاقلة؟

– رأيت السيدة ثانيةً؟

1- Piranèse، رسام، ونحات، ومهندس عماري ايطالي (1720–1778) عُرِفَ بميوله للفن القديم وبحسه الرومانسي الذي تجسد في لوحاته.

– أي سيدة؟

– أنت تعرف جيداً، تلك التي جاءت إلى هنا ذات مرة.

– تعنين السيدة دارسيلا؟

– أوه، لا أعرف اسم أسرتها. تلك التي كُنتَ تدعوها سيسيل.

– نعم، لِمَ تسأليني هذا؟

– هل ستأتي إلى هنا قريباً؟

– لا أظن».

رمقَت هنرييت، وهي تفتح الباب المزجج لتخبركم أن العشاء كان قد وُضِعَ على المائدة، الصغيرة بنظرة جعلتها تحمر خجلاً، فبكت، وفرت إلى الحمام لِتنظِفَ أصابعها.

ماالذي كان يَخْتَبِىء يا تُرى وراء هذا المشهد القصير؟ ألم يكن من المفروض ألا أرى فيه غير مُصادفة بريئة، وهذا الاحمِرار خجلاً، وهذه الدموع، وهذا الهروب، ألأنها كانت قد اضطربت بسبب سلوك والدتها وسلوكها فحسب؟ أم تراها قد طَرَحَتْ عليك الأسئلة عمداً، كي تحاول أن تحصل على تأكيد للفرضيات التي كونتْها في رأسها الصغير، كي تنتزع منك معلومات ستكون هي أول من يعرفها، أو بالأحرى، وبالطبع إلى هذا الحد كان من المحال الاستمرار هكذا، لم يعد التمويه والمراوغة يُجديان نفعاً، والشعور بهذا الضرب من الخجل المُقَزِز داخل الذات وخلاصها، ألَم يكن لدى هذه الطفلة التي كانت تُحبك كثيراً قبل بضع سنوات، واقتربت منك بلطف قبل هنيهة، ولم يكن بوسعها أن تكف عن حبك بحنان على الرغم من مظهر البالغين الذي كانت تحاول أن تمنحه لنفسها، مقلدةً بإتقان أختها مادلين، ألم يكن لديها ثمة شيء من السخرية؟

هذا ما كُنتَ تتساءل عنه وأنت في سَريرك، حيث إن فناجين الشاي الثلاثة التي كُنتَ قد شربتها في نهاية العصر في البار الروماني كانت تمنعك من النوم على الرغم من تعب السفر.

أصبحَ المطرُ أكثر غزارةً فيما وراء النافذة، ضارباً الزجاج بقطرات كبيرة أخذت تسيل

ببطء، راسمةً سواقي منحرفة. يغلق الرجل الإنجليزي صحيفته ثانيةً ويدسها في جيبه. في الجانب الآخر من الممر، أسفل الأسلاك التلغرافية المُهتزة والمتشابكة، تلمح بغموض أيضاً كتلة بيت أو شجرة هنا وهناك بين الهضاب المغطاة بكروم دون أوراق.

لكن الأمرَ حُسِمَ الآن، وأُنجِزَ، ها أنت حُر. ستكون ثمة تفاصيل كثيرة بعد، ينبغي أن تُسوى بالتأكيد، والوضع لا يمكن أن يستقر قبل بضعة أشهر، لكن الخطوة الأولى قد اتخِذَت.

بعد غد، الأحد صباحاً، حينما تستيقظ في التاسعة تقريباً في الطابق الرابع من 56 شارع مونت ديلا ڤارينا، ستتلألأ الشمس من خلال فجوات مغاليق الشبابيك و ستكون الأصوات التي ستسمعها أصواتاً ايطالية.

ستترك، في البدء، غرفة نوم سيسيل حيث ستكون قد نَهَضَتْ بالتأكيد، ستناولك إبريقاً من الماء الساخن، وستمر هي من خلال الباب الوسطي في هذه الحجرة حيث ستكون قد نمت فيها رسمياً، لِتَغتَسل، ولتبعث الفوضى في السرير، ثم ستلتقيان ثانيةً في الشارع الروماني، وإذا كان الجو جميلاً إلى حدٍ ما ستخرجان من المدينة لتذهَبا للغداء في ڤيلا أدريانا على سبيل المِثال، التي لم ترها قط في الخريف، أو، على بلاج ما، إن كانت هي تُفَضِل، فهي التي ستختار، ستكون سيدة هذا اليوم؛ إن كان المطر يوشك على الهطول، من المحتمل أن تقودك ثانيةً نحو هذا السر الروماني الأول ألذي كَشَفَتهُ لك، «يوم القيامة» لـ«بيتروكاڤاليني» (Petro Cavallini) في سانت سيسيل في تراستفير، حيث يسمح الأب اليسوعي بالدخول كل يوم أحد في الحادية عشرة برخصة خاصة جداً لكل الذين يرغبون بالزيارة.

وإذ يُرخي الليل سدوله مبكراً إلى حدّ ما، حتى في روما، في هذا الفصل، ستعود مبكراً إلى بيتها كي تطهو لك عشاءً على نارٍ هادئة، فهي تُحب أن تُظهر مواهبها بكونها طاهية، وعلى هذا النحو سيكون بوسعك أن تأوي إلى الفراش مبكراً مرة أخرى.

في اليوم التالي، الإثنين، يتعين عليها أن تعود ثانيةً في التاسعة إلى قصر ڤارنيز، في اليوم التالي وكذلك في أيام أخر كثيرة قبل أن تكون قد تسلمت رسالة التعيين من وكالة

سفريات دريو، وقبل أن تكون قد قَدَمَتْ استقالتها، وأن تكون قد قبِلَت؛ لن تلقاها ثانيةً إلا في الثانية عشرة ظهراً وستقضي ساعات الصباح وحيداً في زيارة أحد هذه المتاحف أو النُصُب التي لن تكون هنا لتزورها معك عما قريب، حتى إنك حينما ستعود إلى روما وتزور هذه المتاحف مرة أخرى، سيكون هذا مثل احتفاء بذكرى حُبكما وإحياءً لها. متحف الحمامات على سبيل المثال قبالة المحطة، مع غرفة طعام ليفي، هذا البستان المقدس الذي يعج بالطيور، أو حتى الفاتيكان، إن لم تكن قد شاهدت كل ما كان بودك أن تشاهده، لم ترافقك سيسيل في هذه الزيارة البتة، لكنك ستذهب لزيارة هذه القاعات من أجلها، على شرفها لتتفحصها بانتباه أوفر، فهي لم ترها البتة لعدم ملائمة مواعيد الزيارات. وفي الوقت نفسه لقرارٍ اتخذته، ليكون بوسعك أن تكون الرسول اليها عما تنقله الصور التي تزينها، محرراً إياها من الشوائب المكدرة، المزينة التي تُغطيها.

فضلاً عن ذلك، هذه الزيارة للفاتيكان، يوم الإثنين القادم مثل زيارة يوم غد صباحاً ستكملها إن اضطرت، هي الأولى التي ستكون قد قُمتَ بها منذ زمن طويل لنصب روماني من دون سيسيل، ستكون إذن الأولى من بين كل تلك الزيارات التي ستقوم بها، بالضرورة، من دونها بعد وقت قصير من الآن، حينما ستكون قد انضمت اليك في باريس ولن تكون بعد في شارع مونت دي لا فارينا لتستقبلك فيه؛ هذه الزيارة للفاتيكان ستكون بمثابة احتفاءٍ نذيرٍ بغيابها.

بوجيز القَول، إن لم تُفد قط من هذين الصباحين لهذا الغرض، من المرجح أن يمر وقت طويل جداً قبل أن تسنح لك الفرصة للقيام به من جدبد، إذ، غالباً، ليس بوسعك بالطبع أن تمنح نفسك أربعة أو خمسة أيام هروب على هذا النحو وحينها لن تَعِدَ سيسيل في روما، فعلى الأرجح لن تكون لديك الرغبة في هذا.

أنت تخشى أن تبدو لك «المدينة الأزلية» من الآن فصاعداً خاوية تماماً، وأن تكتئب بعد هذه المرأة التي كانت تشدك إليها وتبقيك فيها. ألا يبدو معقولاً أنه لن تكون لك فيها، من الآن فصاعداً، إلا رغبة واحدة؛ أن تستقلَّ اول قطار بعد إنجاز أعمالك، دون أن تستمتع حتى بعطلة نهاية الأسبوع، وأن تغادرها، إن كُنتَ فيها يوم سبت، منذ الساعة

الثالثة عشرة وثمانٍ وثلاثين دقيقة، على الدرجة الأولى، أو في عربة نوم، كما تأمل، في القطار الذي أخذته الأحد الماضي، الأسرع كثيراً من هذا الذي اخترته للإثنين مساءً لاحتوائه على درجة ثالثة.

بعد الظهر، أُتخِذَ القَرار، ستتنزه في جميع أنحاء هذا الجزء من المدينة حيث يُصادف المرء في كل خطوة بقايا النُصُب القديمة للإمبراطورية، فلا يرى المرء سواها على وجه التقريب، أما المدينة الحديثة والمدينة الباروكية فتتراجعان لتتركاها إن صح القول في عزلتها المهولة.

ستجتاز «الميدان»، ستصعد إلى البالاتين، وهناك ستُذكرك كل صخرة تقريباً، وكل جدار قرميدي بحديث ما لسيسيل، بشيء قرأته أو تعلمته ليكون بوسعك أن تحكي لها؛ ستنظر من قصر «سبتيم سيه ڤير» إلى المساء يُرخي سدوله على انحناءات حمامات «كاراكالا» المنتصبة وسط أشجار الصنوبر؛ وستترجل عبر معبد فينوس وروما، وسترى أفول الأصيل، وتكثف الليل داخل الكوليزيه، ثم ستمر بالقرب من قوس قسطنطين، ستسلك شارع سان جريكوريو وشارع دي سيرجي بمحاذاة السيرك القديم «ماكسيم»؛ أثناء الليل، ستلمح معبد ڤيستا إلى يسارك، ومن الجهة الأخرى قوس جانوس كادريفرون؛ حينئذ ستصل إلى نهر التبر حيث ستمشي بمحاذاته حتى شارع جيوليا لتعود إلى قصر ڤارنيز، ولن يكون متاحاً لك دون شك إلا انتظار بضع دقائق قبل أن تَبرحه سيسيل.

في الجانب الآخر من الممر، يمر قطار حِملٍ طويل، يصعب تمييزه تحت المطر الذي يشتد، عربات فحم في البدء، ثم عربات أخر، مُحَمّلة بعوارض خشبية طويلة، بسيارات غير مكتملة، بهياكل مركبات مطلية، منتصبة الواحدة بجانب الأخرى مثل أغماد حشرات ميتة، مشبوكة بالدبابيس، ثم تلك التي تضم الحيوانات بنوافذها المسيجة بقضبان حديدية، تلك التي تحتوي على النفط بسلالمها الصغيرة، المُسَطَحة تماماً المملوءة بالصوان الصدىء لإعداد سكك حديد أخرى، وأخيراً المركبة الأخيرة، بمخبئها المصفح، وفانوسها، ليس مباشرة على النافذة بل أبعد قليلاً. العروسان الشابان صامتان، كل واحد منهما مستغرق في قراءته، مدا ساقيهما تحت أريكتك. الأستاذ موجود الآن في الممر، مُسْتَنَدُ إلى القضيب النحاسي، ويدخن. تمر محطة لا تتمكن من قراءة اسمها.

ينهض الكاهن عن يسارك، يغلق كتاب صلواته ثانية، يدسه في غلافه الأسود، يضعه ليحجز به مقعده، يرجوك أن تُعذِر مروره، يفتح البابُ المزلاَج أكثر قليلاً، يدس نفسه إلى يمينك، ويتوارى خلفك في الحال. الحادية عشرة؛ ينبغي أن يتوقف القطار في ديجون بعد إحدى عشرة دقيقة، هل سينزل هنا؟ لا بد أنه في الخامسة والثلاثين تقريباً؛ إنه قوي، بل وجاد؛ ويبدو عليه السأم، إذ سيبقى جالساً مدة طويلة بعد، منزوياً في ركنه. هل انتهى من قراءة قداسه، أم توغل السأم إليه؟ ياله من تنكر لثوب الكاهن؟ إنه يُصرح، بالتأكيد، بعدد من الأشياء، لكن، كم من الخبايا وراء هذا التصريحات،! كيف نعلم إذا كان أباً يسوعياً على سبيل المثال، استاذاً في مدرسة، كاهناً ريفياً، أم قساً في خورنية مدنيّة؟ على هذه الطيات السود التي تكسوه والتي تشير إلى انتمائه لكنيسة ما، التي تؤكد لك تقريباً أنه يرتل عدداً معيناً من الصلوات يومياً، إنه يرتل قداسه، ليس ثمة أدنى إشارة تبين لك ماهية حياته، الاهتمامات التي يقضي فيها أكبر جزء من ساعاته، الوسط الذي يحتك به.

إلى أين يذهب؟ إلى أبعد من ديجون على الأرجح، كما تشير إلى ذلك هيأته، لكن ليس أبعد بكثير، إذ ليس معه من الأمتعة إلا محفظة الوثائق السوداء هذه؛ ولأي سبب يسافر؟ لا يبدو معقولاً أن يكون مثلك للحاق بامرأة؛ ربما ذاهب لأسرته، ليرى أُماً طاعنة في السن على سبيل المثال؛ لا بد أن لهم عطلة من وقت لآخر مثل الآخرين؛ لا بد أن بوسعهم هم أيضاً أن يسافروا أحياناً من أجل أمتعتهم، لكن في هذا الفصل من السنة... ولا من أجل مهنته، بل في الأقل من أجل ما يناظر في حياته المهنة بالنسبة إليك؛ لا يعرف المرء لماذا يجب عليه أن يسافر من باريس إلى ديجون، إلا إذا كان مثقفاً وذاهباً لإلقاء محاضرة أو للاطلاع على وثائق في المكتبة الوطنية، حيث يقع بالقرب منها شارع ريشليو، ربما صادفته الإثنين الماضي دون أن تلمحه، لكن سيماءه لا تدل على هذا.

يلتفت نحوك أستاذ القانون؛ يدخل، يجلس، ينظر إلى ساعته اليدوية؛ يرفع نظارته، يسحب من جيبه غلافاً يأخذ منه قطعة من جلد ظبي الجبل (الشاموا) ويبدأ بمسح زجاجها مرة أخرى.

وإذاً لا يُعرف هذا من وجوههم، كما هو الحال بالنسبة لهذا الشخص، نعرف، عموماً، أنهم ينتمون لفئة الأساتذة أو الباحثين العتيدين، من خلال ملابسهم، والكتب التي يقرأونها، من خلال حركاتهم، وسلوكهم؛ لكن بالنسبة لهذا الشخص التهمَ الثوبُ الفضفاض، والوداعة، وكتاب الصلوات، كل شيء.

إن كان من غير المرجح أن يكون ذاهباً إلى روما هذه المرة، فربما سبق له أن ذهب إليها، أو ربما يحلم بالذهاب إليها ليرى البابا، لينضم إلى حشد يرتدي ثوب الكهنوت هذا الذي يجوب كل الشوارع مثل سرب ذباب طنان، بدينين أو نحيفين، أطفالاً أو شيوخاً؛ لا بد أنه قد عرف أو سيعرف وجهاً لروما يختلف تماماً عن ذلك الذي أرَتْك إياه سيسيل خلال هاتين السنتين.

يرفع العريس الشاب ناظريه عن كتاب تعلم الإيطالية، يتبين أن المصطبة المقابلة خالية، لم تعد الزوجة الشابة إلى جانبه مستغرقة في مجلتها النسوية، فهي تتصفح الدليل الأزرق؛ تفتح خارطةً؛ فتتعرف أنت خارطة روما.

تُرجع ساقيك إلى الخلف لتسمح للكاهن بالدخول إلى المقصورة، يستعيد كتاب صلواته من على الأريكة، لكنه لا يعيد فتحه؛ يدسه في أحد جيوبه لينظر من خلال المطر.

إلى ماذا ينبغي أن نعزو هذا الانزعاج البادي على وجهه؟ وهذا التوتر الذي يقلص أصابعه العَضِلة، إلى عدم قناعة عميقة مستترة، إلى ضرب من الشك حول كل ما يمثله ثوبه، إلى ندم لأنه التزم بطريق لا يجرؤ تماماً أن يعترف بأنه لا يجده طريقه، أو حتى بكل بساطة أنه مأزق بالنسبة إلى أيّ شخص، أم أنه نتاج صعوبات عابرة وغير ذات أهمية، غمامة حزن حطت عليه فجأة، مما يتفق تماماً مع فرضية أنه ذهب إلى باريس ليعود أحد أقربائه المرضى، إلا إذا كان باريسياً وأنه إلى «بور» أو إلى «ماكون» ليعود هذا القريب المريض؟

ربما ذلك يجعله متوتراً هكذا، ليست ذكرى؛ بل خشية ارتسمت في ذهنه، الغَم الذي على وجهه ما هو بغم يوم انقضى، بل كدر يوم آت، ربما ينتظره، هو أيضاً قرار ما، ربما في هذه اللحظة نفسها، أو بالأحرى قبل لحظة، في اللحظة التي بدلاً من العودة إلى

كتاب صلواته كما كنت تتوقع، فقد دسه ثانية في جيبه بشيء من الاشمئزاز، ربما اتخذ قراراً أكثر أهمية بعد من القرار الذي تمثله لك هذه الرحلة، كأن يكون اتخذ قراراً بالتخلي عن هذه الصلوات وعن هذا اللباس، سيجد نفسه أعزل لكنه حديث العهد على حرية كانت حتى ذلك الوقت تُرعبه، وتشل أوصاله.

يبدو هادئاً تماماً، لكنه يتذمر، سيحتفظ بثوب الكهنة هذا طوال حياته؛ لا بد أنه مراقِب في مدرسة صغيرة؛ لابد أنه يمضي نهاره في توزيع عقوبات لأولاد في سن أولادك، يحترمونه لأنه ممتاز في لعبة كرة القدم.

لا بُد أن الأستاذ الجالس قبالتك الذي كان ينظر إلى يمينه عبر زجاج النافذة، رأى إشارةً تُعلن شيئاً ما؛ إنه ينهض، يرتدي معطفه، يضع محفظته تحت ذراعه، والرجل الإنجليزي هو أيضاً يرتدي ملابسه، يأخذ حقيبة سفره، يخرج، تكاد تُقسم أنه وكيل نبيذ في لندن، وأنه يأتي هنا ليتداول بشأن المحصول الجديد.

تتضاعف السكك والأسلاك؛ نلحظ البيوت الأولى لمدينة ديجون.

فيك رغبة بمدّ ساقيك. الرواية التي اشتريتها من على رصيف «محطة ليون» والتي لم تفتحها بعد ما تزال على المصطبة إلى يسار المقعد الذي كنت جالساً عليه؛ تدفعها لتحجز بها المقعد.

-4-

ما زلتَ ترتعد من الرطوبة الباردة التي تملكتك حينما خرجت من العربة التي عُلقَت عليها في الخارج، أسفل نافذة الممر تماماً، وقد تحققت من هذا، لافتة معدنية خُطَ عليها «ديجون»، «مودان»، «تورينو»، «جنوة»، «روما»، «نابولي»، «ميسين»، و»سيراكوس» حيث ربما يذهب العروسان الشابان في رحلة عرسهما، اللذان أنزلا زجاج النافذة قبالتك، ينحنيان ليشاهدا السكك الحديدية وقطاراً آخر يُغادر ببطء من بَعيد تحت المطر الذي يصبح شيئاً فشيئاً مدراراً.

يرفع رأسه؛ قطرات ماء تتلألأ على شعره الجاف بلون خشب المنضدة في غرفة الطعام، في خمسة عشر ساحة البانتيون؛ تُحرك خصلات شعرها، وهي تمرر أصابعها على شمسه التشرينية مثل سيسيل، وهي تمرر أصابعها على التواءات شعرها الفاحم حينما تُعيد ضَفْرَ ضفائرها، كما كانت تفعل هنرييت قبل سنوات مضت، عندما كانت لا تزال شابة.

أخرج الكاهن كتاب صلواته مرة أخرى من غلافه المُهمَل على الأريكة، كما لو أنه رماه، ليس بعيداً عن الرواية التي كنت قد تركتها لتحجز بها مكانك والتي التقطتها لتضعها على الرف بعد أن تصفحتها بإبهامك، دون أن تقرأ أي كلمة منها، كما كنت تتصفح الكتيبات السينماتوغرافية الصغيرة، عندما كنت في المدرسة، هنا ليس لتشاهد الصور تتحرك فقط، بل لتسمع بأذنك فقط، وسط جلبة القطار والمحطة، الصوت الذي يحدثه، أشبه بصوت المطر.

ما يزال مسترخياً في ثوبه الأسود ذي الطيات الثابتة كطيات تمثال حجري، حائداً بوجهه عن مشهد المطر للسكك الحديدية وأسلاك القطار الكهربائية، ربما يعرفه عن كثب، يحمل الضيق إلى نفسه، سبابته الغليظة غائرة داخل الصفحات الموسومة بالشريط الأحمر، التي يجب أن يطويها، ويتلاقى نظره لحظةً بنظرك بينما أنت تتأهب للجلوس، لكن ليس أنت الذي كان يتأمله، بل هذا الرجل قبالتك، في المقعد الذي كان يحل فيه الأستاذ الذي

نزل تواً، الذي دخل إلى هنا فيما كنتَ على الرصيف تتأمل اللافتات، والذي لم يخلع بعد معطفه الرمادي الفاتح المبتل قليلاً إلى حد ما، إنه إيطالي بالتأكيد ليس لأنه أخرج فوراً من جيبه «لاستامبا» (La Stampa) فحسب، بل خاصة لأن حذاءه ذا الحافة المدببة، على نهر معدن التدفئة ذي الموجات التي تتخذ أشكالاً معينية، أبيض وأسود.

أغلق الزوجان الشابان زجاج النافذة، وجلسا ثانية.

تدخل امرأة مُضطَرِبة، ملفعة بالسواد، قصيرة القامة إلى حد ما، ذات وجه ملأته التجاعيد مبكراً، تعتمر قبعة مزينة بقماش من التول وبمشابك كبيرة ذات نهايات كروية، تدخل وهي تُمسك بإحدى يديها حقيبة سفر من القش وقُفَّةً، وباليد الأخرى صبياً يبلغ عمره عشر سنوات يحمل هو أيضاً سلة مغطاة بوشاح أحمر قانٍ، وحينما جلسا، هما الاثنان، بينك وبين الكاهن، تنفست هي الصُعَداء.

يتناهى إلى سمعك الصوت المشوه بفعل مكبرات الصوت الذي يُنهي بـ«شمبيري، مودان، وايطاليا، إلى عربات القطار رجاءً؛ انتبهوا للمغادرة»، الاصطفاق المخنوق لباب أخير أُغلق: القطار يُغادر.

على جلد حذائه الأبيض، ثمة بقع طينية دائرية، شديدة الوضوح؛ لا بد أنه الزوج الوحيد الذي أخذه معه حينما غادر ايطاليا،الأحد الماضي في يوم صحو.

يظهر نادل عربة المطعم، بقبعته وسترته البيضاء، فيقترح بطاقات زرقاء لحجز مقاعد لوجبة الغداء الأولى في الساعة الثانية عشرة، وهذا ما اختاره العريسان، وبطاقات وردية اللون لوجبة الغداء الثانية، بعد الساعة الواحدة بقليل، هذا ما تفضله أنت مثل الشخص الإيطالي، الذي يبدو في سنك على وجه التقريب، إنه ربما وكيل في بلده لشركة ديجونيه[1] ينسق استيراد الخردل أو «كلو فوجو»[2] هناك.

الوشاح الأزرق الذي يحيط بعنقه هو تماماً بلون الكوبلت الأزرق لحقيبة سفره التي حلت على الشبكة بدلاً من المحفظة الحمراء الغامقة الملطخة بالحبر حيث كان أستاذ

1- نسبة إلى مدينة ديجون(Dijon) في فرنسا التي تشتهر بجودة الخردل.
2- نبيذ معروف بجودته ويسمى باسم منطقة انتاجه «فوجو» (Clos-Vougeot).

القانون يسحب الكتب المجلدة بقماش أسود خشن، لا بد أنه كان قد استعارها من مكتبة الكلية التي يعمل فيها.

ما الأدوات التي يحملها، هو، لزينته؟ ماكنة حلاقة كهربائية دون شك، هذا ما لم يكن بمقدورك أن تعتاده، إلى جانب هذا بيجاما في الأقل، وبضع قمصان أنيقة لا يمكن اتقانها إلا في إيطاليا، وخُف من الجلد في غلاف حريري حيث لا نرى مثيلاً له إلا في واجهات المحلات في الكورسو، ومن ثم الملفات بالطبع، والأوراق، والصفحات مختلفة الألوان المكتوبة بالآلة الكاتبة، والمشاريع، والكشوفات، والرسائل، والقوائم.

السيدة التي ترتدي السواد، بالقرب من الكاهن، ستنزل دون شك في محطة قريبة (إنهما يشكلان ثنائياً معتماً مقابل ثنائي العريسين الشابين المُضيء)، ترفع الوشاح الذي يغطي السلة المرصوصة بينها وبين الصغير الذي بدأ صبره ينفد إلى يسارك (إنه يُشبه توما قبل بضع سنين) وأخذ يصفق ساقيه المتدليتين الواحدة بالأخرى.

تمر محطة جفري– شمبيرتن. في الممر، تلحظ سترة النادل البيضاء الذي يخرج من إحدى المقصورات، ويدخل الأخرى، وفي الجانب الآخر، من خلال زجاج النافذة التي تغطيها مرة أخرى قطرات مطر كبيرة تسيل ببطء، مترددة، على نحو حزمة من الخطوط المائلة غير المنتظمة مصحوبة بارتعاشات واجتذابات، هناك شبح شاحنة حليب ينأى وسط هذه البقع الصعبة التمييز، الأكثر عتمةً في الخلفية ذات اللون البني المشوش.

حينما ستخرج سيسيل من قصر فارنيز، الإثنين مساءً، ستجول ناظريها بحثاً عنك، ستجدك بالقرب من إحدى النافورات التي اتخذت شكل مغطس، مُرهفاً السمع لصوت الماء الجاري فيما تنظر إليها وهي تدنو في الليل، تجتاز الساحة شبه الخالية، لن يكون هناك أي بائع على الكامبو دي فيوري (Campo dei Fiori)، ولن تجد أضواء المدينة الكبيرة وفوضاها، بجلبة الترامواي واللافتات المُضاءة بالنيون إلا حينما ستصل إلى شارع فتوريو إيمانويل(Vittorio Emmanuele)؛ لكن بما أنه ستبقى ساعة قبل وجبة الطعام، فمن المرجح أنكما لن تسلكا خط السير المعتاد هذا قط، بل بخلاف ذلك، ستسيران طويلاً، ببطء، على نحو متعرج في الشوارع المظلمة الضيقة، يدك تحيط بخصرها أو بكتفها، كما

سيسير فيها العريسان الشابان إذا كانت روما هي محطتهما الأخيرة، أو كما سيتنزهان في سيراكوز إذا كانا ذاهبين حتى هناك، كما يفعل كل مساء العرسان الرومانيون الجُدد، غارقين في جمع العاشقين المنتشر هذا كما في حمام لاستعادة الشباب، وستذهبان لتسيرا بمحاذاة نهر التبر، متكآن من وقت لآخر على حواجزه لتنظرا إلى الانعكاسات ترتجف على الماء المنخفض الأدكن، بينما ستتعالى، من الزوارق التي يرقص عليها أناس، الموسيقى الرديئة التي يداعبها النسيم المُنعش، حتى جسر سانت انجيلو حيث التماثيل المُعَذَبة بِنَقاء، الناصعة البياض في وضح النهار، لن تبدو لكما إلا بمثابة بقع حبر صلدة غريبة، ثم، ستصلان مرة أخرى عبر شوارع أخرى مظلمة، إلى العمود الفقري لحبيبتك روما، إلى «بيازا ناڤونا» (Piazza Navona) حيث ستكون نافورة بيرنان (Bernin) متلألئة، وستجلسان فيها، حيث الجو شديد البرودة في مثل تلك الساعة، أو على رصيف المقهى حيث ستكون الموائد في الأقل قد أدخِلَت في أغلب الاحتمالات، أقرب ما يمكن من نافذة في مطعم «تري سكاليني» لتطلبَ أفضل «اورڤيتو» وتحكي لسيسيل بأدق التفاصيل ما ستكون قد فعلته أثناء ما بعد الظهر، لتكون أولاً متيقنةً من أنك أتيت من أجلها هي فحسب، حتى في هذه الظهيرة حيث ستكونان منفصلين طوال الوقت، بأنك لم تُفد من رحلة كانت قد فرضتها عليك شركة سكابيلي، ذلك أن من الضروري جداً من أجل هذه الحياة الجديدة التي ستبدأ بينكما أنتما الاثنين بحيث لا يكون الكذب أساساً لها فقط بل حتى الشك بكذبة ما، وليكون بوسعك أيضاً الحديث معها آخر مرة عن روما، في روما.

وما أن اتُخِذَ القرار، الآن سترحل، وحُدِدَت التواريخ بالفعل، واتُخِذَت الخطوات اللازمة، أي الإثنين مساءً، على أي حال عقب بضعة أسابيع بأقصى حد، أي أثناء رحلتك القادمة إلى روما التي من المرجح أن تكون الأخيرة التي سترى فيها سيسيل، سيكون الأمر بالنسبة إليك كما لو أنها قد تركتها تقريباً، ذلك أنها ستشرع بزيارة ما تعرفه في هذه المدينة من أجل أن ترسخه بثبات في ذاكرتها، دون أن تحاول تعميقه.

من الآن فصاعداً، ستكون أنت، من بين الإثنين رومانياً، وما ترغبه، هو أن تفيدك هي، أقصى ما يمكن، بمعرفتها قبل أن ترحل، قبل أن تتلاشى هذه المعرفة في حياتها الباريسية، إذ

إنها، فضلاً عن ذلك، تستخدم أيام إقامتها الأخيرة، هذا التأخير، (إذا اقتضى الأمر لتأخذ إجازة بضعة أيام بعدما تكون قد تركت السفارة) لتتعرف ما تحبه أنت وما لم تره هي حتى الآن، وفي البدء لما هناك من أشياء ممتعة برغم كل شيء في متحف الفاتيكان هذا إذ لم تكن تود الدخول حتى الآن ليس بسبب نفورها العام من الكنيسة الكاثوليكية فحسب (فليس هذا بسبب كاف)، بل لأن هذه المدينة كانت تمثل لها منذ لقائكما، مع شيء من الحق، مهما كانت اعتراضاتك صادقة بشأن حرية الفكر، تمثل كل ما كان يحول دون انفصالك عن هنرييت، ويمنعك من بدء حياتك من جديد، من تخلصك من هذا الرجل الهرم الذي كنتَ تؤول اليه.

الآن، من خلال قرارك، ورحلتك من أجلها هي فحسب، ستكون قد بَينتَ لها جيداً أنك بَترتَ هذا النوع من القيود، وبالنتيجة لا ينبغي أن تمثل لها هذه الصور وهذه التماثيل بعد عقبة ينبغي تخطيها لتحظى بك، حاجزاً يجب تدميره كي تتحرر أنت، بحيث إنها ستتمكن، بل يجب عليها أن تراها الآن برغم كل الانزعاج الذي ستسببه بالتأكيد، المدينة، وحراسها، وزوارها، كي تترسخ هذه الوحدة الرومانية، وهذا التوحد مع المكان، وهذه الأرض التي ترعرع حبك فيها، هذا الحب الذي سيسمو ويزدهر في مكان آخر، في مدينة باريس هذه التي تعدانها أنتما الاثنان كأنها وطنكما الثابت.

في الجانب الآخر من الممر، من خلال زجاج النافذة المُغطى بشبكة نسجتها قطرات المطر، تكتشف أن بريق الألمنيوم الذي يدنو، يلاقيك ثم يختفي، هو شاحنة نفط. ثمة رجة أكثر قوة تجعل زر كُمٍ يصطدم بعمود معدني فيصدر رنيناً. فيما وراء النافذة الغارقة، تدور مثلثات سقوف وبرجٍ كنيسة دكناء، وسط المشهد الشبيه بانعكاسات في بركة ماء.

حينما تركت مطعم «تري سكاليني» حيث كنتَ قد تناولت وجبة الغداء مع سيسيل، كان الجو رائعاً؛ ولولا برودة الهواء لخُيِلَ لنا أننا لا نزال في شهر آب: كانت نافورة الأنهار تجري وسط الشمس.

كانت تشكو من هذا التخلي الذي ستتركها فيه، من أنها ستمضي وحيدةً عصر يوم الأحد هذا، وكنتَ تحاول تهدئتها وأنت تشرح لها لأي أسباب كان حضورك ضرورياً

صباح اليوم التالي في مكتبك في باريس، وبأنك، لم يكن بوسعك إرسال برقية لتُعلِم أنك لن تكون هناك إلا بعد اليوم التالي، بأنه من غير المُجدي محاولة تأخيرك، لتُرغمَك هكذا على انتظار قطار الساعة العاشرة والنصف الذي ستأخذه لتعود الإثنين القادم.

«وأنا التي سأترك كل شيء لأرحل معكَ إلى باريس، من أجل أن أراك كل يوم، ولو خمس دقائق، ولو في السر. آه، أنا أعرف جيداً، بأنني لست إلا صديقتك الرومانية، وإنني لمجنونة في الاستمرار بحبك، في الصفح عنك هكذا، في تصديقك حين تخبرني أنني فقط التي أضحيتُ أهمك برغم كل البراهين التي تثبت لِي نقيض ذلك».

ولهذا أكدتَ لها أنك تفعل كل ما بوسعك لتجد لها عملاً، وأنه حالما تسنح الفرصة، ستصطحبها معك، وستنفصل عن هنرييت، دون ضجة، وستعيشان معاً والحالة هذه، إن كُنتَ الآن قد قررت فعلاً، إن كنتَ قد سألت فعلاً عما حولك وحصلت على هذا العرض الذي كنتَ تسعى اليه، إن كان كل ماقلته لها قد أضحى حقيقة، فأنك في تلك الأثناء لم تكن قد اتخذت بعد أي خطوة حيال ذلك، كان كل هذا باقياً في حالة مشروع غير دقيق وكنت تؤجل تنفيذه من أسبوع إلى أسبوع، من رحلة إلى رحلة.

هذا ما كانت تُدركه جيداً وهي تَنظرُ إليك بهذه الإبتسامة الحزينة التي كنتَ تجدها جد ظالمة، ولهذا السبب لَزِمَتْ الصَمت، اكتفَتْ بالسير نحو موقف سيارات الأجرة قبالة «سانت اندريا ديلا ڤيلا» لأن الوقتَ كان يَتقدم، وكان يجب عليكَ الذهاب لأخذ حقيبتك في «البيركو كيرينال».

في «ستازيوني ترميني»، بعد أن صَعدتَ السُلَمْ الصغير الجديد، في عربة من الدرجة الأولى لتحجزَ فيها مقعداً في الزاوية المُطلة على الممر باتجاه السير بالصحف والرواية البوليسية الإيطالية التي كنتَ قد اشتريتها حالاً في البهو الواسع الشفاف، حينما كانت الساعة تشير إلى الثالثة عشرة والنصف، لتضع محفظتك وحقيبتك على الشبكة التي تعلو المكان، نزلت إلى الرصيف لتُقَبل سيسيل التي طلبت إليك مرةً أخرى، كي تحاول أن تغير جوابك (لقد تغير الجواب بالفعل، لكن في تلك الأثناء لم تكن تعرف هذا، لم يكن بوسعك بعد مواساتها، وإرضاءها):

– «متى تعود إذن؟»

وَكَرَّرتَ عليها ما كانت تعرفه مُسبقاً، ما كنتَ قد أخبرتها به عشرين مرة أثناء هذه الإقامة: «للأسف، ليس قبل الأيام الأخيرة من كانون الأول».

ما أضحى غير صحيح الآن؛ والحالة هذه، تَخَلصَتْ على حين غرة من كل كآبتها كما لو أنها كانت تستشعر ما كان سيحدث، ما يحدث الآن، وشرعت تضحك، وقالت لك بصوتٍ عالٍ بينما كانت الماكنة ترتج:

– «هيا، رحلة سعيدة، لا تنسني».

ورأيتها تتضاءل مع المسافة.

ثم جَلستَ في مقصورتكَ قبالة صورة ملونة تمثل واحداً من تفاصيل لـ«سكستين»(Sixtine)، أحد المُعذَبين يحاول أن يُخفي عينيه، أعلى المقعد الذي ظل خالياً حتى باريس، واستغرقتَ في قراءة رسائل جوليان لابوستا.

كانت الشمس تُنهي غروبها حينما وَصَلتَ إلى بيزا؛ والسماء تمطر في جنوة عندما تناولتَ عشاءك في قاطرة المطعم، وكنتَ ترى عدد قطرات الماء يزداد في الجانب الآخر من النافذة؛ اجتزتَ الحدود زهاء الواحدة صباحاً، ثم أُطفىء الضوء ونمت راغداً لتستيقظ في قرابة الخامسة صباحاً؛ وأنت تزيح الستارةَ الزرقاء قليلاً على يَمينك، رأيتَ أضواء محطة، كاسرةً عتمة الليل التامة، وتمكنت أن تقرأ اسمها حينما كان القطار يخفف من سرعته: تورنوس.

فيما وراء النافذة التي لا تزال مشوشة بالمطر، تدور ربع دورة إشارة ذات مربعات مُنسَقة مثل لوحة لعبة الضامة، كأنها ضربة مفاجئة أقوى قليلاً مضافة إلى سلسلة الأبراج الكهربائية المنتظمة. اهتزازة أعنف قليلاً تجعل غطاء المنفضة تحت يدك اليمنى ينتفض. في الجانب الآخر من الممر، فيما وراء زجاج النافذة المحززة بمجموعة أنهار قصيرة أشبه بمسارات ذات جزيئات متذبذبة في غرفة ولسن[1]، شاحنة مغطاة تنثر ماءً تمر بين برك الشارع الصفراء.

هذه المرة، لن تكون محتاجاً للعودة إلى البير وكيرينال، أو الإسراع بعد وجبة الطعام إذ

1- جارلس ولسون(Wilson Charles)، (1869–1959)، فيزيائي اسكتلندي، اكتشف أن الجزيئات المكهربة تشكل مراكز تكثيف لبخار الماء الذي يخضع إلى تمدد فجائي تحت شروط معينة، وقد أعد غرفة للتمدد (غرفة ولسون، 1911)، تتيح رؤية مسارات الجزيئات المتأينة. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1927.

ستعود لتمضي السهرة في خمس وستين شارع مونت ديلا فارينا، في هذه الغرفة التي ستغادرها سيسيل قريباً وعليه فلن تراها إلا مرة واحدة أو مرتين.

سيكون موضوع حديثكما تدبير حياتكما المستقبلية، كيف سيكون بوسعها الاستقرار في باريس، وهذا أمر يُحسَم على نحو تام، ولذا فأنت تفضل ألا تحدثها بهذا الشأن إلا في هذه اللحظة الأخيرة، لكن بوسعك أن تعرض عليها مسبقاً عدداً معيناً من الإمكانات: إذ يمكن أن تعرض عليها حالياً، مؤقتاً إذا اقتضى الأمر، غرفة الخدم هذه في ثلاثة عشر ساحة البانتيون، على الرغم من هذا القرب المزعج على نحو مرعب، أو الفندق، وهو أبعد ما يكون عما تطمحان اليه أنتما الاثنان، لكن بوسعنا التفكير به في الأسابيع الأولى، ثم، بدءاً من كانون الثاني، هناك شقة آل مارتيل الذين يُفتَرَض أن يذهبوا لمدة سنة في رحلة إلى الولايات المتحدة ولا بد أن يوافقوا بالتأكيد على استضافتنا خلال تلك المدة، لكن ينبغي أخذ بعض الاحتياطات معهم، ألا تُطلِعَهم على السر إلا جزئياً، إذ إنك، على الرغم من تأييدهم الودي الرسمي، لا تعرف رأيهم الصريح بهذا، وفي نهاية المطاف، في شهر شباط فحسب، هناك سكن ديمو الذي ينبغي أن يستقر في مارسيليا، سكن ما هو بواسع، أو مريح، موقعه سيىء، لكن بغياب الإمكانات الأخرى بوسعك أن ترتبه على نحو ملائم.

هي ذي الحالة ستخبرها بذلك، وأنت تجابه من جديد مشاكل الأزواج الشبان، لكن من المحتمل أن تأتي اقتراحات أخرى خلال الأيام القادمة، ستتتبع إعلانات الصحف باهتمام، وإن كان ثمة ما يلائم، ستحجزه فوراً، وستبدأ حتى أعمال الطلاء ليكون كل شيء جاهزاً حين وصولها.

مستلقيان أنتما الإثنان على سريرها، أسفل صور للمسلة وقوس النصر، سيداعب أحدكما الآخر وأنتما تتحدثان، على رغم هذا الريب، عن الأثاث اللازم، وأدوات المطبخ، مع فترات صمت عديدة بين الجمل، بين الكلمات، وقريباً، مبكراً جداً، سيحين موعد تسديد إيجار هذه الغرفة المجاورة التي ما نمت فيها، وستكون قد أزحت أغطية فراشها في الصباحين المتتاليين فقط، ثم تسير باتجاه المحطة، ليس مشياً على الأقدام، بسبب حقيبة سفرك، على الرغم من أنك أردتها خفيفة لأقصى حد، بل في سيارة أجرة ستعين عليك

أن تنتظرها دون شك وقتاً طويلاً إلى حد ما قبالة سانت اندريا ديلا أو في لارجو أرجنتينا، ذلك أنها تصبح نادرة المرور قرابة الساعة الحادية عشرة.

في المحطة المتلألئة، بعد صعودك إلى عربة من الدرجة الثالثة حيث ستكون اللافتة: «بيرزا، جنوة، تورينو، مودان، باريجي»، لتحاول أن تجد فيها، وتحجز مقعداً نظيراً لهذا الذي أنت فيه الآن، في زاوية من جانب الممر باتجاه سير القطار، ستنزل ثانيةً على الرصيف لتلقى سيسيل التي ربما ستقول لك من جديد:

« متى ستعود، إذن؟»

لكن هذا سيكون بنبرة اخرى تماماً، وبقصد آخر تماماً، وسيكون بوسعك أن تُجيبها، في هذه الليلة حيث الفراق نفسه لن ينجح في أن يحول دون السعادة، بكلمات الأحد الماضي نفسها في بداية العصر:

«للأسف، ليس قبل الأيام الأخيرة من كانون الأول»، لكنك ستنطقها على نحو آخر تماماً، وأنت تسخر منها في نفسك، واثق من سعادتكما المقبلة، من لقائكما الحاسم، تنطقها بعيداً عن الضيق والضجر.

حتى الدقيقة الأخيرة ستبقى لِتُقبلها، ففي هذه المرة، في هذه الساعة المتأخرة، عند رحيل هذا القطار غير المريح، لا تخشى البتة أن يتعرف اليك عضو بارز في شركة سكابيلي، شاءت مصادفة عجيبة أن يكون على قاب قوسين منك؛ لن ترتقي عتبات السلم إلا عند سماع الصفارة، ومن نافذة ستكون قد أخفضت زجاجها، ستنظر إلى سيسيل تعدو، تلوّح لك حتى تخور قواها، لاهثةً، محمرة من الجهد والانفعال، متضائلة مع المسافة، بينما سيغادر القطار المحطة، قبل أن تستقر في هذه الليلة المُتعِبة من دون أن تستغرق بعد في قراءتك إذ سيكون ذهنك مُفعماً بها إلى حد أن عينيها وشفتيها هي التي ستبتسم على وجوه جميع رفاقك في السفر، وعلى وجوه كل هؤلاء الذين سيكونون بانتظار قطارات أُخرعلى أرصفة محطات الضواحي، روما تسكولانا، روما أوستينسي، وروما تراستفيري.

ثم سيطلب شخص ما إطفاء الضوء.

من خلال زجاج النافذة الأقل غشاوةً بفعل قطرات المطر التي بدأ ت تهدأ، تلمح سيارةً سوداء شبيهة بسيارتك، سيارة بقوة خمسة عشر حصاناً مُلطخة بالطين، مزودة بماسحات زجاج متحركة، ستبتعد بعد قليل عن السكة الحديدية وتتوارى خلف مستودع حصاد، بين حقول الكروم في الجانب الآخر من الممر حيث يتقدم الآن نادل عربة المطعم ملوّحاً بجرسه. تمر محطة فونتين مركوري.

رفع الزوجان الشابان رأسيهما، لكن هو، الذي لا بد أنه معتاد على السفر أكثر منها، يؤكد أنهما يمتلكان الكثير من الوقت، وأن بوسعهما الإنتظار حتى عودة الرنين مرة أخرى.

تنظر إلى ساعتك اليدوية: إنها الحادية عشرة وثلاث وخمسون دقيقة، أي هناك أربع دقائق قبل الوصول إلى «شالون»، وأكثر من ساعة قبل وجبة طعامك.

الطفل الصغير إلى يسارك يقضم لوح شوكولاته تأخذ بالذوبان فتلطخ أصابعه، إلى حد أن المرأة الملفعة بالسواد التي ستشبهها هنرييت، بأناقة أكثر بقليل هذا كل ما في الأمر، بعد بضع سنوات، ترتدي لوناً رمادياً أقل عتمةً، وأقل دكنةً، من هذا السواد، تُخرج من جيبها منديلاً وتمسح يده الصغيرة وهي تستجوبه، ثم تُخرج من السلة علبة بسكويت مُغَلَفة بورق فضي تفضه، وتُناول واحدةً لهذا الطفل الذي ربما يكون ولدها، أو حفيدها، أو ابن أخ، أو شيئاً آخر، فيُسقِطُ جُزءاً منها على الأرضية المُسَخَنة والمُهتزَة.

يرفع الكاهن ناظريه عن كتاب صلواته، يَقمعُ تثاؤباً، يضع يده اليسرى على المسند، ضارباً بإصبع على الشريط المعدني حيث خُطَ: «من الخطر الانحناء إلى الخارج»، ثم يحَكَ منكبيه بمسند المقعد، يغور وينتصب من جديد، يستأنف قراءته عند أولى بيوت «شالون».

يدخل إلى المقصورة هذا الذي كان قد أخذ مكانك قبل هنيهة، يرتدي واقي المطر الأسود، متأرجحاً بين المصطبتين كرجل ثمل؛ يفقد توازنه ثم لا يكاد يستعيده بإمساكه بكتفك.

الآن، يهيمن السكون والصمت، تتخلله بعض الأصوات، شيء من الصرير، والاحتكاكات، قطرات الماء على زجاج النوافذ لم تعد ترتجف، لم تعد تتجدد.

يُنزل الوكيل التجاري المُسافر حقيبة سفره الكارتونية، القوية الأركان، المائلة إلى الحُمرة، تقليد رديء للجلد، من على الشبكة دون عناء، لا بد أن في داخلها نماذج من: فرش؟ معلبات، مواد صيانة؟

إن مسار رحلة أعمالهم أقصر، عموماً: إذ يرحلون من مدينة إلى مدينة بمراحل قصيرة ويكون ملتقاهم قريباً من المنطقة التي يبحثون فيها. لا يضطر أحد من وكلائك في المقاطعات للقيام بتنقلات بهذه الأهمية لشركة سكابيلي؛ لا ينبغي عليهم البتة المجيء إلى باريس من أجل مهنتهم، فمراقبوك هم الذين يذهبون لرؤيتهم، وهذا الشخص هو بالتأكيد ليس مُراقباً لأي شركة ما. لعل الأمر يتعلق بواحدة من هذه المكاتب غير المنظَمة التي تُوزع كيفما اتفق بضاعة ذات نوعية رديئة في أغلب الأحيان، إلا إذا كان ذاهباً في إجازة (أي فصل اختارَ لهذا)، أو لرؤية أسرته، أو لرؤية امرأة، من أي نوع من النساء، في أي شارع قذر، في أي فندق مؤثَث؟

أما هذه الرزمة المغَلَفة بجريدة، فربما تكون بعض المؤونة، بعض بقايا حلويات يوم أمس، فلا يمكن أن تبقى بين يديه طوال النهار ويأخذها معه إلى زبائنه، أو أن يودعها في صناديق أمانات المحطة، إذ لا يمكن قبولها؛ لكن لماذا لا تُقبَل وربما له أصدقاء هنا، ربما يسكن هنا مع زوجته وأطفاله (نعم، فهو مثلك يحمل خاتم زواج، مثل العريس الشاب الذي يخفيه عن ناظريك، مثل الإيطالي الذي يجلس قبالتك)، زوجته التي يعتقد أنه يخونها بفطنة لكنها لا تجهل شيئاً في الواقع عما يجذبه إلى باريس، وتتركه يكذب في أغلب الأحيان دون أن تعارضه، لتجنب المشاكل، لكنها تتفجر غِضباً بين الحين والآخر.

عند الباب، يظهر رجل آخر من النوع نفسه، أكبر سناً بقليل، أكثر احمراراً، أكثر ضخامةً، مع حقيبة مشابهة، يقول له بصوت عالٍ إنه آت، هذا الذي كان قد التقاه بالتأكيد في مقصورة مجاورة وجلس بالقرب منه، تاركاً لك مقعدك الأثير.

الولد الصغير بجانبك يقضم بشدة قطعة خبز مقسومة في وسطها، تبرز منها شطيرة من لحم الخنزير.

يدخل شاب عسكري مضطرب، بمعطفه المبلل بلون العلف، يرفع هذه العلبة الخشبية المطلية التي هي بمثابة أمتعة تخصه، يجلس بالقرب من الإيطالي.

تتناهى إلى أسماعنا الصفارة التي تدور؛ نرى الأعمدة الكهربائية، ومصاطب المحطة التي تتنقل؛ ثم تستأنف الضوضاء، والاهتزازات فعلهما. اجتزنا المحطة. ثمة سيارات تنتظر في مكان تقاطع الطرق وسكة الحديد. إنها آخر منازل مدينة «شالون».

يبدأ موكب أناس دون معاطف يذهبون نحو غرفة الطعام المتحركة، وبطاقاتهم الزرقاء في أيديهم، بينما يعود الجرس الصغير.

تنهض الزوجة الشابة أولاً، تحجز مكانها بدليل إيطاليا الأزرق، ترتب شعرها أمام المرآة، وحينما تنتهي تخرج مع زوجها.

تناولت الأرملة قطعةً من جبنة الغروبير من السلة، وقطعتها إلى شرائح رفيعة؛ يغلق الكاهن كتاب صلواته، ويدسه في غلافه.

تمر محطة «ڤارين لوكران». تلحظ في الممر ظهور النادل ذي السترة البيضاء والكاسكيتة. وراء النافذة التي أخذت تتشوش من جديد بفعل المطر، ثمة تلاميذ يهربون من المدرسة.

وثمة شخصان آخران في المقصورة، رجل وامرأة، يغفوان فاغري فَمَيْهما، بينما كان المصباح الأزرق يسهر في السقف، داخل الكرة الضوئية، ؛ نَهضتَ، فتحت الباب، ذهبت إلى الممر لتدخن سيجارة ايطالية. كان كل شيء دامساً في الريف منذ «تورنوس»، نوافذ العربة تُلقي على المنحدر مستطيلات من النور حيث تنساب الحشائش.

كنت قد حلمت بسيسيل، لكن ليس على نحو ممتع البتة؛ فوجهها المرتاب والمؤنِب هو الذي أتاك في غفوتك ليُعذبك، الوجه الذي قد لبسته ساعة وداعكما على رصيف «ستازيوني ترميني».

ولكن، إن كانت بك حاجة للابتعاد عن هنرييت إلى هذا الحد، ألم يكن هذا، قبل كل شيء، بسبب سيماء الاتهام الدائمة التي كانت تشوب أدنى كلماتها وحركاتها؟ هل ستذهب إذن لتلقاه ثانيةً من الآن فصاعداً في روما ؟ ألم تعد لك ثمة سكينة هنا، ألم يعد بوسعك أن تذهب إليها لتغوص في صراحة حب رائق وجديد ولتجدد فيها شبابك ؟

أهي الشيخوخة التي أخذت من الآن تستولي على هذا الجزء من ذاتك الذي كنت تظن أنه مُحصَن؟ هل أصبحتَ الآن إذن مقذوفاً بين هذين التأنيبين، هذين الحقدين، هذين الاتهامين بالجبن، هل ستترك هذا الصدع الذي سيُفسد ويفتت كلياً صرح الخلاص هذا الذي كنت تراه، خلال هاتين السنتين، يعلو، ويرسخ، ويزداد جمالاً في كل رحلة يكبر؟ هل ستتركه يتأصل ويزداد على هذا الوجه أيضاً؟ حَزازُ الريبة هذا الذي كان يجعلك تمقت الآخر، تتركه يزداد فقط لأنك لم تكن تجرؤ على اجتثاثه بضربة عنيفة ومحَرِرة؟

بالتأكيد، هذا الملتهِم المخادع الذي كان يغطي قسمات وجه هنرييت بقناع رهيب متصلّب حول فمها إلى حد أنه يجعله شبه أخرس (كل كلمة كانت تتفوه بها كانت تبدو كأنها تأتي من الجانب الآخر من جدارٍ كان يزداد ثخناً يوماً إثر يوم، من الجانب الآخر لصحراء تزداد شراسةً يوماً بعد يوم، لأدغال شائكة طوراً فطوراً)، إلى حد أنه يجعل هاتين الشفتين اللتين لا تعودان تتقبلان قُبلاتك إلا بحكم العادة، باردتين وصلبتين كأنهما من الغرانيت، يَتَصَلَّب حول عينيها، ويُغَلِّفها ببودقة مُشَوِهة، إن كنت متردداً إلى هذا الحد من إزاحته، كان هذا خشيةً من هذا اللحم الحي الذي كنت ستكتشفه، مثل الجرّاح حينما يشق بمشرطه، من كل هذا العذاب القديم الذي سينفجر على حين غرة.

لكن هذا الجرح العميق الشنيع المتقيح، لن يلتئم إلا بعد تنظيف كهذا، وإذا استمررت في الإنتظار، قد يمد الفساد جذوره على نحو أعمق بعد، وتضيق العدوى الخناق حولك على نحو أكثر، ويُعاني وجه سيسيل نفسه، برمته من هذا الجَرَبْ...

إذ كان اللوم قد أثقل عليه بظله المتوعد، وحان الوقت تماماً للاختيار بين هاتين المرأتين، أو على نحو أدق، كان الاختيار أمراً لا ريبة فيه، أن تستخلص نتائج هذا الاختيار، وتعلنه، وتنشره، وسحقاً لمعاناة هنرييت، سحقاً لمعاناة الأولاد إذا كان هذا هو الطريق الوحيد لشفائها، لشفائهم، لشفائك، والوسيلة الوحيدة للحفاظ على صحة سيسيل؛ ولكن كم كان صعباً اتخاذ هذا القرار، كم كانت السكين ترتجف في يدك!

آه، كُنتَ ستؤجل الأمور أسبوعاً آخر بعد، لرحلة أخرى، لو لم تحدث في باريس كل هذه المنغصات، كل هذا التفه الغامض الذي يكتسحك؛ لكنتَ قد حاولت المراوغة،

جبان كما كانت تظن هنرييت، كما بدأت تظن سيسيل أيضاً، كما لن تظنه بعد الآن، إذ أنك أخيراً اتخذته، هذا القرار؛ لكنت قد استمررت هكذا بتأخير قدوم سعادتك الخاصة، على الرغم من هذا الصوت الذي كان يلاحقك، على الرغم من هذه الشكوى التي كانت تُرهقك، نداء الاستغاثة هذا، على الرغم من هذا الوجه الذي كان قد أقض مضجعك في حلمك والذي كان يرتسم الآن على التلة بأعشابها الهاربة التي تضيئها في هيئة مستطيلات نوافذ العربة، الوجه الذي كنت تحاول ألا تفكر فيه بعد على الرغم من صفارة القلق الموجعة التي كانت قد شرعت بالعويل داخل قلبك والتي كنتَ تحاول إسكاتها.

التمستَ عوناً في ضحكتها الأخيرة على الرصيف، لكن عبثاً، فقد كنتَ تسمعها تتجدد، أكثر مرارةً، في رحلتك القادمة، رحلة كانون الأول، لتستحيل إلى سخرية في لحظات الوداع التالية.

ولكي تُبعد هذه الضحكة، وتجعلها تتلاشى، وتخنقها على مدى مسافات، كنت تسبر غور الليل المعتم حيث كانت تجري كتلٌ أوفر عتمةً بعد، أشجار وبيوت، مثل قطعان كبيرة ملامسةً الأرض، مُرَكِزاً انتباهك على المحطات حيث كانت تتابع بأنوارها، بلافتاتها وساعاتها: سنيس، ڤارين لو كران، أرصفة شالون الطويلة الخالية حيث لا يتوقف القطار، فونتين–مركوري، رولي؛ و دلفت من بعد، متعباً، آملاً أن يستولي عليك النعاس من جديد، إلى مقصورتك في الدرجة الأولى، وأغلقت الباب ثانيةً؛ وأنت تزيح قليلاً الستارة الزرقاء التي كانت تحجب زجاج النافذة إلى يمينك، رأيت قناديل محطة ما، وإذ كان القطار يخفف سرعته، كان بوسعك أن تقرأ أنها كانت «شانييي».

فيما وراء النافذة حيث أصبحت قطرات المطر الآن أكثر نحافةً، لا بد أن هذه القرية التي تمر الآن هي «سنيس». ينهض الكاهن، يأخذ محفظته من على الشبكة، يفتح سحابها، يدس فيها كتاب صلواته ويجلس ثانيةً. على الأرضية المعدنية، يَهتزُّ فتات بسكويت وسط أحد الأشكال المعينية بين حذاء السيدة الملفعة بالسواد وحذاء الشاب العسكري الذي يفك أزرار معطفه، يوسع ما بين ركبتيه، يضع كوعيه فوقهما، ينظر صوب الممر.

في مقصورة الدرجة الثالثة حيث استيقظت، كانت سيسيل تنام قبالتك بينما

كان الضياء الأزرق يسهر داخل المصباح، وكان هناك ثلاثة أشخاص آخرين، سياحاً، مستسلمين للنعاس.

ثم رأيت، عند شفق الفجر، ساعتك تشير إلى أن الوقت لم يكن الخامسة بعد؛ كانت السماء صافيةً تماماً وعند كل خروج من النفق كان لونها الأخضر يبدو أكثر وضوحاً.

لَمحتَ «فينوس» بين هضبتين، في الجانب الاخر من الممر، وبينما كنتَ تتعرف إلى محطة تارجينيا، هز أولئك الذين كانوا بالقرب من النافذة رؤوسهم، ومدوا قاماتهم؛ سحب أحدهم الستارة التي صعدت وحدها ببطء فأخذت أشعة الشمس الوردية اللون تُبرز وتُلون شيئاً فشيئاً وجه سيسيل التي شرعت تتحرك، انتصبت، فتحت عينيها، نظرت اليك برهة دون أن تتعرف إليك، متسائلة، متفكرة أين كانت، ثم ابتسمت لك.

كُنتَ تفكر بقسمات وجه هنرييت المُتْعَبة في سريرك صباح أمس الأول بشعرها الأشعث، بينما كانت جديلة سيسيل السوداء، التي لم تكن قد أرختها، سليمة تقريباً، متراخية قليلاً فحسب بفعل حركة الليل، والاحتكاك بمسند المقعد، رائعةً تحت الضياء الجديد، تُحيط بجبينها، ووجنتيها مثل هالة لأوفر الظلال شهوانيةً وغنىً، هازةً ألق بشرتها الحريرية المجعدة قليلاً، ألق شفتيها، وعينيها بضع لحظات مبهمتين، ومُريبتين، ترمشان قليلاً، لكنهما استعادتا كل حيويتهما وأكثر بعض الشيء، ضرب من المرح الواثق لم يكونا يحملانه ليلة أمس، تَغيُّرُ تشعر أنك أنت المسؤول عنه.

« كيف؟ لقد بقيت هنا؟»

وأنت تُمَرِرُ يدك على ذقنك الخشنة، قلتَ لها أنك ستعود بعد قليل، ثم تَوجهتَ في الاتجاه المعاكس لسير القطار حتى مقصورة الدرجة الأولى الخالية الآن التي اتخذت لك مكاناً فيها في باريس، أَنزلتَ أمتعتك لتضعها على المصطبة لتأخذ منها المحفظة البلاستيكية حيث توجد أدوات الحلاقة ليكون بوسعك أن تذهب لتحلق، ثم عدت عبر العربات حيث كانت أغلب الستائر مرفوعة، وجميع المسافرين مستيقظين، حتى سيسيل كانت قد استعادت نشاطها خلال ذلك الوقت، عدلت جديلتها وزوقت شفتيها، سيسيل التي لم تكن تعرف اسمها بعد.

بعد أن مرت محطة روما تراستفيري، ثم النهر، ومحطة روما اوستينسي، بهرمها المتلألىء بشعاعات الصباح، بعد روما تسكولانا، ثم «الباب الأعظم»(ماجور)، ومعبد منيرف مدسين، في محطة ترميني الكبيرة الشفافة، ساعدتها على الترجل، حملت لها أمتعتها، اجتزتما البهو معاً، دعوتها لتناول الفطور، وأنت تتأمل خلف اللوائح الزجاجية الكبيرة خرائب بناء «ديو كليسيان» مُضاءة بالشمس الفتية الرائعة، أصررت أن تفيد هي من سيارة الأجرة التي ستقلك، وهكذا وصلت أول مرة إلى 65 شارع مونت ديلا فارينا، في هذا الحي الذي لم تكن تعرفه تقريباً.

لم تكن قد أخبرتك باسمها بعد؛ وكانت تجهل اسمك؛ لم تتحدثا البتة عن اللقاء آخر مرة، لكن بما أن السائق عاد بك من خلال شارع ناسيونالي حتى البير وكيرينال، كُنتَ متيقناً أنك ستلقاها ثانيةً ذات يوم، وأن المغامرة ما كانت لتنتهي هنا، وحينئذ، ستتبادلان الهوية والعناوين، وستتفقان على مكان ما لتلتقيا فيه، وأنها قريباً ستُدخلك ليس إلى هذا البيت الروماني الشاهق حيث كانت قد دخلت فحسب، بل إلى أرجاء هذا الحي، إلى كل أنحاء روما التي كانت ما تزال محجوبةً عنك.

لازمَ وجهها نزهاتك وأحاديثك طوال النهار، ونومك طوال الليل، وفي اليوم التالي لم يكن بمقدورك أن تمنع نفسك من الطواف بالقرب من شارع مونتي ديلا فارينا، وأن ترقب حتى ولو بضع لحظات مبنى خمس وستين، كما ستفعل غداً، آملاً في أن تراها تظهر في إحدى النوافذ، وبما أنك خشيت أن تبدو مثيراً للسخرية (لم تكن قد تصرفت على هذا النحو منذ زمن طويل)، أن تغيظها خاصةً، أن تزعجها لو رأتك هكذا، أن توبخك كشخص لجوج، أن تُفسد كل شيء، أن تحول دون أي شيء لنفاد صبرك، استسلمت للبعد، مُرغِماً نفسك على نسيانها، عازماً على أي حال أن تترك للقدر مهمة ترتيب اللقاء القادم.

على الأرضية المعدنية المدفِئة، يسحق حذاء العسكري فتات البسكويت، يُخرج الكاهن محفظة نقوده من جيبه ويعد ثروته. فيما وراء النافذة حيث تتباعد المسافة بين قطرات المطر الآن، تعرف جيداً أن هذه الكنيسة وهذه القرية اللتين تقتربان هما «تورنوس».

الضوء الأزرق المعلق ساهر داخل المصباح السقفي. الجو حار وثقيل، كنت تجدَ صعوبةً في التنفس؛ وكان المُسافران الآخران ما يزالان نائمين، يؤرجحان رأسيهما يميناً وشمالاً كأنهما فاكهةً تُحركها ريحٌ شديدة، ثم استيقظ أحدهما، نهض رجل ضخم، تقدم نحو الباب وهو يترنح.

وحين كنتَ تحاول جاهداً أن تطرد من ذهنك وجه سيسيل هذا الذي كان يلاحقك، جاءت صور أسرتك الباريسية الآن لتعذبك، فحاولت أن تطردها هي أيضاً، فوقعت على صور عملك عاجزاً عن الهروب من هذا المثلث.

يُفترض أن يكون النور قد عاد، وأن تكون قادراً على القراءة أو حتى في الأقل أن تركز بنظرك على شيء ما، لكن ما زالت هذه المرأة التي في الظل تجهل عينيها وقسمات وجهها، لون شعرها وثيابها، التي ربما كنت قد رأيتها تدخل مساء أمس لكنك نسيتها، هذه الهيئة المُبهَمة، المقرفصة في الركن بالقرب من النافذة مع اتجاه سير القطار، محتميةً خلف مسند الذراع الذي كانت قد أخفضته، وكان يتناهى إلى سمعك تنفسها المنتظَم الخشن بعض الشيء ولم تكن تجرؤ على إقلاقه.

من خَلَل الباب يتوغل شيء من الضياء المائل إلى الصُفرة، مأهول بحركة التراب، يبرز من العتمة ركبتك اليمنى، ويرسم على الأرضية مربعاً منحرفاً ثَلَمَ زاويته ظل الرجل البدين الذي عاد، الذي اتكأ على اللوحة المزلاجة، وأصبحت ساقه اليمنى، وكمه الأيمن، وحاشية قميصه التي فقدت رونقها، والزر العاجي في كُم قميصه، ويده التي اندست في جيبه لا لتسحب منه علبة جولواز بل علبة «ناسيونالي» فصارت كلها مرئيةً بالنسبة إليك؛ وبينما كنت تتبع خيوط الدخان التي كانت ترتفع، وتتلوى، وتحاول اقتحام المقصورة، وتنتشر أخيراً، نبهكَ ارتجاج أكثر عنفاً إلى أنك كنت قد وصلت إلى ديجون.

وسط الصمت المتقطع بشيء من الصرير، والدوران المتقطع، فكت المرأة التي كانت قد استيقظت، أزرار الستارة المجاورة لها ورفعتها بضع سنتيمترات، لأن الجو في الخارج أصبح أقل عتمة بقليل، كاشفةً عن شريط رمادي رفيع، أخذ يتسع شيئاً فشيئاً وينجلي، بينما كان القطار قد استأنف مسيره، قبل أن تكون ألوان الفجر قد ظهرت.

وبعد قليل، جعلك الكشف عن النافذة برمتها ترى السماء الملبدة بالغيوم، وعلى زجاجها قطرات مطر شرعت ترسم حلقاتها الصغيرة.

المصباح الكهربائي الأزرق قد انطفأ داخل الكرة السقفية، وكذلك المصابيح المائلة إلى الصفرة في الممر؛ والأبواب تنفتح الواحد بعد الآخر ليخرج منها مسافرون، يحملقون بعيونهم التي ما تزال دبقة من النعاس؛ والستائر ترتفع برمتها.

ذَهبتَ حتى عربة المطعم لتتناول ليس القهوة الإيطالية الأثيرة لديك، هذا الشراب المنعش والمرَكَز، بل ماءً يميل إلى اللون الأسود فقط في فنجان غليظ من الخزف الأزرق الفاتح مع البسكوت الغريب الشكل، على نحو مستطيل كل ثلاثة منها مغلفة بورق معدني لم تره إلا هنا.

في الخارج، تحت المطر، كانت تمر غابة «فونتين بلو» حيث أشجارها لا تزال مُزَيَنة بأوراق كانت الريح تقتلع حفنات منها، فتتساقط على رسلها شبيهةً بأسراب خفافيش ارجوانية وصهباء، هذه الأشجار التي فقدت في بضعة أيام كل أبهتها، ولم يكن قد بقي عليها قبل هنيهة، في نهايات أغصانها الصلبة، إلا رقش نحيفة مرتجفة، شيء من ذكرى هذه الأبهة التي كانت منتشرة على نحو سخي حتى في فرج الغابة والأدغال، وكان يبدو لك، بفعل كل هذا التحرك، من خلال الأحراج والأشجار الضخمة، ظهور وجه فارس طويل القامة، يرتدي بقايا زي بهي كانت أشرطته وشاراته المعدنية المخلوعة تزوده بشَعرٍ ذي لهب أدكن، فوق حصان كانت عظامه السود تظهر نصفياً شبيهة بأغصان شجرة زان رطبة تتفحم، من خلال لحم جسده العائم، وأعصابه المفككة، وسيوره الجلدية المفرقعة تنفتح وتنغلق، وجه رئيس الصائدين بالكلاب هذا حيث كان يبدو لك سماع شكواه الشهيرة: «هل تسمعني؟».

ثم أتت ضواحي باريس، والجدران الرمادية، وحُجرات محولي السير، وتشابك السكك، وقطارات الضواحي، والأرصفة وساعة المحطة.

فيما وراء النافذة حيث تتباعد قطرات المطر طوراً فطوراً، تلمح على نحو أوضح بكثير عما قبل قليل، أسفل رقعة مضيئة في السماء، البيوتَ، والأعمدة، والأرض، وأناساً

يخرجون، وعربة، وسيارة ايطالية صغيرة تقاطع السكة فوقك من على جسر. وفي الممر يأتي شابان يرتديان معطفاً، وحقائبهما بايديهما. تمر محطة «سينوزان».

سَحَبَ الكاهن تذكرته من محفظة نقوده، ووضعها في جيب جُبته بعد أن عد نقوده، ثم زرَّر معطفه الأسود، وشدَّ وشاحه النسيجي حول عنقه، ووضع تحت إبطه محفظة وثائقه المنتفخة وحاول عبثاً أن يغلقها على نحو محكَم، بينما تمر خلفه أولى شوارع مدينة «ماكون»، ثم يمر وهو يُمسك بالعمود المعدني، رافعاً حذاءه الكبير إلى أعلى، أمام المرأة المتشحة بالسواد، بين العسكري والصبي الصغير، بينك وبين الإيطالي الذي يقلب صفحة مجلته، يخرج، ويبقى ساكناً بلا حراك تجاه زجاج النافذة حتى توقف القطار تماماً.

ماذا يوجد بين هاتين الرُقْعَتين من الجلد العادي باستثناء كتاب صلواته؟ كتبٌ أخرى؟ قد تكون كتباً مدرسية إن كان مدرساً في مدرسة ثانوية، إن كان سيعود للمدرسة ليتناول وجبة الغداء بعد لحظات وقد تكون له محاضرة تنتظره في الساعة الثانية مع فتيان مشاغبين من صنف هنري أو توما، أو ثمة واجبات للتصحيح، وإملاءات مُشطَبة بقلم رصاص أحمر: سيىء جداً، ضعيف جداً، صفر، تحته خط، مع علامات تعجب، وتوجيهات مثل «يُعاد مصحوباً بتوقيع الوالدين»، وموضوعات انشائية «اكتب رسالة إلى أحد أصدقائك تحكي له ما فعلته خلال الإجازة» (كلا، لقد بدأت الدراسة منذ زمن طويل؛ وهذا هو دوماً الموضوع الأول في السنة)، «تخيل أنك وكيل في باريس لإحدى شركات الآلات الكاتبة الإيطالية، اكتب إلى مديرك الروماني لتشرح له أنك قررت أن تأخذ أربعة أيام إجازة، «ثمة أفكار لكن لا توجد خطة». «انتبه إلى إملائك»، «جملك طويلة أكثر مما ينبغي»، «لا علاقة له بالموضوع»، «لن تفلح البتة في إقناع مديرك الإيطالي بأسباب كهذه»، أو: «تخيل أنك السيد ليون ديلمون فتكتب إلى عشيقتك سيسيل دارجيلا لتخبرها أنك وجدت لها عملاً في باريس»، من الواضح تماماً أنك لم تعشق أبداً»: ماالذي يعرفه هو عن هذا؟»

ربما تؤرقه هذه الرغبة، لكونه موزعاً بين رغبته، هذا السلام الذي يستشعره لنفسه على هذه الأرض، ورعب انفصاله عن الكنيسة، التي ستتركه مجرداً تماماً.

«تخيل أنك تبغي الانفصال عن زوجتك؛ فتكتب لها لتشرح الحالة»، «لم تتقمص

الشخصية بما فيه الكفاية»».تخيل أنك أب يسوعي؛ فتكتب إلى رئيسك لتخبره أنك ستترك الشركة».

فتح أحدهم إحدى نوافذ الممر، نسمع صوت مكبر الصوت الذي يتلو على نحو واضح إلى حد ما: «...شامبيري، سان جان دي مورين، سان ميشيل فالورا، مودان وإيطاليا، إلى القاطرات رجاءً..».

لا بد أن هؤلاء المسافرين، دون معاطف أو حقائب، يعودون من عربة المطعم، بعد انتهاء الوجبة الأولى، ومن بينهم الزوجان الشابان اللذان يعودان، بينما يصفق مستخدم ما على الأرض أبواب العربة ويهتز القطار، فتتأرجح هي بين الشبكات مثل سندر غض في مهب الريح.

تُقَشر الأرملة تفاحة حمراء اختارتها من السلة، وتُناول أقسامها الواحد بعد الآخر إلى الصبي الصغير، وتضع القشور بعناية تامة على قطعة من صحيفة ممزقة، مفروشة على ركبتيها، تطويها حينما تنتهي من هذا العمل، تجعدها في هيئة كرة وترميها تحت المصطبة، بعد أن مَسَحَتْ بها نَصْلَ مُدْيَتِها التي تطويها وتضعها في حقيبتها اليدوية، ثم تتقدم حتى الركن المحاذي للنافذة، في المقعد الذي تركه الكاهن، ويبتعد الصبي الصغير عنك، ماصاً أصابعه، ماضغاً فاكهته التي ما زالت رائحتها تملأ المقصورة برمتها.

تمر محطة «بون–دي–فيل»، في الممر، هناك شابان يتكآن على أحد الأعمدة النحاسية قبالة نافذة يُشعلان بالتبادل سيكارتيهما. على الأرضية المعدنية المُدّفِئة يغطي الحذاء الأيسر الأصفر الفاتح والنعل المطاطي الذي ينتعله الزوج الشاب على نحو تام تقريباً، البقعة من اللون نفسه التي ترسمها قطعة البسكويت المسحوق.

عقب ما يزيد على شهر من لقائكما في القطار، حيث كُنتَ قد نسيتها تقريباً، مساء أحد أيام شهر أيلول أو تشرين الأول شديدة القيظ، حيث كانت الشمس رائعة، تناولت وجبة العشاء في مطعم في الكورسو وحيداً مع نبيذ رديء جداً على الرغم من مبلغه الباهظ، بعد أن أنجزتَ بالأحرى عدداً من المسائل الشائكة في سكابيلي، ولكي تسترخي ذهبتَ لتشاهدَ فيلماً فرنسياً، لم تعد تتذكره، في السينما الكائنة في ركن شارع ميريلانا

قبالة قاعة تسجيل «ميسين»، وأمام شباك التذاكر صادفتها فقالت لك دون تكلف نهاراً سعيداً، وصعدت معها، بحيث أن المسؤولة في قاعة العرض، التي ظنت أنكما معاً، أعطتكما كرسيين متجاورين.

عقب بدء العرض ببضع دقائق، انفتح السقف ببطء، وهذا ما كنتَ تنظر اليه، وليس الشاشة البتة، هذه الحزمة الزرقاء الآتية من السماء الليلية متسعةً مملوءةً بنجوم كانت تمر بينها طائرة مزودة بأضواء الهبوط حمراء وخضراء بينما كانت تهبط نسمات هواء في هذا الكهف.

عند الخروج، التمستَ منها أن تتقبل شراباً مُرَطِباً، وفي سيارة الأجرة التي كانت تقلكما إلى شارع «ڤينيتو»، عِبر «سانت–ماري ماجور وشارع كارتر–فونتين، أخبرتها باسمك، وعنوانك الباريسي وعنوانك في روما؛ ثم، بفعل الإثارة الرائعة للحشد الأنيق المُضاء، طلبتَ منها أن تأتي لتناول وجبة الغداء معك في اليوم التالي في مطعم «تري سكاليني».

ولهذا السبب، في الصباح، قبل أن تذهب حتى إلى المقر الرئيس لسكابيلي، مررت إلى البريد الرئيس لتبعث ببرقية تُعلِم بها هنرييت أنك لن تكون في باريس قبل يوم الإثنين، وقبل الساعة الواحدة بقليل، من مائدة على رصيف المقهى، رأيتها قادمة من الجانب الآخر للساحة حيث كان يسبح أولاد صغار في «نافورة الأنهار»، صغيرة جداً إزاء عمالقة ساطعين، ولو كنت تعرف في تلك اللحظة شعر «كفالكانتي»، لقلت إنها كانت تجعل الهواء يرتعد من بهائها.

جَلَسَتْ إزاءك، واضعةً حقيبتها وقبعتها بجانبها على كرسي من أسل الهند، وكفيها الطويلتين على غطاء المائدة الناصع البياض حيث تتحرك زهور بين كأسيكما بهدوء في الظل العذب الذي كان يحميكما، يؤيدكما، يحثكما، ساقطاً من البيوت العالية القديمة وفاصلاً ما كان حينئذ سيركاً امبراطورياً إلى منطقتين منفصلتين تماماً.

أنتما الاثنان كنتما تنظران إلى مشهد هذا الشعب وهو يجتاز عتبة الشمس دون أن يكف عن إيماءات أو عن حديث، وألوان ثيابه مضيئةً أو معتمة، مبرزة فجأة من شعر

ومن فساتين سوداء طيات وانعكاسات غير متوقعة، كاشفةً عما لم يكن غير لهب أبيض، تنوعات مدهشة في تدرج الألوان.

أتنيتما معاً على هذه الساحة، وعلى هذه النافورة، وهذه الكنيسة ذات البرجين البيضاويي الشكل، وأناشيدamoeubées، متحدثَين أول مرة عن آثار روما، بدءاً بآثار القرن السابع عشر، وأنها هي، راغبة أن تُريك «أماكن لطيفة»، وكانت دليلك السياحي طوال ما بعد الظهر في نزهة طويلة سرعان ما أصبحت عذبة، جعلتك تمر بالقرب من جميع كنائس «بوروميني» التي لم تكن تعرفها بعد.

على الأرضية المعدنية المُدَفِئة تتدحرج الكرة من ورق الجرائد حتى حذاء الرجل الإيطالي. ينهض الشاب العسكري، الذي جف الآن معطفه ذو اللون التِبْنِيّ، ويخرج. ثمة رجل يسير باتجاه القطار نفسه يمد رأسه، ثم يذهب، واثقاً أنه أخطأ.

كان المكانُ يعج بالناس مع أننا كنا في فصل الشتاء؛ في هذه المنطقة نفسها، بين «ماكون» و«بور»، في مثل هذه الساعة على وجه التقريب؛ كنتما قد تناولتما وجبة الغداء في أول دُفعة وكنتما تبحثان عن مقعديكما في الدرجة الثالثة؛ كانت هنرييت تدعي دوماً أن الدرجة الثالثة هي أبعد من هذا وكانت مُحِقة، مع ذلك كنتما تفتحان جميع الأبواب (دون عناء، لم تعد تمتلك قوتك السابقة)، كنتَ تمد رأسك وتسحبه مثل هذا الرجل بعد أن تكون قد تأكدتَ من خطئك.

أوشكتَ أن تفعل الشيء نفسه في مقصورتك، إذ أن جميع شاغليها كانوا قد تبدلوا: كانت هناك عائلة مع أربعة أولاد استفردوا بالمقاعد التي كنتما قد غادرتماها، بعد أن ركنوا بعناية على الرف الموجود فوقهم الكتب التي كنتما قد تركتماها فيها لتحجزا بها مقعديكما.

انتظرتما في الممر، تتأملان الحقول، ومزارع العنب والغابات السود، والسماء المنخفضة، حالكة الظلام فوقها، الثلج الذي أخذ يسقط على مدينة «بوغ»، كريات الثلج تتحطم على زجاج النوافذ، ملتصقةً على إطاراتها، حتى «شمبيري» حيث كان بوسعكما أن تجلسا ثانيةً. هنرييت بالقرب من النافذة وأنت إلى جانبها، كالعروسين الشابين، ولكن مع وجهة القطار.

كانت الثلوج التي توقفت عن السقوط تغطي جميع الجبال والأشجار، وسقوف المنازل وسقوف المحطات تحت السماء الحليبية، والبخار يتكاثف على الزجاج البارد الذي كان ينبغي مسحه على نحو دائم.

بعد اجتياز الحدود في أعماق الليل، كانت التدفئة تكاد تنذر بألا تكفي، فتدثرتما أنتما الاثنان بمعطفيكما، فغفت ورأسها على كتفك.

ثمة رجل آخر يمشي في الاتجاه المعاكس لوجهة القطار، يمد رأسه من خلال الباب ثم يذهب. يعود العسكري الشاب مسترجعاً مكانه. ومن دون قصد يركل بقدمه الكرة من ورق الجرائد التي كانت تتأرجح على البساط الحديدي مُبعِداً إياها تحت المصطبة.

في الرحلة التالية أخبرتها بوصولك في أول رسالةٍ كنت قد كتبتها لها، وهي تختلف عن رسائل هذه الأيام، إذ أن أسلوبها قد تغير من «سيدتي العزيزة» إلى «عزيزتي سيسيل»، ثم إلى ألقاب العشاق، ونزلت كلمة «حضرتك» عن مكانها لكلمة «أنتِ»، وكذلك عبارات المجاملة لإرسال القُبَل.

وَجَدْتَ جوابها عندما وُصَلت إلى «البيركو كيرينال» كما كنت قد طلبت منها، ترجوك أنْ تأتي لإنتظارها في باب قصر فارنيز، لتصطحبك إن كان هذا يروقك إلى مطعم صغير تعرفه هي في تراستيفير.

كان هذا قد أصبحَ تقليداً ثابتاً؛ في كل مرة كنتَ تراها؛ أتى الخريف ومن ثم الشتاء؛ تحدثتما عن الموسيقى، حصَلَت لك على مقاعد في حفل موسيقي؛ وأخَذَتْ تتفحص لك منهاج السينما، وتنظم لك جميع أوقات فراغك في روما.

ودون أن تتنبه إلى ذلك حينئذ، ودون أن تتعمده (فقد علم أحدكما الآخر وأنتما تدرسان مدينتكما روما)، فقد وضعت هي نزهتكما الأولى المشتركة تحت شعار «بوروميني» (Borromini)؛ ومنذ ذلك الحين، كان لكما أدلة ورؤساء آخرون؛ وعليه، بما أنك كنت قد استغرقت ذات يوم في أوقات طويلة في مكتبة للكتب المستعملة الثمينة، بالقرب من قصر «بورغيس»، حيث اشترت لك منها سيسيل بعد يوم عيدك بمدة قصيرة «البناء» (La Construction) و«السجن» (La Prison) اللتين تزينان الصالة في بيتك، في

خمسة عشر ساحة البانتيون، جزءاً من كتاب «بيرانيز» المُكَرَس للخرائب، والموضوعات نفسها تقريباً في اللوحات الخيالية المجمعة في لوحة بانيني، ذهبتما في الشتاء لتتأملا، وتسألا الواحد بعد الآخر كل هذه الكتل من الأحجار والطابوق.

وأخيراً، ذهبتما ذات مساء إلى شارع آبيا، وشعرتما بالبرد بسبب الريح، وكنتما قد فوجئتما بمغيب الشمس بالقرب من قبر سيسيليا ميتيلا؛ كنا نلمح المدينة وأسوارها من خلال ضباب كثيف وردي اللون ومترب -، اقترحَتْ عليك ما كُنتَ تنتظره منذ أشهر عديدة: أن تأتي لتناول الشاي في بيتها، فاجتزت عتبة خمس وستين شارع «مونتي ديلا فارينا»، وصعدت هذه الطوابق الأربعة العالية، ودلفت إلى شقة عائلة دي بونتي بأثاثها الأسود، وكراسيها ذات المساند المغطاة بشراشف ذات حبل مفتول، وروزناماتها الدعائية واحدة منها لشركة سكابيلي، وصورها الدينية، دخَلتَ إلى غرفة نومها المرتبة تواً وعلى نحو مختلف بمكتبتها للكتب الفرنسية والإيطالية، وصورها عن باريس، وغطاء سريرها ذي الخطوط الملونة.

ثمة خزانة من الخشب المقطع بجانب المدفأة وقلت لها إنك ستتكفل بإيقاد النار، لكنك فقدت هذه العادة منذ نهاية الحرب؛ فأخذ هذا منك وقتاً طويلاً.

أصبح الجو حاراً الآن؛ أخذتما ترتشفان الشاي الذي أعدته هي والذي واساك على نحو رائع، وأنت غائر في واحد من هذه الكراسي ذات المساند؛ فَشَعَرتَ أن تعباً لذيذاً يجتاحك؛ كُنتَ تنظر إلى اللهب الفاتح اللون والى انعكاساته على الأواني الزجاجية والخزفية، وعلى عيني سيسيل القريبتين جداً من عينيك، سيسيل التي خلعت حذاءها وتمددت على الأريكة، وكانت تضع الزبدة على شريحة من الخبز المحمص وهي تتكيء على كوعها.

كُنتَ تسمع ضوضاء السكين على فتات الخبز القاسي، وصوت اشتعال الحطب في الموقد؛ كانت هناك هاتان الرائحتان الدقيقتان لدخانين في الوقت نفسه؛ ومن جديد اجتاحك خجل الشباب؛ كانت القبلة قد بدت لك حتميةً لا يمكن أن تتملص منها؛ فنهضت فجأة فسألتك:

« ما الأمر؟»

فنظرتَ اليها دون أن تُجيبها، دون أن تُحيد عيناك عن عينيها، اقتربتَ منها بلطف وكأنك تسحب حملاً ثقيلاً؛ جلستَ بالقرب منها على الأريكة، وكان أمام فمك بضعة سنتيمترات فظيعة أُخَرْ يجتازها، وقلبك يعتصر وكأنه قماش مُبتَل يُعْصَرْ.

تَركَتْ السكين التي كانت تُمسكها بيد، والخبز الذي كانت تُمسكه باليد الأخرى، واستسلمتما لما يفعله العاشقون عادةً.

على الأرضية الحديدية المُسَخِنة، رأيتَ بذرة تفاح تقفز من معين إلى آخر. وفي الممر، كان نادل عربة المطعم يدق جرسه من جديد. تمر محطة «بوليا».

ينهض الرجل العسكري، يُنَزِل بحذر هذه العلبة المُغَلَفة المطلية بصباغ الجوز بمقبضها المعدني، متاعه الوحيد، ويخرج، ويتبعه بعد قليل الإيطالي الذي يذهب في الاتجاه المعاكس، تحجبه عن عينيك بعد عدة خطوات امرأتان من مقصورة أخرى تبتعدان خلفه بينما تَظهر أولى بيوت «بور»، حتى إنه لم يبق قبالتك إلا العروسان الشابان أسفل حقيبتي سفريهما الكبيرتين المتشابهتين من الجلد الفاخر الفاتح اللون، مع بطاقة مثبتة في المقبض كُتِبَ عليها كما يبدو اسم المدينة التي يذهبان اليها، ربما إلى صقلية حيث تود أن تذهب في رحلة إذا تَمكنتَ أن تحتفي بعرسك غير الحقيقي، بنصف عرسك مع سيسيل، وستجد هناك الصيف تقريباً.

فضلاً عن أدوات الزينة التي تخصها مع كل العُدة المعقدة للأظافر التي يستعملنها، لا بد أن هناك في حقيبة سفرها ثياباً فاتحة اللون بلا أكمام تكشف عن ذراعيها العاريتين اللتين ستسمران، ذراعيها اللتين ربما بقيتا مخفيتين بإحكام في باريس هذه التي تركاها في الوقت نفسه معك، وستبقيان هكذا حتى نهاية رحلتهما، حتى وإن توقفا في روما، حتى وإن بقيا فيها يوماً كاملاً ولم يغادرا إلا في قطار المساء، لكي يصلا منهكين بعد أربع وعشرين ساعة من المسير الصاخب وبسرعةٍ أقل من هذه، واهتزاز أكثر عنفاً وأكثر عدداً، في «باليرم» أو في «سيراكوز» حيث حالما سيضعان قدميهما، سيشاهدان البحر في المساء أو في الصباح رائعاً ومذهباً كأنه لوحةً لـ«كلود»(Claude)[1]، بأعماقه الخضراء والبنفسجية،

1- Claude Monet كلود مونيه، الرسام الإنطباعي الفرنسي (باريس 1840-جيفرني 1926).

وسيتنفسان الهواء المنعش المليء بالروائح، مما سيغسلهما، وسيجعلهما يسترخيان إلى حد أنهما سينظر أحدهما إلى الآخر وكأنهما مُنتَصِران، حققا تواً انتصاراً ما؛ لا بد أن هناك لباساً للسباحة ومناشف كبيرة ذات قماش اسفنجي سينشفان بها جسديهما في المساء أو في اليوم التالي، إن كان هذا الإثنين أو الثلاثاء (في هذا الوقت ستكون أنت في طريقك للعودة، ستكون قد اجتزت الحدود مرة ثانية عند مدينة «مودان»)، قبل أن يستلقيا على الرمل.

انتهت المرأة المتشحة بالسواد من تناول غدائها الآن، فالطفل الصغير يمتص حلوى بالنعناع؛ تفتح النافذة، التي لم يعد عليها من المطر إلا بضع قطرات، لترمي الورق، بينما تتوقف الأرصفة شبه الخالية، والقاطرات الخشبية، والخطوط في السماء، وخطوط السكة الحديدية على الأرض المتجاوبة معها، أمام الأفق بعض الأبنية الرمادية الوطيئة.

وبما أن رنين الجرس يقترب من جديد، وبعد أن وقفتَ، متنفساً الهواء الرطب طويلاً، تلقي نظرة على بطاقات حقيبتي السفر إذ سجل عليهما بالفعل اسم «سيراكوز»، وعلى الصور الأربعة في الزوايا: جبال، وقوارب، ومدينة «كاركاسون»، وقوس النصر في الإيتوال(Etoile) أعلى مقعدك الذي تحجزه بالرواية التي اشتريتها قبل الرحيل من باريس في محطة ليون، والتي أخذتها من على الرف، وتخرج.

وأنت داخل، تسحق في المنفضة المثبتة في إطار الباب ما بقي من السيجار الذي دخنته تواً، تنحني نحو الرواية التي كانت تحجز مكانك تحت صورة قوس النصر في الإيتوال، تُمسك بها على نحو أخرق بين إصبعين في اليد اليسرى، وها هي تفلت منك بتأثير هزة أكثر شدةً تجعلك تترنح بقوة إلى حد أنك تُمسك المصطبة في الوقت المناسب.

لم تكن تظن أن نصف القنينة في «ماكون» يمكن أن يؤثر فيك إلى هذا الحد؛ صحيح أن هناك أيضاً هذا السيجار، وقدح الكونياك، والبورتو قبل وجبة الغداء اللتين لم تتمكن من أن تمنع نفسك من طلبهما، وهذا ما لا تفعله حينما تكون وحيداً، ثم هناك الإرهاق، بالطبع، من أسبوع التعب الباريسي المُختَصَرهذا حيث وجب عليك أن تقوم بأعمال شركة سكابيلي الاعتيادية على نحو أسرع من العادة، وحيث وَجَبَ أن تحشد طاقة كبيرة كي تتخذ هذا القرار الخطير المتصل بالتنظيم القادم لحياتك، وتلزم، مع ذلك، الصمت في بيتك، كي تستمر في الحفاظ على صورتك الحسنة وسط هذه العائلة التي أصبح من الصعب عليك أن تتحملها منذ أصبح لديك شبه يقين أنك ستتركها عما قريب، ليس لأنك أصبحت غير مبالٍ بالأشياء، كما ظننت، منذ أن عرفت أنها مؤقتة جداً.

ينظر إليك توما اللطيف بعينيه المدورتين وأنت تُعدل بيدك صفحات الكتاب التي انطوت على الأرضية الحديدية واتسخت وتنفض التراب عنها.

هكذا، تبدأ تلعب من جديد هذه اللعبة المألوفة لديك، أن تمنح اسماً لكل واحد من رفاق رحلتك، لكن هذا الأخير لا يناسب هذا الولد الذي لا يكف عن الحركة وهو على مقعده، فهو أصغر سناً من ابنك الآن؛ من الأجدر أن يُكنى بأندريه، على سبيل المثال؛ والمرأة التي تأخذه من يده وتخرج به ستكون السيدة «بوليا»؛ أما العروسان الشابان، لا، لا أريد تلميحات أدبية، فقط «بيير» و، لنرى، نستثني اسم سيسيل، ولكن اسم «آنييس» يناسب تماماً، «القديسة آنييس» في أكوني، كنيسة بوروميني في ساحة «نافونا».

تغلق الكتاب من جديد وتضعه على الرف، ثم تجلس في اللحظة التي يدخل فيها

الإيطالي، وجهه أكثر احمراراً بكثير من ذي قبل، ستمنحه واحداً من هذه الأسماء القديمة، «آميل كار»؟ لكن هذا الاسم غير روماني، نيرون إذن؟ ترايانو؟ أوكيستو؟

ومن الذي قال لك انه روماني؟ إلى أي مدى تريد أن تراهن مع نفسك على أنه سيتوقف في «تورينو» كي يتناول العشاء الذي ستقدمه له زوجته ساخناً (في يده خاتم يدل على ارتباطه)، الباستا، والجيانتي (أو ربما اختبأ عن زوجته، وقال لها إنه لن يعود إلا في اليوم التالي، وذهب لملاقاة شخص آخر)، أو ربما في «جنوة»، إذا اقتضى الأمر، كي ينام. هل تتذكر لوحة جبهة البناء الروماني للكاتدرائية مع الشهيد على المشواة، وفي «تورينو» أيضاً هناك قُبة «كاريني» على الأقواس المتصالبة المهداة إلى القديس لوران، إذن اسم لورنزو مناسب تماماً في الحالتين.

تعود السيدة «بوليا» بابن أخيها وتُجلسه بالقرب من السلة التي تسحب منها علبة الملبس بالنعناع شبه فارغة.

أنت تظن بأنها من مدينة رطبة ومظلمة من مدن منطقة الألب، وأنّ أباها محاسب في بنك، يعود مساءً متعباً ويخون أمها مع نادلات المقهى، أسرة بروتستانية تذهب كلها يوم الأحد إلى المعبد وتخنخن أناشيد دينية، وقد حصلت على شهادة الابتدائية، ودرست سنين طويلة سلالم موسيقية على بيانو مستقيم، وذهبت إلى مدينة ليون أول مرة وهي في الثامنة عشرة من عمرها لترافق والدتها، وتابعت دروساً في الرقص يعطيها إياها أستاذ الغناء في صالونات بلدية المدينة، والتقت في حفلة رقص رأس السنة بطالب يدرس الطب كان عائداً ليقضي العطلة مع أسرته، واصطحبته إلى مقهى، ورأته مرة ثانية، واصطحبته إلى محطة القطار، وأخذت تذكرة لتتمكن من الذهاب إلى الرصيف حيث تابعت بعينيها آخر قاطرة كانت تهرب، وأخذت تكتب له سراً رسائل، وانكشف أمرها، إلى حد أنها خضعت لاستفسار بجوار البيانو، فاتُخِذَ القرار بالحصول على معلومات، ايجابية جداً، حتى إن المراسَلة بينهما أصبحت رسمية، فأخذت تقرأ روايات، غيرَّتْ اسلوبها، واشترت أحمر شفاه أخفته في حقيبتها اليدوية وكأنه حرز، وأخذت تتمرن من وقت لآخر، وحيدة في غرفة نومها، على وضع المساحيق على وجهها.

وانتظروا أن يُنهي دراسته لتتم الخطبة، وأن يُنهي خدمته العسكرية كي يتزوج، وبعدها قاموا برحلة الزواج إلى باريس.

ونجحت عيادته الطبية، ثم أتت الحرب وتوفي زوجها دون أن يترك لها أطفالاً؛ ومنذ ذلك الوقت لم تخرج من مدينتها إلا لتذهب إلى «بور» لتلتقي بأخيها البكر الذي يعمل موظف بنك فيها، آملاً أن يُصبح أمين صندوق، وله صبيان وثلاث بنات؛ أندريه، الأصغر سناً، كان مريضاً بعض الشيء، وبما أن الطبيب قال إن به حاجة للراحة، فقد قرروا أن يذهب إلى بيت عمته.

تمر محطة «شاندغيو». في الجانب الآخر من الممر، من خلال النافذة التي لم يعد عليها إلا عشر قطرات تقريباً من الماء الذي كان يتبخر، تمد البحيرة لونها البلاتيني تحت السماء الرمادية المنخفضة جداً.

أنت تُحاذي شاطىء البحر، ربما أن أحداً ما طلب أن يُطفأ الضوء، إذا نجحت في الحصول على مقعد في زاوية مقصورة، قد تتمكن، وأنت ترفع الستارة بالقرب من صدغك، أن تلمح انعكاسات القمر على الأمواج تحت السماء الليلية التي ستكون مشرقة دوماً بعد هذا اليوم الجميل.

ستقولان كل شيء، وتفعلان كل شيء، وستُهيئان كل شيء، حتى التواريخ سَتُعَين على وجه التقريب؛ ستتصالحان تماماً، آه، بل أكثر من أن تتصالحا، ستتحدان أكثر من أي وقت مضى؛ لن تشعر بالقلق المستمر الذي ينخرك على الرغم من كل الأسباب التي تدعوك للأمل.

مُتعَب، ولكنه تعب من نوع آخر، حيث إن الإقامة هناك قد جعلتك تسترخي، لن تُعاني هذه المرة من صعوبات كي تنام، على الرغم من عدم الارتياح، حتى وإن كانت جميع الأماكن مشغولة، بينما سيكون نومك في هذا المساء، بالتأكيد، قلقاً.

سيتوقف القطار في «سيفيتافيجيا»، وستحزر ربما أثناء الليل مرور محطة «تاركينيا»، ثم ستغمض عينيك وستعيش مسبقاً، متحرراً من كل كابوس، شيئاً من هذه الحياة المستقبلية التي ستكون هذه الرحلة قد فتحت لك أبوابها؛ في الحُلُم ستكتشف هذه الضيعة التي جعلك قرارك القاسي تجتاز حدودها.

في جنوة، قبل طلوع النهار، سيوقظك ضجيج الأرصفة؛ ستذهب لتحلق في نهاية الممر، لتتناول فطورك في قاطرة المطعم، وستكون قدعدت منها حينما يصل القطار إلى «تورينو».

ثم ستتسلق شيئاً فشيئاً جبال الألب التي ستكون قممها مذهلةً بالثلج المُضاء بشمس الصباح، ستجتاز غابات ناصعة البياض على جوانب الوديان العريضة الشديدة الانحدار، وستجتاح الانعكاسات المقصورة، وصدى الضياء الساطع والمنعش، غامراً جميع المسافرين بمرح رسمي، حتى أولئك الذين لم يناموا جيداً قط، ولكن من بين كل هذه الوجوه لا يترجم أي واحد منها فرحاً مرتاحاً، وتحرراً، وانتصاراً أكثر منك، وحتى رجال الجمارك في «مودان» سيبدون لك كالبشر.

من الجانب الآخر، ستكون السماء، بالتأكيد، أقل إشراقاً، وبينما تتناول غداءك سترى دون شك تساقط الثلج، أو ستجتاز سُحباً، وسيكون زجاج النافذة مضبباً بسبب التكثف، ثم، عندما تنزل سيكون هذا مطراً، وستكون الغابات سوداً من جديد، والسماء رمادية أكثر فأكثر.

ستقترب من هذه المنطقة، من هذه البحيرة التي ستُحاذيها في الاتجاه الآخر، وأنت جالس أسفل حقيبتك التي توجد داخلها ملابسك النظيفة المكوية التي تملأها الآن، والتي ستكون على جسدك، لتحل محل الملابس التي ترتديها الآن والتي ستكون متَسِخة ومجعدة.

ترى من النافذة التي اختفت من عليها قطرات الماء الآن، محطة «أكس لي با» تُبطيء، تتوقف، وتمر القاطرة في الاتجاه الآخر ومن ثم كل قاطرات روما - باريس، القطار نفسه الذي كنت ستأخذه يوم الاثنين مساءً والذي سيمر هنا الثلاثاء بعد الظهر في مثل هذه الساعة.

وبما أنك كنتَ تنظر إلى هذه الحقيبة المفتوحة على المنضدة يوم الأحد الماضي في غرفة «البيركَو كيرينال» الذي يطل على شارع «ناسيونالي» المليء بالضوضاء، وبصرير الترامواي وصوت تشغيل الدراجات البخارية «vespa» التي سبق أن أيقظتكَ عدة مرات في

الصباح، الحقيبة التي هربت منها ذراع القميص المجّعدة، القميص الذي سافرتَ بهِ من باريس إلى روما، إذ لم تعد لديكَ قُمصان نظيفة، كهذا الذي سترتديه، إنه القميص الذي خلعته قبل أن تخلد للنوم وأنت تعود من بناية 65 شارع «مونتي ديلا فارينا»، المنشور مع ملابسك على كُرسي قرب السرير، قلت مع نفسك، كما قلت لنفسك عدة مرات في مناسبات كهذه، أنه ينبغي لك في السفرة القادمة أن تجلب معك ليس قميصا واحداً فحسب بل قميصين للتبديل، وهذا ما نسيت أن تفعله هذه المرة كذلك.

ها هي الشمس تُضيء الطبقتين الأخيرتين من البيت المقابل، طويت هذه الذراع المتمردة، أغلقت الغطاء، وهيأت كل شيء كي لا تمضي في هذا الفندق سوى وقت قصير عندما ستأتي لتأخذ الحقيبة وتتوجه إلى المحطة.

كُنتَ قد أمضيتَ وقتا طويلاً ليلة السفر مع سيسيل دون أن تتمكن من مغادرتها، موقناً أنك لا تستطيع أن تنام هناك حتى الصباح (لكن الآن كل هذا يبدو لك في غاية السُخف)، حينما نَزلتَ إلى الشارع، كانت الساعة تشير إلى العاشرة.

كنتَ تعرف جيداً أن سيسيل كانت ستستيقظ قبلك، وتتناول بالتأكيد فطورها بعد أن تكون قد ملت انتظارك، ولذلك دَخَلتَ إلى بار لتتناول قهوة بالحليب وتلك الفطائر المحشوة بالمربى، والتي تسمى كرواسون في إيطاليا، دون أن تُسرع، وكانت الساعة قرابة الحادية عشرة حينما وَصلتَ إلى الرقم 56 شارع مونتي ديلا فارينا، وكانت كل أسرة بونتي في القداس، فوجدتَ سيسيل وحيدة وغاضبة جداً لأنها كانت قد أحضرت لك كل شيء، شاياً وخبزاً محمصاً، وما إلى ذلك، إذ كنتَ قد اخبرتها في الأمس أن هذا يسرك... لكنك كنت قد همست لها الكثير من الأشياء في تلك العشية وهذا أيضاً كنت قد نسيته.

على الأرضية الساخنة ثمة بذرتا تفاح ساكنتان بالقرب من قدمك اليسرى.

قرابة أكثر من عام بقليل، في وقت مبكر أكثر في مثل هذا الفصل، تناولتما الشاي ببطء، وكانت النافذة ومغاليقها مُشرعة على مصراعيها وجانب من إفريز المنزل المقابل مُضاء بالشمس الحمراء التي كانت تضمحل شيئاً فشيئاً، كنتما جالسين واحداً قرب الآخر على الأريكة، ظهر كل واحد منكما مستنداً إلى الجدار ورائحة الخبز المحمص تملأ الهواء، رأسها على كتفك، وشعرها يلامس رقبتك، وذراعك تمر من خلفها لتحضن خصرها.

تعالى الضجيج في الخارج شيئاً فشيئاً، وأخذ هذا الجزء من السماء الذي يعلو سطوح المنازل يميل إلى اللون الوردي الغامق، وظهرت أولى النجوم من بين جدائل الغيوم الت أخذت تتراخى.

كانت الجدران مُذهبة بنور المصابيح وبمرور مصباح سيارةٍ من وقت لآخر وفي غرفة النوم حيث كانت العتمة تهيمن شيئاً فشيئاً، كانت تلتمع في معصمك النقاط الفسفورية لساعتك اليدوية.

كان لايزال لديك الوقت لتأخذ قطار الحادية عشرة والنصف والذي كان ينبغي أن تأخذاه معاً بما أنها كانت قد اتخذت قراراً بالسفر معك إلى باريس، لكن برودة الجو لسعتك فجأةً.

على ضياء المصباح المعلق فوق فرنها الصغير، وفوق مغسلة الصحون في الدولاب الذي كان بمثابة مطبخ، نَشفتَ الصحون والفناجين التي غَسَلَتها تواً ثم أغلقتَ الشباك بينما كانت تنتهي هي من تهيئة حقيبة سفرها، وكُنتَ قد أرسلت حقيبتك إلى صندوق الأمانات في المحطة.

كان شارع «فيتوريو ايمانويل» بضجيجه المعتاد، لكن في الجانب الآخر كانت الشوارع صامتة على نحو غير معتاد، وساحة «نافونا» شبه خالية، ونافورة «لي فلوف» تجري في الليل، وكانت كل طاولات المقاهي والمطاعم قد أدخِلَتْ.

في مقصورةٍ من الدرجة الثالثة كهذه، في مقعد ركني محاذٍ للممر باتجاه سير القطار، تأملتها وهي تنام، رأسها محني على كتفك، حالما أطفئ المصباح، كما لو كان القطار مألوفاً لديها كغرفة نومها، طالما كُنتَ موجوداً، وفي اليوم التالي تناولتما الغداء معاً إلى طاولةٍ حيث كنتما لحسن الحظ وحيدين تتحدثان عن لقائكما الأول.

على الأرضية المعدنية الساخنة، في المضلع الرباعي المحدد بأقدامكما وقَدمي الايطالي الجالس أمامكما انسحقت بذرتا التفاح على فرضة «فخرج شيء من لُبهما الأبيض، لِيُشَقِق غلافيهما الرقيق.

على الطاولة الصغيرة المستديرة، بمستوى المصطبة المُغطاة بهذا الغطاء الرائع ذي الألوان

الزاهية الذي اشتريته لها خلال إقامة سابقة، المبسوط تماما والذي جَعدَتْهُ حينما رمت نفسها عليه، ركبتاها مثنيتان مسندةً ظهرها إلى الجدار، وشعرها مرتّب على صورة قوس النصر الباريسي، غيوم سودٌ جداً ورفيعة في السماء العريضة ذات الغيوم البيض التي تعلو الصرح النابليوني الرديء، متحررةً من خُفيها اللذين بقيا في نهاية إبهاميها، مُمدِدَة على مزيج الألوان قدميها العاريتين حيث ما زالت الأظافر تحتفظ ببعض قشور الطلاء الأحمر في ليلة أمس (لن تتمكن أن تفعل هذا بعد في باريس في مثل هذا الفصل)، على الطاولة الصغيرة الوطيئة، المغطاة بشرشف مُشجر يحمل الأحرف الأولى ليس لزوجها الأسبق الذي لم يكن من الغنى بحيث إنه يستطيع أن يقدم لها جهاز منزل جديد بكامله، ولكن بأحرف أسماء والديها أو حتى أسماء أجدادها كما وضَحَت لك أثناء تناولكما فطوراً آخر على هذه المائدة (لقد نَسيتَ التفاصيل). وكان هناك إبريق الشاي المصنوع من الفضة الملمعة على نحو جيد وكنت تعرف أنه نصف مملوء بالشاي البارد، ووعاء الحليب المصنوع من خزف ما وراء البحار، والإناء الزجاجي للسكر، والفِنجانَان النفيسان الكبيران، قعر أحدهما مُتسخ بهذه البقعة الصفراء المرقطة بعشرات النقاط السود، صحن مُزهَّر تمتد فوقه أربع قطع من الخبز المحمص، والجهاز المطلي بالنيكل الذي استخدم لتهيئتها، والصحن المستطيل مليء بالزبدة، وكاسة المربى، وعلى معدن هذا الإبريق، ثمة بريق شمس حاد جداً، يلتمع كنجمة وسط كل هذا الجو الظُلَيلْ، حيث إن مصاريع الشباك كانت مفتوحة قليلاً وثمة شعاع فقط كان يتوغل.

«كل شيء بارد الآن. هل ترغب أن أذهب لأضع ماءً فوق النار؟»

لكن كان واضحاً أنها لن تكلف نفسها من أجل هذا، كان جذعها مستقيماً، شفتاها بلا ابتسامة؛ فضلاً عن ذلك لم تكن لك أي رغبة في شاي.

«أعرف جيدا أنني مُتأخر؛ كنت أظن أنك قد لملمتِ كل هذا، فتناولت قهوة».

فَتَحْتَ مَصاريع النافذة فالتمعت كل الأشياء الموجودة على المنضدة حتى أظافرها؛ من المكان الذي كنت فيه كنت ترى الزجاج الذي يُغَلِف الصورتين الفوتوغرافيتين الباريسيتين المعلقتين فوق السرير وقد استحالَ إلى مِرآة.

فيما وراء النافذة، أخذت محطة «أيكس لي بان» تتحرك، ورَحَلَت.

حينئذ، بعد أن حاذيتَ بحيرة «بورجيه» (Bourget)، في منتصف أوقات ما بعد الظهر القصيرة في نهاية تشرين الثاني، ستتعرف وأنت مار إلى محطة «شاندريو» هذه. وستهبط الشمس، أو بتعبير أدق سيهبط نورها، أكثر فأكثر، إذ لن ترى الشمس بحد ذاتها، بعد أن تجتاز الحدود؛ وسيكون الغروب قد حل في مدينة «بور»، والسماء سوداء في «ماكون»، ومن المحتمل جداً ألا تلمح مصابيح كل هذه المدن، وهذه القُرى ومصابيح شوارعها ولافتاتها الإعلانية إلا عبرَ زجاج مُغطى بقطرات مَطر.

لن ترى شيئاً إذن من مقاطعة «بوركونيا»؛ وسيثقل الليل البارد والرطب على كل شيء، ويتغلغل حتى إليك وأنت تقترب من باريس هذه التي ينتظرك فيها أسبوع مُتعب أكثر بكثير من الأسبوع السابق، والآن بعد أن اتخذت القرار قطعياً ينبغي ألا يُباح بالأمر إلى أن يتحقق، وسيتعين عليك أن تستمر بالعيش مع هذه المرأة، هنرييت، وسط أسرتك كما لو أن شيئاً لم يكن، وأن تنتظر تحت قناع طمأنينة صامتة وصول سيسيل من باريس.

ما الأمر؟ هل أنت ضعيف إلى هذا الحد؟ أليس من الأفضل، بصراحة، أن تقول لها كل شيء حال عودتك؟ هل عزمك ضعيف إلى حدٍّ أنه يمكن أن يكون تحت رحمة الاتهامات والشكوى ومحاولات الإغراء التي تعرف جيداً أنها ستظهر؟

كلا، ليست دموع هنرييت هي ما تخشاه؛ هل ستبكي فقط؟

كلا، ستكون ردة فعلها أكثر مخاتلة وأكثرفظاعة: سيكون ثمة صمت، ثمة احتقار ليس في نظرتها فحسب بل في كل جسدها، في أدنى حركاتها، في مواقفها، وبعد مرور وقت معين ستسألك: «إلى متى ستبقى هنا؟ ولن يبقى لك سوى أن ترحل».

حينئذ ستحيا حياة العزلة في فندق باريسي، وهذا ما تخشاه أكثر من أي شيء آخر، وفي هذه الحالة ستكون هشاً مواجهاً أدنى هجوماتها، أدنى حيلها، والله أعلم كم هي مدروسة، وكم تعرف جيداً نقاط الضعف في درعك وفي تكوينك.

بعد مرور بضعة أسابيع، ستعود لتستجدي منها، مهزوماً، في نظرها، تماماً وفي نظر نفسك، وفي نظر سيسيل التي لن تَجرؤحتى على رؤيتها بعد.

بل كلا...، فأي توضيح سابق لأوانه سيعّرض للخطر نجاح هذا الهروب، الذي أعددت له بهذه الدقة.

ولكي تتمكن من النجاح، من الضروري أن تعي على نحو تام، مدى ضعفك، وأن تتخذ كل الاحتياطات لتحمي نفسك منه، وبالنتيجة لا يوجد إلا حل واحد: هذا الصمت، وهذا الكذب مدى بضعة أسابيع بعد، وربما إلى عدة أشهر؛ أن تتخيل نفسك قوياً سيكون تأكيداً لضياعك.

لكن، أن يكون هذا القرار مُذِلاً، قاسيا، يُمليه عليك الحذر من أجل انتصار الحُب، قاسيا إلى حدٌ أن بك حاجة ماسة لترسيخه أكثر بعد، و ينبغي أن تتمسك بكل هذه الأسباب خاصةً، المُكدرة، التي لا يمكن دَحضها، على نحو ثابت أكثر فأكثر. مساء الثلاثاء كلما اقتربتَ من باريس، هذا الشعور بالقوة والشجاعة الذي يجعلك ثملاً، والذي منحتك إياه هذه الأيام القليلة مع سيسيل، والذي منحك إياه هذا الاقتراب من السعادة، يُمكن أن يَجعلك تتحمس للرغبة بالانتهاء من الأمر قطعياً.

ينبغي لك إذن أن تتهيأ لمجابهة أسابيع، وأشهر الكذب هذه، وأن تدعم إرادتك بالسكوت والانتظار، وأن تحافظ على شعلتك الداخلية، أن ترقبها بعناية، وتنظم كل وسائلك الحميمة من أجل هذه المقاومة الطويلة، وأنت تتناول عشاءك في عربة المطعم، و تنظر من خلال زجاج النافذة الأسود المُطرَز ربما بآلاف قطرات المطر التي يبقى في كل واحدة منها بريق أخاذ، وتَبزغ من الظل المطلق، عند مرور نوافذ القطار المُضاءة، المنحدرات المُغطاة بأوراق متعفنة، ومئات القطع من جذوع الأشجار في غابة «فونتينبلو» التي ستتخيل أنك تلمح بينها ذيلاً رماديا ضخماً لحصان، كأنه وشاحٌ من الضباب تمزقه الأغصان العارية المدببة، وتسمع عَدوه في ضوضاء المحاور، وهذه الشكوى، وهذا النداء، هذا التأنيب، هذا الإغواء: «ماذا تنتظر ؟».

في الجانب الآخر من المَمَر، من خلال زجاجي النافذة الجافين المُتسخَين، لم تعد تلمح السماء بل المُنحَدَر بمنازله المرتبة فقط في هيئة طبقات والمنتشرة على نحو متفرق، وعلى طريقٍ ضيقة متعرجة ينزل راكب دراجة بأقصى سرعته وحاشية معطفه المطري المائل إلى الرمادي تطير على نحو أفقي خلفه. تمر محطة «فوكلن».

تنهض السيدة بوليا، تعدل قبعتها السوداء بالنظر في المرآة، وتثبت في شعرها بإحكام مشبكاً رأسه أسود، وتطلب من بيير أن يساعدها في إنزال حقيبتها المصنوعة من القش،

فيؤمن دليله السياحي «الأزرق» لدى آنييس التي تضع إصبعها بين الصفحات وهي تغلقه كي يجد مقطعه في نهاية الكتاب بسهولة، بينما يتدلى في الهواء الشريطان الرفيعان الأزرقان غيرالمُستعمَلَين والموجودان في الكتاب لغرض تأشير الصفحات،، في الهواء يتأرجحان بتمهل مع الاهتزاز العام للقطار، مع هذا الإيقاع المُلِح الذي تحمله الاهتزازات في كل تقاطع للسكة الحديدية.

جمعت السيدة بوليا كل رزمها على المصطبة، في المقعد الذي شغلته منذ خروج القس، في هذه الزاوية قرب النافذة مع اتجاه القطار، تُزَرر معطف ابن أخيها اندريه الذي يستسلم للأمر، تشد وشاحه الصغير، تُخرِجُ مشطاً من قفتها لتعدل شعره، مُخفيةً عنك وجهَيْ آنييس وبيير الذي استعاد مكانه، وحتماً كتابه، أو بالأحرى لا، إنه، من خلال حركة ذراعه اليسرى التي يتسنى لك رؤيتها هي فحسب، ينحني فوق ركبتي زوجته لينظر من خلال زجاج النافذة المتسخ أولى بيوت مدينة «شمبيري».

كيف تعارفا؟ هل التقيا في قطار مثلك أنت وسيسيل، أو كانا طالبين معاً مثلكَ أنت وهنرييت؟ لا، هذا احتمال بعيد، هو في مدرسة كبيرة للهندسة، وهي في فنون الديكور أو في مدرسة اللوفر، أو تحضر بكلوريوس في اللغة الإنكليزية، رأى أحدهما الآخر أول مرة أثناء حفل استقبال لدى أصدقاء مشتركين، راقَصَها، لا يعني هذا أنه يُجيد الرقص، لكنه نجح في أن يرفع عنها هذا الخجل، وعدم الثقة في النفس هذا الذي كان يشل حركتها، والكل لاحظ هذا، ضحكت؛ فأخذوا يشاكسونها بهذا الشأن؛ وكانت تحاول ألا تحمر خجلاً، لكنها كانت تشعر في كل مرة أن الحرارة تصعد إلى خديها.

كان الفصل صيفاً حينما رآها في المرة الثانية، لاحظ جيداً أنها انتفضت تقريباً عندما دخل إلى الغرفة، أخذها إلى غرفة أكثر هدوءاً، خرجا إلى شرفة تطل على جادة باريسية، في الأسفل كانت السيارات تمزج أضواءها وكان حفيف الأوراق المتحركة لأشجار الدلب يزداد قوةً، وكأنه تنهيدة. آه، كانت تُدرِكُ جيداً أنها عاشقة، وأنها دخلت في العشق بقوة، في هذا الميدان الذي طالما رأته يتلألأ من بعيد، كأنه صعب المنال، في كل الكتب والأفلام، وكانت تتساءل إن كان مُمكناً أن تكون قد أسرت قلبه هو، بيير هذا، هذا الشاب الوسيم،

بينما كان هناك الكثير من الفتيات الأخريات اللائي لم يطلبن سوى رضاه، لم تجرؤ على تصديق هذا، كانت تريد أن تحمي نفسها من خيبة أمل كبيرة، فلم تكن تتكلم، ولا تنظر إليه وهو لم يكن يدري ما يفعل.

كم تعرف أنتَ جيداً كل هذا: لقد ذهبا ليُبَجِلا بوَرَع في النوادي أو في صالات السينما الجادة، هذه العروض الأصيلة التي شاهدتها في صالات الحي، العروض السينمائية مع هنرييت؛ اصطحبها مرة أو مرتين إلى علب الرقص الليلية، إلى المطاعم؛ تحدثا إلى والديهما بالأمر، تزوجا في الكنيسة يوم أمس؛ كانا متعَبين جداً في المساء، كانت ثمة حركة كثيرة في الشقة، وينبغي الترحيب بالكثير من الأصدقاء.

لكن الآن، كم يسير كل شيء على ما يرام، كم ارتاحا على الرغم من نومهما القليل هذه الليلة، كم يشعران أنهما بعيدين عن هذا الأثاث المُبَعْثَر، وكم يُقْسِم أحدهما للآخر بصدق، ومن أعماق القلب، أن يكون وفياً للآخر! إلى متى ستدوم هذه الأوهام؟

اه، لو عرفا سبب رحلتكَ، لو قَصَصْتَ لهما كيف كُنتَ أنت أيضا في عمرهما، أثناء رحلتكَ مع هنرييت، كم كنتما تتخيلان أنتما أيضا أن هذا التفاهم سيدوم بالتأكيد، مع الأطفال الذين أتوا بينكما وكنتما تظنان أنهم سيقربون بينكما أكثر، والذي حدث لكما وكيف تدهورت الأمور ولأي سبب أنت هنا والقرار الذي كان يجب عليك اتخاذه لتنتهي من المشكلة، لتُنقذَ نَفسك، ألا يبدو لهما وجهك، وقامتك المتسمرة، والمنحنية بعض الشيء، شنيعاً؟

ألا ينبغي لك أن تُقلِقَ صفاءهما هذا، ألا ينبغي أن تخبرهما ألا يتوهما أنهما قد فازا، وأنك أنتَ أيضا كنت قد آمنتَ بهذا بكل الصدق الذي كنت تحمله في تلك الأيام، وأن عليهما أن يتهيأا منذ الآن للافتراق، أن يُحطما كل الأحكام المسبقة بينهما، والتي تأتي من وسطهما الاجتماعي الشبيه بوسطك والذين يؤخرون طويلاً، في الأوقات الصعبة كهذه التي تمر بها، قرارهما، وتحررهما، إذا ما حدث لآنييس هذه ما حدث لهنرييت خاصتك، حينما سيهيمن هذا الاحتقار الذي لا تفسير له على كل حركاتها، ويكون قد حولها بالنسبة إليه إلى جثة، حينما يتعين عليه هو أيضاً أن يفتش عن امرأة أخرى ليحاول أن يبدأ من جديد، امرأة أخرى تبدو مختلفة تماما، كالشباب الدائم؟

تُنزل السيدة بوليا النافذة بنشاط ؛ القطار متوقف على الرصيف من هذا الجانب. تودع أمتعتها لدى بيير، تطلب منه أن يمررها لها بعد أن تنزل، تجر ابن أخيها اندريه، تعتذر، تمرر قدميه اللتين تنزلقان بين قدميك وقدمي السيد لورنزو.

يَفسَحُ لها المجال لتمر، شابان واقفان في الممر تتراوح أعمارهما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، ثم يدخلان، يرتديان قمصاناً من الجلد بسحاب، ويمسكان بحقيبتيهما المدرسية.

تلمح يد هذه الأرملة التي تمتد نحو الحقيبة المصنوعة من القش، نحو القُفة، نحو السلة التي خرج منها قبل قليل الكثير من الطعام، هذه اليد المتشبثة. لا يمكنك أن ترى الصبي الصغير الذي ربما لا يكون ابن أخيها؛ ربما لا تكون أرملة، ولا تُدعى السيدة بوليا، وثمة احتمال ضئيل أن يدعى الصبي أندريه.

يحل محلهما الأخوان، الأصغر سناً بالقرب من النافذة المفتوحة، حقيبتاهما على الشبكة الموجودة فوق رأسيهما، يفتحان سحاب قميصيهما، وآنييس، التي تنظر اليهما، تتمنى أن يكون لها ولدان مثلهما، جميلان ونبيهان، قائلةً لنفسها: عندما يُصبح بيير بعمر هذا الرجل الذي ينظر الي، عندما نصبح نحن الاثنين زوجين عجوزين، حين سيكون أولادي بعمر هذين الولدين، لكن أكثر أناقة منهما، إذاً سنكون قد منحناهما تعليماً أفضل من هذا الذي يتلقاه هذان الصبيان لا أدري في أي مدرسة في مدينة «شمبيري».

يتكلم عاملان ايطاليان بصوت عالٍ وهما ينزلان حقائبهما ويحتفظان بها على ركبتيهما ؛ الآن أصبحت كل الأماكن مشغولة.

تختلط في الجو ثلاثة أحاديث بلغتين لا تحاول أنت التمييز بينها، يتخللها صوت مكبر الصوت غير المفهوم والذي يعلن تحرك القطار لغرض الرحيل.

ها هي الضوضاء المعتادة تأخذ طريقها إليك من جديد مع اهتزاز القطار وهروب الأشياء الخارجية نحوك، نحو هذا الخط الشاسع، الأشياء التي تمر جوار مقعدك ثم تختفي؛ ها هي الريح تندفع فتجفف الهواء بغتةً. يعيد بيير غلق النافذة.

في اللحظة التي تخرج من المدينة، يطرق المفتش بآلته الثاقبة على زجاج النافذة. يسكت الجميع ويعمل ما يجب أن يعمله.

تمر محطة «شينيان لي مارش». فيما وراء النافذة، ثمة ثلج في الغابات التي تزداد كثافة شيئا فشيئا فتغطي المُنحَدرات.

كُنتَ تنظر وأنتَ مُنحنٍ، في ظل هذه الشمس الصباحية الخريفية الجميلة، إلى عربة ثقيلة تحمل الحطب تنعطفُ بصعوبة. صحيح أن الشتاء قادم حتى في روما ومن المحتمل جدا ألا تكون درجة الحرارة في عطلة نهاية الأسبوع هذه معتدلة كالأسبوع الماضي؛ وستكون هذه الغرفة التي ستسكنها مبدئيا شديدة البرودة، وفي غرفة سيسيل المجاورة ستكون ثمة نار في المدفأة طوال اليوم تقريبا.

شَعَرْتَ بيدها تتوغل إلى رأسك الذي ناله الصلع قليلاً؛ كانت متكئة بجانبك عندما قالت:

« تعرف أن كل هذا سخف! إنه لأمر مؤسف أن تكون مُجبرا أن تؤجر في كل مرة تأتي فيها إلى هنا غرفة في فندق «البير كيرينال» السخيف هذا وأن تعود إليه كل ليلة كما لو كُنتَ تلميذاً في مدرسة داخلية، أو جنديا في ثكنة يهرب ليلاً لكنْ يجب عليه أن يكون حاضراً في اليوم التالي عند التعداد.

«هذا هو وضعك على الرغم من اعتراضاتك. كيف ستتمكن مِنْ أن تُديم هذه الكذبة معها، إن كان كل هذا حقاً كذبة كما تدعي، إن لم يكن موقفك مني هو كذبة أيضاً».

«لا تعترض؛ أعرف جيداً أنك تحبني وأنك صادق معي حينما تقول لي إن الوضع أخذ يزداد صعوبة بالنسبة إليك وأنك لم تعد تحتمل هذا؛ أعرف هذا جيداً، لا تقل لي شيئاً، أعرف عن ظهر قلب ما ستقوله لي: إن الأمر لا يتعلق بها، في هذه الحالة، بل بمؤسسة سكابيلي التي لن توافق... بالطبع، لقد سبق أن أوضحت لي هذا، وأنا لا أوجه اللوم إلا لأسخر منك، لأنتقم منك ومن جُبنك الذي، مع ذلك، أسامحك فيه تماماً.

« لكن إن تمكنت أن تتحرر ذات يوم من كل هذا، فقد علمت هذا الصباح، أن المستأجر في الغرفة المجاورة التي يطل عليها هذا الباب المُقْفَل بهذا القفل القديم الكبير، سيترك السكن هذا الأسبوع؛ يكفي أن أطلب من أسرة «دا بونتي» أن تؤجرها لك؛ سيوافقون بالتأكيد (فأنت ابن عمي أليس كذلك؟) وسنكون نحن الاثنين مرتاحَي البالِ.

«لقد سمعته يخرج قبل قليل؛ أنا متأكدة أنه لم يرجع بعد، سَنُلقي نظرة فحسب».

سَحَبَتْ القفل الذي كان قوياً بعض الشيء؛ فَتحَتْ الباب الذي أخذت مفاصله تصر.

كانت مغاليق النوافذ ما تزال مغلقة؛ رأينا السرير الحديدي الكبير مبعثراً، حقيبة سفر مفتوحة وأنواع الأربطة والجوارب مبعثرة على الدولاب، بالقرب من الحوض المعدني، على رجليه الثلاث، مع إبريقه ودلوه.

وكُنتَ تتخيل ما سيحدث غداً، دون ان تكون متيقناً حينئذ أنك ستحققه بهذه السرعة، دون أن تكون قد أعددت خطة لتنفيذه، كُنتَ تحسبه أمراً بَعيداً جداً لكنكَ كُنتَ تُجاري سيسيل بعض الوقت لتشبع رغبتها، وحاجياتك مُبعثرة على الأثاث، على الكراسي القديمة المغلفة بالقطيفة الحمراء، في فوضى مشابهة لهذه، وَوضِعَت من أجلك، تحت هذا الغطاء المصنوع من الريش وهذه الأغطية، الشراشف التي لن توسخها، ستجعدها فقط لتوهم أنك نمت عليها، وهذا الباب الذي بقي مفتوحاً طوال الليل.

على الأرضية المعدنية الساخنة، على آثار الطين التي تَرَكَتْها الأحذية الرَطِبة للذين أتوا من الخارج، شبيهة بغيوم مُهدِدة بالثلج، تنظر الى تشكيلة من نجوم صغيرة من الورق الوردي اللون أو من المقوى البُني الذي قُطِعَ توا من البطاقات.

كان المفتشُ قد تأكدَ من بطاقاتك، دَخلتَ إلى مقصورتك مع سيسيل، كنتما جالسين واحداً جنب الآخر مثل بيير وآنيس، لا تتفوهان بشيء، أنت تقرأ كتاباً مثله، كتاباً كنتَ قد تركته لتحجز به مكانك واستعدته عند عودتك، لم تعد تتذكر أي كتاب كان، لكنه كان بالتأكيد يتحدث عن روما، وكنتَ تُطلِعها على مقطعٍ منه من وقت لآخر.

لكن بعد برهة لم تعد عيناك تُتابعان الأسطر، وفي هذه المنطقة التي تجتازها الآن، بينما كُنتَ تنظر من خلال زجاج النافذة إلى الهضاب التي كانت تمر في الآتجاه الآخر، كنت تتساءل: لِمَ لا يمكن ان يستمر هذا الى الأبد، لِمَ أنا مجبرٌ على تركها في كل مرة؟ لقد أُنجَزت خطوة مهمة، لقد نَجحتَ أن تكون معي في مكان آخر غير روما، نَجحت حياتنا المشتركة ولو مرة واحدة في أن تتعدى الحدود الضيقة التي أجبرتنا ان نعيش في نطاقها؛ في كل الرحلات الأخرى كانت المحطة النهائية هي مكان الإفتراق، مكان الوداع على

أمل اللقاء، استطعنا أخيراً ان ندفع هذه الحدود؛ طوال مدة الأقامة هذه في باريس حيث أعاني عادة لأني بعيد عنها، لأني بعيد عنها بهذه المسافة، هذه الجبال، سأعرف أنها هنا، وسأستطيع رؤيتها من وقت لآخر.

كانت هذه بالتأكيد سعادة كبيرة لك، شعوراً بالانتصار، لكنه مشوب بهذا الحزن لأنها لم تكن إلا خطوة أولى وأنك لم تكن تدري على الاطلاق متى ستنفذ الخطوات الأخرى، وأن البُعد لم يُؤَجَل إلا موؤقتاً، وأن الحدود لم تجتزها إلا مرة واحدة، وفي رحلتك القادمة سيعود كل شيء كما كان؛ ينبغي لكما أن تفترقا في «ستازيوني ترميني» (المحطة النهائية)، إذ لم يكن إلا استثناءً وليس تغييراً حقيقياً.

ولم تكن تُفكر في هذا التغيير المهم من قبل؛ كُنتَ مقتنعاً بهذه الحياة المزدوجة ؛ كنتَ تحلم وأنت في باريس بأيامك في روما، لكن لم يخطر في بالك على نحو جاد بعدُ أنه يمكن ان تُغير أيامك في باريس.

لكن ها هي هذه الإمكانية، تفرض نفسها الآن على ذهنك، هذه الإمكانية التي ظهرت لك في البدء كأنها اغِواء جنوني فظيع، ثم تغلغلتْ ببطء في كل أفكارك، تآلفتَ معها شيئاً فشيئاً، وهَيمنتْ الازمة على كل وقتك، وجعلت من هنربييت إنسانة كريهة جداً.

هذه الرحلة من روما الى باريس، وأنتما معاً جنباً الى جنب، ياله من تهور! كان كل شيء يسير بهدوء من قبل، لكن الآن،لا، لا يمكن أن يكون هذا كافياً وكنتَ تعرف أن هذا هو رأيها هي أيضاً، وأن هذه الإمكانية ستلازم تفكيرها هي ايضاً، وأنها ستفعل كل شيء ببراعة ليستمر هذا إلى الأبد لكن طالما سَمَحَتْ به متطلبات المهنة والوضع الاجتماعي وكلما سمحت به، أخيراً، تفرض هذه الإمكانية نفسها عليك وحدها، وأن تبلغ أخيرا، وتجعلك تبلغ هذا الحب الرائع النقي، لتبلغ هذه الحرية الجديدة التي لم تستطع مغامرتكما أن تقدم حتى الآن إلا صورة بائسة، مهشمة، دوما متقطعة، دائما لا تصل إلا إلى جزء منك.

وستتحقق هذه الإمكانية بعد مرور سنة، لقد قَررتَ أن تحققها، وها أنت في طور تحقيقها.

لقد تَركتما «شمبيري» ورأيتما «فوكلان» تمر؛ تَوقفتما في «إيكس لى بان» ؛ خرجتما أنتما الإثنان إلى الممر لتُشاهدا البحيرة.

يُقدم رجل رأسه من خلال الباب، ينظر يمينا ويساراً، يكتشف أنه أخطأ المقصورة، يبتعد ويختفي .

في المحطة النهائية، عند هذه الحدود حيث كانت تتوقف حياتك المشتركة مع سيسيل، عند هذه الحدود التي نجحت قبل عامٍ في اجتيازها معها موقتا، كنتَ قد وصلت قبل أقل من ثلاثة أعوام، في ذلك العهد الذي لم تكن قد مررت البتة بشارع «مونتي ديلا فارينا» بعد، حيث كانت روما تمثل لك العزلة، ذات صباح شتوي، قبل شروق الشمس، بصحبة هنرييت التي كانت الرحلة قد أتعبتها، وكنت ما تزال تحبها أو في الاقل لم تكن تعرف بعد أنك ستبدأ بالابتعاد عنها إذ لم تكن هناك حينئذ مقارنة مع شخص آخر تفرض نفسها، بصحبة هنرييت التي كان الازدراء قد بدأ فعل القسوة، والوحدة، والشيخوخة، والهدم، لكنها كانت تغفر لك كل شيء بسبب هذه الرحلة التي طالما أُجلِت، التي طالما تمنت أن تقوم بها مرة أخرى، بسبب هذه المدينة التي طالما تمنت أن تراها مرة أخرى، فهي أيضا مثلك كانت تبحث عن تجدد لشبابها لم تستطع أن تحظى به، عقدة هذا الخيط سنوات ما قبل الحرب التي رأت فيها المدينة في المرة الأولى والأخيرة، لهذا الخيط الذي كان قد تَعَقّد وتردى جداً،ركبتما سيارة أجرة حتى فندق «البيركوكيرينال» حيث كنتما قد استأجرتما لهذه المناسبة غرفة لِعروسين، أكبر، وأجمل، ومريحة أكثر من كل هذه الغرف المخصصة للعزاب، التي سكنتها فيما بعد، غرفة كنت تتمناها بعض الشيء في كل مرة تطلب مفتاحك من البواب، مما يجعل هذه البناية، كما لحظته سيسيل بحق (لكنك لم تتحقق منه إلا الآن)، قلعة هنرييت في روما بعض الشيء، والتي تجبرك بمكر، وخلسة، في كل مرة تعود إلى هذا الفندق، ليس عندما تدخله في عز الليل لكن في الصباح حينما تستيقظ وتتعرف شيئاً فشيئاً الأثاث الذي يحيط بك، على أن تُدير أفكارك نحوها، وإن كان لمقتها فقط لأنها أتت لتلاحقك على هذا النحو.

كانت سعيدةً بتوقيع اسمها بجانب اسمك، طَلبتَ أن يجلبوا لكما الفطور، كانت الشبابيك ما تزال مُغلقة، والجو في الخارج بارد جداً، لكن التدفئة كانت جيدة جداً هذه المرة، تَمَدَدَتْ على الفراش بعد أن خلعت حذاءها، وانتظرتما أنتما الاثنان ان يأتي النهار.

ياللحسرة، لقد سرّتها هذه الرحلة، وهذه الإقامة التي طالما أُجلَتْ، كانت تنتظر منها الكثير، أن تستعيدك أنت الذي كانت تفقدك كل يوم أكثر ومنذ سنوات، أن تلغي من خلالها هذا البُعد الذي كان يزداد بينكما بعد كل عودة لك، حيث إن كل واحد منكما يمثل خيبة أمل جديدة متبادلة، إذ يُرَسِّخُ فيها كل مرة هذا الاختلاف المُر بين هذه الحياة الأكثر حرية والأكثر سعادة التي مَنَحَكَ الأمل فيها هواء روما، والإحساس بالضيق، والحِمل الباريسي الذي كانت تعيش هي تحت وطأته، إذ كنت تبدو لها، في كل مرة، تفضح نفسك بنفسك في باريس في هذا العمل الذي يدر عليك ماديا أكثر فأكثر، لكن هذا لم يتجاوز حدوداً قسرية جداً، وكنت تحاول أكثر فأكثر أن تخفي عدم جدواها، متخلياً عن كبريائك في كل مرة، في كل علاقة تجارية جديدة تدعو أصحابها للعشاء، وعن مفاهيمك القديمة، معتبراً ضحكاتهم رخيصة، وتعليقاتهم المبتذلة أخلاقية او لاأخلاقية، وتعابيرهم للحديث عن الموظفين، والمنافسين، والزبائن، مذلاً نفسك، ومحطاً من قَدرها إزاء هذا النظام الذي كنت سابقاً تعرف، في الأقل، كيف ترفضه، ولم تكن في الماضي تفعل، في الأقل، إلا التعاقد، وكنت، في الأقل، تستطيع أن تنفصل عنه بالكلام فحسب، ومن ثم، خلال مدة معينة، في الأقل كلامك معها، فانك الآن تُفصح عن على نحو عشوائي أكثر في كل مرة مُدعيا دائما أنه بسببها، وأنه من أجل توفير سكن أفضل لها، من أجل الحصول على هذه الشقة، ليلبس الأطفال على نحو أفضل، لكي لا تلومك على شيء كما كُنتَ تقول لها في ما سبق، بسخرية في البدء، مبتعدا أكثر فأكثر عن نفسك وعنها.

وكانت تعرف هذا جيدا، تعرف أن في صور شوارع روما بحدائقها وخرائبها، ثمة حُلماً بالنسبة لك كانت قوته تزداد على نحو عجيب شيئا فشيئا، حلم جعلك تتخلى عن باريس، و أصبحت روما بالنسبة إليك مكان الحقيقة وأنك طورت فيها جزءاً من نفسك لا علاقة لها به على الإطلاق، وكانت تَبغي أن تُدخلها إلى هذا النور.

لم تكن هناك إلا تعاسة واحدة، وهي أن كل هذا لم يكن حينئذ إلا حلماً وسحراً بقي مُبهَما، قبل أن يتجسد؛ لم تكن قادراً على تمييز أي شيء، لم تكن قد درستَ شيئاً، لم تكن قد شُغِفتَ بهذا بعد، لم تكن قادرا على تفسيرأي شيء بهذا الشأن.

آه، كانت تتصور أنكَ كُنتَ تعرف هذه المدينة على نحو أفضل، لا يمكن مقارنته، وأن حبك كان يتأتى من المعلومات التي كانت سيسيل فحسب قادرة أن تمنحك إياها ؛ فعندما كنت تتنزه معها في الشوارع في ذلك الشتاء، لم تَكُنْ تَعرف ماذا تُجيب عن الكثير من الأسئلة التي كانت تطرحها عليك، مُذكرةً إياك، عند كل معلومة غير مكتملة، بالهشاشة القصوى لهذا الملجأ الذي كُنتَ تتصور أنك بنيته لنفسك، وهي إلى جانبك، تُحاولُ أن تَفْهَمْ، مُلتمسةً منك العون، وأنت تهملها، وسيبدو لك بعد قليل شبه استحالة أن تبلغ ما كانت تبدو لك عليه شوارع روما، عادةً، من وعد وأنك لا تتمكن أبدا من التأكد ولا حتى أن تسمع حقا هذا الكلام الذي كانت تتلفظ به هذه الشوارع، والذي كان يبدو لك سهل التأويل جداً، مثل نسخة مكتوبة باللاتينية يُنظر إليها بعين شاردة،عسى أن تولى اهتماماً متأنياً.

إزاء صمتك، وضعفك، تعبت هي؛ فَجأةً، هي أيضا، أخذت تكره كل ما كانت قد أحبته سَلفاً، ومنذ نهاية اليوم الاول، كُنتَ ترى هذا بوضوح في عينيها المتعبتين، كانت تتمنى أن تغادر، كُنتَ تتمنى أن تكون غائبة، لكي يبدو لك كل شيء ميسوراً من جديد في روما.

أخذَ الثلجُ يتساقط، في المرة الأولى والوحيدة التي رأيت فيها الثلج يتساقط في روما، ليس نُدفاً كبيرة كالتي تسقط الآن وتشوش منظر الجبل فحسب، بل مائع على نحو جعل الشوارع وحلة إلى حدِّ أنها أصبحت في الحال صامتة وخالية، إلا من بعض المارة المسرعين وهم يغلقون ياقات معاطفهم.

وإذ كانت مُصابةً بالزكام، فينبغي أن تُلازم الفراش طوال يوم الأحد، وفي اليوم التالي ينبغي أن تمضي طوال اليوم تقريباً عند سكابيلي، إلى حدِّ أنها اضطرت أن تخرج وحدها، لا تعرف أين تذهب، هائمة بضجر، من كنيسة إلى أخرى، مُرتلةً في كل واحدةٍ من هذه الكَنائس ما يُقارب عشراً من صلواتها.

كانت تريد بأي ثمن أن ترى البابا، وهذا ما كُنتَ ترفضه أنت؛ لم تَشأ أن تمنعها؛

وعندما عُدتَ كانت مُحرجةً لكن عينيها كانتا تلمعان بشيء من التعصب. لم تعد إحداهما تلتقي بالأخرى إلا في أوقات وجبات الطعام كما في باريس، وفي الليل؛ كان الرحيل عزاءً لكما أنتما الاثنين.

آه لو لم تكن هذه الرحلة مع هنرييت قد تحققت، على نحو غبي، في أوج الشتاء، في أَوْج موجة البرد، إذ لطالما أجلناها، ولأنكما قررتما أن تقوما بها بعد نفاد صبركما، لكي تنتهيا منها ... لكن، ألم تكن ثمة وسيلة لاكتشاف أشياء رائعة في هذا الثلج وهذا الضباب الكثيف وهذا المطر، لو كُنتَ قد تعرفت سيسيل فحسب، لو كانت قد أرشدتكَ في استكشاف هذه المدينة وهذا الجانب من شخصيتك الذي كان يتغذى منها؟

لكن هل كُنتَ ستحبها إلى هذا الحد، سيسيل هذه، لو لم تكن قد قمت بهذه الرحلة المُكَدِرة قبل لقائكما؟ لكن لو كُنتَ قد عرفتها حينئذٍ، هل كنت ستبتعد هكذا عن هنرييت، هل كان الأمر قد انتهى بك في هذا القطار؟

لكان كل شيء بالتأكيد قد حدث على نحو آخر، ولربما منذ وقت طويل ...

يُلقي إيطالي عجوز ذو لحية كثة بيضاء، نظرة عبر الباب.

كانت هناك طبقة ضباب خفيفة على البحيرة، ثم أخذت الغيوم تصبح أكثر كثافةً، وبدأ المطر يهطل غزيراً أكثر فأكثر فيستر الضباب زُجاج النوافذ.

عُدتما أنتما الاثنان للجلوس ثانية في هذه المقصورة، استعدت كتابك وانحنت هي على كتفك؛ لكنك لم تتمكن أن تعود للقراءة، إذ كُنتَ تشعر أن اجتياز الحدود هذا هو ليس مؤقتا فحسب بل ليس فعلياً كما كُنتَ قد ظننت، وأنك خلال الخمسة عشر يوما هذه لن تكون في الأغلب مع سيسيل كما كُنت تستطيع أن تفعل في روما ولن تتمكن أن تراها إلا خفيةً كالعادة ومن وقتٍ لآخر، وأن الحدود، حتى في هذه المرة، قد تراجعت فحسب، ولم تُلغَ، وأن مكان الانفصال سيكون في باريس بدلاً من روما، في محطة ليون في الواقع، بدلا من أن يكون في «ستاسيوني ترميني» حال رحيلك.

كُنتَ قد أغلقتَ كتابكِ، وكانت سيسيل مستغرقةً في كتابها، حانية رأسها نحوه لترى جيدا، إذ لم يكن ثمة ضياء كافٍ بسبب الغيوم والمطر الذي كان يَسقط على جبال

«الجورا»، والمساء الذي كان يُرخي أستاره على مقاطعة «بوركَونيا»، ولم يعد جسدها يمس جسدك. ولم تعودا تنبسان بكلمة أبداً.

آه، (الآن بدأتَ تُدرك؛ حينئذ أنه لم يكن هناك إلا هذا الضيق، هذا الشعور بالقلق غير المفهوم الذي كان يجتاحك كما لو أن شيئاً، شيطاناً من التعب والبرد، كان يسرقك رويدا رويدا من نفسك؛ الآن فحسب بدأت تفهم، إذ كنتَ قد نسيت كل هذا منذ ذلك الوقت، إذ كنت قد تجنبت، خلال الأسابيع الأخيرة أن تستحضر هذا النوع من الذكريات، فلم يكن لديك الوقت، وهموم كثيرة كانت تستأثر بك في الوقت نفسه؛ كان لا بد من هذا التوقف في حياتك من خلال هذه الرحلة السرية، هذه الرحلة التي لا تذهب فيها الى شركة سكابيلي، ولا تثقلك مشاكل صفقاتها، كان لا بد من هذه الإجازة كي تُحاصرك إذ لم تكن ترغب في الأيام الأخيرة أن تتأمل كل ما كان يمكن أن يجعلك تشكك بوجود هذا المَنفَذ وواقعيته الذي قررت أخيرا أن تبلغه، وباقتراب هذه السعادة وهذا التجديد)، لكن هذا لم يستمر،وأخذ يتفكك، يتهدل، ويسوء، كان الانفصال قد بدأ حينئذ، وليست الحدود قد اجتيزت مؤقتاً بل أقل بكثير مما كنت تظن، والحق يقال إنها لم تفعل سوى أن تمددت: بدلاً من أن يكون الوداع في «ستاسيوني ترميني»، بلحظات تمر سريعاً، امتد على طوال هذه الرحلة، كنتما تودعان أحدكما الآخر ببطء، بألم، بعصبية، دون أن تُدركا بوضوح ما كان يحدث، وعلى الرغم من أنكما كنتما ماتزالان جالسين الواحد جنب الاخر. فكل واحدة من المحطات التي كنتما تمران بها، «كيلوز»، «بور» ثم «ماكون» و«بون»كانت تعني مسافة اطول بينكما من كل المرات الأخرى.

كُنتَ تشهد خيانة ذاتك هذه وأنت عاجز، وكما في داخل مقصورتك كانت الأحاديث باللغة الفرنسية تحل شيئا فشيئا محل الأحاديث باللغة الإيطالية مع فترات صمت، في داخل رأسك كانت صور شوارع روما، وبيوت روما، ووجوه سكان روما التي كانت تحيط بوجه سيسيل، تتقهقر بعد كل كيلومتر جديد، أمام صور وجوه أخر حول وجه هنريت وحول وجوه أولادك، وشوارع أُخر وبيوت أُخر حول شقتك الكائنة في 15 ساحة البانتيون.

حين ذهبتما للعشاء في عربة المطعم، بعد مدينة دجون، كان في نظراتكما ثمة نداء عاطفي كأولئك الذين يشعرون بأنهم يتجهون نحو ضياع منعزل بعيد أحدكما عن الآخر، كنتما تحاولان، من خلال كلماتكما الحماسية لكن القصيرة، من خلال اعتراضاتكما المدروسة عن معنى السعادة، أن تبعدا أو أن تموها هذه الخيانة، هذا المنفى، اللذين كانا يدخلان إليكما على نحو معتم، لكن ها أنت قد أصبحت كالخطيب الذي يحتضن عبثاً بين ذراعيه جثة صديقته، هذا الحضور الكاذب لا يعمل إلا على تعميق ألم وبديهية فقدانها، وأخذت تتحول إلى الشبح الذي ستؤول إليه بالنسبة إليك طوال مدة إقامتها في باريس.

أمام نافذة الممر، حيث كانت الأشكال المستطيلة المُضاءة بإضاءة خافتة منبعثة من مصابيح القطار تكشف، على نحو متسارع جداً، عن جذوع أشجار، وتلال، وأوراق ميتة، فقد حدثتها من أجل طرد هذه الظلال التي كانت تزداد كثافة حولها، حدثتها دون توقف، منتظراً أجوبتها بنفاد صبر، كما لو أن أدنى صمت يمكن أن يُعجل باختفائها، تاركاً إياك على حين غفلة إزاء امرأة أخرى، امرأة مجهولة لا تدري ما تقوله لها، تحكي لها خاصة أسطورة «القادم الكبير» الذي يُلازم الغابات والصخور المظلمة وهو يقذف نحو كل الأصداء هذا النداء نفسه الذي لا يُفهَم على نحو جيد، كما لو كان يُنطَق بتلفظ قديم جدا، وهو على الأرجح: «أين أنت ؟»، وبقيت ثابتاً على هذه الحال حتى المحطة.

على الأرضية المعدنية الساخنة، تُثير قدم «لورنزو برينيول» اليسرى وهي تُغير مكانها، الاضطراب، وتغطي جزئيا كوكبة النجوم الصغيرة الوردية والبنية، وترمي بعيداً الكرة الورقية من ورق الصحف التي جلبها ترِحالها المعقد تحت المصطبة، إلى الجانب الآخر من الأخدود الذي تُسحب عليه الباب، مُمثلةً حدود المقصورة.

يجب الكف عن التفكير بهذه الرحلة القديمة إلى باريس مع سيسيل؛ يجب ألا تفكر إلا بيوم غد في روما.

حتى إن تدبرت أمري لآتي من أجلك فحسب، فمن أجل أن أستقرهنا، يجب أن آتي دون علم شركة سكابيلي...

– ما الأمر، ألا يُمكن أن يتقبلوا أن تسكن ولو مرة واحدة عند أصدقاء؟ هل تخشى أن يتحققوا من عنوانك، أن يستعلموا عن مستوى البناية التي تسكن فيها؟

– قد يفعلون هذا بالتأكيد حريصين على ألا أعلم لا أنا، ولا أنت، لكن هذا ليس أكيداً، وأنا أريد أن اتجنب هذا الشيء بأي شكل من الأشكال حتى... أسرة دا بونتي ...

هيا، لا تجعل منهم أناساً سُذجاً أكثر مما هم عليه، في هذه المدينة حيث من السهل عليهم، لكي يؤدوا واجبهم تجاه ضميرهم الكاثوليكي، أن يذهبوا ليتمتموا بعض الصلوات في واحدة من هذه الكنائس العديدة المتسامحة على بعد خطوتين، في «الجيزو» على سبيل المثال. ألم تُصدق بالفعل أننا نجحنا تماما في خِداع هذه النظرات العجوز الحادة ؟ إنهم يعرفون كل شيء عنا ويباركونه. لقد أرسلوا، لا تشك بهذا، واحداً من أحفادهم ليتبعك ليعرف أين تعمل، وأين تسكن. ويكفيهم، وهذا ضروري بالطبع، أن تُحتَرَم بعض المظاهر: إن أتت جارة ما لزيارتهم ونحن خارج المنزل، فالجدة العجوز أو أختها ستُريها الشقة بكاملها، وخاصةً غرفتيْ نومنا، وينبغي أن تتمكن من أن تشرح أنك ابن عمي، وأنك نمت في ذلك السرير وأن هذا يتفق مع شروط عقد السكن، فالزائرة هي أيضا ستكون نافذة البصيرة، ومتطفلة، ومستعدة للثرثرة. فَهُم يريدون أن نختفي عن أنظارهم قدر الإمكان، لأنهم يريدون أن يتأكدوا من أننا حذرين.

«هيا، فأنا متأكدة من موافقتهم، المهم هو أن نعرف كيف نتصرف كما فعلنا حتى الآن؛ إنهم لا يضايقوننا على الإطلاق بل سيرعوننا، جميعهم، حتى الأحفاد وأولاد الإخوة والأخوات الذين لا يأتون إلا من وقتٍ لآخر، والذين لن نخبرهم بأي شيء بالطبع، لكنهم سيخمنون جميعاً، سيستنشقون رائحة الأمر في الهواء، ويعرفون جميعا الاحتفاظ بالسر بقدر إجادتهم الكلام، سيحرسوننا ويحسدوننا».

كنتما، أنتما الاثنان، بين فتحة الباب، بين الغرفة المُضيئة والغرفة المُظلمة، وكانت هي تهمس لك بكل هذا ليس بأذنك بل بفمك وشفتاها تُلامس شفتيك من وقت لاخر.

«فمنذ سنوات وأنا أعيش هنا، وهم لطيفون معي، على الرغم من رفع الكلفة بيننا، على الرغم من كل هذه الخُطب الطويلة التي يشعرون بأنهم مجبرون على إلقائها عَلي

الواحدة بعد الأخرى والتي تُتعبُني، ثمة مَناطق عديدة في أفكارهم، خاصة فيما يتعلق بأفكارها الدينية، التي لم أستطع حتى الآن أن أكون فكرة واضحة عنها.

«على أي حال، كم هو بعيد دينهم الكاثوليكي هذا، إن كانوا يعرفون هذا أم لا (لكن أعتقد أنهم يعرفون ولهذا السبب أشعر بالراحة عندهم)، عما ينشره هذا الحشد من القساوسة الشبيهين بذباب متذبذب كبير الحجم يجتاح وجه روما».

«وفي كل الأحوال، فهم يعرفون (وهذا واضح للعيان؛ لو كنت تعرفهم مثلي، لاكتشفت هذا بسرعة من خلال الطريقة التي ينظرون بها إلينا حينما نخرج وأُحييهم من خلال باب المطبخ الزجاجي)، يعرفون أن ضميرنا مرتاح، أو هم في الأقل يعتقدون هذا (لا بالتاكيد، إنه ليس بلوم أوجّهه إليك، فأنا أعرف جيداً أنك أنت أيضا تظن هذا أو في الأقل تحاول جاهداً أن تصدّقه، وأُسرع لأُضيف، لكي يُغادر هذا القلق عَينيك، أن تنجح في ذلك أحيانا، وأود أن اقول غالباً أكثر فأكثر؛ بالتأكيد، صحيح أنك أحرزت تقدماً كبيراً، وأنني ساعدتك بعض الشيء خلال هاتين السنتين اللتين نعيشهما معاً، على نحو نادر جداً، وأنني ساعدتك حقاً، اعترف بهذا، في أن تُشبه هذا الرجل الحر والنزيه الذي تحلم أن تكونه، على الرغم من كل شيء، على الرغم من مكانتك، على الرغم من زوجتك وأولادك،على الرغم من شقتك الباريسية)، إنهم يعتقدون أننا مرتاحو الضمير، لا يهتمون إن كان هذا بفضل تسامحهم أو على نحو آخر. أه، كم يخدمك هذا التواطؤ العميق والحكيم!».

حينئذ، أخيراً، أتت القُبلة، وكأنها أسيرة؛ ثم ابتعدت هي عنك، أغلقت ثانيةً هذا الباب الذي صّرت فواصله من جديد، وأحكمت القفل.

«لكن بالطبع خلال بضعة أسابيع، إذا لم تقرر، ولم تطلب إليهم أن يحجزوها لك، سيؤجرونها لشخص آخر، خلال بضعة أسابيع أو أيام...

– متى يرحل؟

– الخميس، على ماأعتقد، أو الجمعة. آه، أعرف جيداً أنني تكلمت كالمجنونة؛ لقد

انفعلت، وهذا نادراً ما يحدث لي. أعرف جيداً أنك في رحلتك القادمة ستضطر أيضا أن تتركني كل ليلة لتذهب للنوم في فندقك، في حين سيكون في الجانب الآخر من هذا الجدار شخص آخر لا أعرف من. أعتقد أن وقت الذهاب للغداء قد حان».

كان شارع «فيتوريو إيمانويل» يعج بحركته المعتادة، وكان باب كنيسة «سانت اندريا ديلافالي» مفتوحاً، ومن الجانب الآخر كانت الشوارع الضيقة مزدحمة بأُناس كانوا عائدين من القداس، بشابات يرتدين فساتين بيضاء، بِشُبان يرتدون بدلات زرق فاتحة، بنساء عجائز يرتدين فساتين سوداً، وبطلاب مدارس اكليركية مشغولين يرتدون أحزمة مختلفة الألوان.

في ساحة «نافونا» التي أُخليت من جميع الموائد التي كنتَ قد رأيتها فيها أثناء مرورك بها في المرة السابقة، ثمة مجاميع عديدة من الناس تتحدث، وحولها ثلاث أو أربع دراجات بخارية كل واحدة منها محملة بشخصين، أو ثلاثة أشخاص يلاحق بعضهم بعضاً بضحكات وصرخات، مانحة هذا الفضاء الكبير المستطيل الشكل أصله السابق كسيرك.

كانت نافورة «الأنهار» تنضح بالشمس. ولولا برودة الهواء، لخلنا أنفسنا ما زلنا في شهرآب. دخلتما إلى مطعم «تريسكاليني».

فيما وراء النافذة التي كانت تزداد ضباباً، كنت تشعر أن الثلج ما يزال يتساقط، لكن أقل غزارةً. تمر محطة لا تستطيع أن تقرأ اسمها.

تستقيم في جلستكَ، جسمك متقلص، مُتعب، مفكراً أنه ينبغي لك أن تتحمل ليلةً أخرى في هذا المقعد الصلب. تنظر إلى ساعتك: إنها الثالثة والنصف فقط، ما زالت هناك ساعة قبل الحدود، أربع عشرة ساعة قبل الوصول. ها هو نفق قصير يمر.

واحد من الولدين يرغب أن يخرج، إنه الأكبر سناً، إنه هنري، هكذا سيكون هنري بعد سنة أو سنتين، لكن بهندام أفضل، وأكثر أناقةً، إذ وَفرتَ له تربيةً أفضل، سيكون بالتأكيد أقل ضخامةً منه، لكن ليس هذا ما سيزعجه مع الشهادة التي سيحصل عليها، ولن يمنعك انفصالك عن أمه من أن تراه متى رغبت في ذلك، حينما يحلو لكما أنتما

الإثنين، بدلاً من أن يكون واجباً ثقيلاً على المائدة كل مساء، وعوضاً من أن يكون من خلال هذا التعايش الثقيل والمليء بالضجيج، أن تستمر بمتابعة دراسته، أن تدفعه في خضم الحياة في وقت لاحق، وأن تمنحه كل الدعم الممكن، لن يمنعه من أن يزورك حينما ستكون مستقرا مع سيسيل، أن يأتي ليتغذى عندك، أن يصطحبك لترى على أي نحو سيكون قد رتب غرفة نومه، في 15 ساحة البانتيون، في يوم يعرف أن هنرييت قد خرجت؛ إن انفصالك عن أُمه لن يمنعك بعد، أنت تعرف أن هذا لن يمنعك، من أن تأتي لرؤيتها أحيانا؛ ستفعل هذا خفيةً عن سيسيل.

ها هو نفق آخر أكثر طولاً بقليل يمر. يجب أن تُركز نَظرك على الأشياء التي تراها عيناك، قبضة الباب هذه، هذا الرف والشبكة مع هذه الأمتعة، صورة الجبال هذه، هذه المرآة، صورة القوارب الصغيرة هذه في الميناء، هذه المنفَضة بغطائها وبراغيها، هذه الستارة الملتفة، قاطع الدورة الكهربائية هذا، جرس الإنذارهذا، على الأشخاص الموجودين في هذه المقصورة، هذان العاملان الإيطاليان، السيد «لورنزو برينيبول»، آنيس وبيير اللذان بدءآ يتثاءبان قليلاً وينهمكان في قراءتهما بشجاعة بعد أن تبادلا القُبل على صدغيهما، على هذا الولد، الأصغر سناً بين الاثنين، الذي يمسح بكُمه الضباب من على النافذة ، لكي تضع حداً لهذا التغلغل الداخلي، لاختلاط واجترار الذكريات هذا؛ كُف عن التفكير بهنري فكربهذا الشاب الذي خرج تواً، أو بأخيه بالقرب من النافذة، الذي لن يُشبهه توما بالتأكيد بعد بضع سنوات والذي يمكن أن تُسمية «اندريه» بعد أن خرج ابن أخ الأرملة وبقي هذا الاسم حرا، «سانت اندريا ديلا فالي» اسم طالما أحببته ولكنت منحته لابنك الثالث (لكنك لم ترغب بطفل آخر بعد جاكلين)، بهذين الصبيين اللذين ينبغي أن يعودا الى قريتهما الجبلية بعد أن أمضيا أسبوعاً في مدرسة تقنية أو بالأحرى تجارية في مدينة «شمبيري»، أسبوع انتهى هذه المرة في يوم الجمعة في الثانية عشرة ظهراً، بسبب شيء ما حدث في بيتهما؟ لأن والديهما كلّماهما بالهاتف صباحاً كي يعودا؟ أو لأنهما يعودان كل مساء فحسب، واليوم، أُلغيت دروس ما بعد الظهر لأن مدرساً ما مريض؟

ها هو نفق آخر يمر؛ يُضاء مصباح السقف.

يفك العامل الإيطالي الجالس بجانبك حبال حقيبته، يُخرج منها علبة جواهر يفتحها ليُري صاحبه قلادة من اللؤلؤ الزجاجي الأسود، هدية: لزوجته أو لصديقته؟ تحاول جاهداً أن تُصغي إلى حديثهما، لكنها لهجة محلية غير معتاد عليها.

ها هو بكر الولدين يعود. ما عاد هناك منظرطبيعي؛ يصبح زجاج النوافذ أسود مصحوباً بانعكاسات لأننا نمر داخل نفق، ثم يصير أبيض كالثلج.

هيا اذهب ودخن سيجارة في الممر ماسحاً البخار من على زجاج النافذة من وقت لآخر بكمك وانظر.

تستعيد من على الرف الرواية غير المستعملة وتضعها على المصطبة.

يجب الدخول ؛ ستمر الشرطة الفرنسية.

وأنت تسحق عقب سيجارتك في المنفضة، تتبين أنه لم يبق لديك إلا ثماني سيجارات، ثم تتناول الكتاب من على المصطبة وتعيده إلى الرف، تدل كل حركاتك على عصبية شديدة.

جواز سفر السيد لورينزو أخضراللون، جوازات سفر آنييس وبيير جديدة، زرقاء غلافها من الكارتون، جوازا سفر العاملين الإيطاليين اللذين جلسا محل الصبيين، أكثر قِدَماً، لكن جوازك أنت هو الأكثراستخداماً، تصميمه قديم، بُني اللون، ذو غلاف رفيع، بحوزتك منذ عام 1950، وقد مددت صلاحيته مَرَتين.

بما أن القطار واقف فقد أصبحت الحرارة أكثر ثُقلاً. تعرف أنك في «مودان»، لكن زجاج النوافذ المُضَبَبْ تماماً يمنعك من رؤية المنظر الذي لا بد أن يكون مغطى بالثلج.

حينما ابتعد رجل الجمارك الفرنسي الشارد الذهن، تبادل بيير وآنييس نظرة ارتياح. بزيه الرسمي الرمادي الأخضر، بجزمته الملطخة بطين يابس، يُجبر الإيطالي العاملَين على فتح حقائبهم التي تركاها في المكان الذي كانا يجلسان فيه قبل قليل، فتشهد أنت عملية إخراج القمصان، والجوارب والهدايا الصغيرة بينما ينظر السيد لورينزو إلى المشهد بتقزز، مُستخدماً جواز سفره المفتوح بمثابة مروحة يدوية، وفي داخله تلمح على نحو متقطع صورته الفوتوغرافية، وتنجح في أن تقرأ فيه اسمه بالمقلوب: «ايتور كارلي».

هذا الذي يجلس إلى جانب النافذة يُدعي «أندريا»، لكنك لا تملك الوقت لتقرأ أبعد من هذا؛ وينتهي اسم أسرة الآخر بـ ... etti.

بعد أن انتهيت من هذه الإجراءات، وانتهى ضجيج الأبواب والصفارات، يهتز القطار، يتوقف بهزة عنيفة، ثم ها هو الرحيل الحقيقي الآن، الدخول الى نفق مون – جيني.

فجأةً ينطفئ النور؛ ويحل الظلام التام، باستثناء نقطة سيجارة حمراء في الممر بانعكاسها غير المنظور تقريباً، والصمت على قاعدة التنفس القوي هذا كما عند النوم ودوي العجلات الذي تعكس ذبذباته القُبة غيرالمرئية.

تَنظر إلى النقاط، إلى العقارب المائلة إلى الخُضرة في ساعتك؛ الوقت يشير إلى الخامسة وأربع عشرة دقيقة فقط، والذي يمكن أن يُضيعك، فجأة تحل هذه الخشية عليك، الذي يُمكن أن يُضيعه، هذا القرار الجميل الذي كُنتَ أخيرًا قد اتخذته، هو أنه ما زالت تنتظرك اثنتا عشرة ساعة، باستثناء بعض الوقت القليل جداً، في هذا المكان الذي أصبح من الآن فصاعداً مسكوناً، بتعذيبك هذا، اثنتا عشرة ساعة من العذاب قبل أن تصل إلى روما.

عاد إليك الضياء وعاد الحديث من جديد، لكنك مفصول عنه أكثر فأكثر كما لو كان بشبكة من الضوضاء وصداع الرأس؛ تصبح النوافذ رمادية شيئاً فشيئاً، ثم تصبح فجاة بَيضاء.

فجاةً تلمح زاوية محطة تمر، وتعرف جيدا أنها تعود لمحطة «باردونيجيا»... من خلال هذه النافذة الواضحة التي خطتها يد بيير المزودة بمنديل، ومن جهة الممر أيضاً، بدأتَ تتبين شيئاً ما، حيث إن سُمك الضباب، وكثافته يُصغران حجم الهضاب التي تبرز خلفها السماء.

الثلاثاء القادم، وأنت مُتعب من رحلتك بالدرجة الثالثة، وبعد أن تكون قد فتحت بمفتاحك باب الشقة، في 15 ساحة البانتيون، ستجد هنرييت تخيط وهي تنتظرك، ستسألك كيف كانت هذه الإقامة، وستجيبها: «مثل الرحلات الأخرى».

وحينئذ فحسب ينبغي أن تحترس كي لا تفضح نفسك، إذ ستراقبك على نحو فظيع، ودون شك من العبث أن تأمل أنها يمكن أن تصدق جملتك هذه؛ ألا تعرف هي مُقدَماً أنها رحلة ليست كبقية الرحلات؟ هل ستنجح في إخفاء ابتسامة الانتصار هذه التي ستكون على شَفتيك، ألا تُخبرها بشيء، وتتركها غير متيقنة مما حدث بالضبط، ومما ستكون قد قررت؟ ينبغي ذلك، قد ينبغي ذلك؛ وبهذا سيكون الأمرمضموناً أكثر على هذا النحو.

الثلاثاء القادم، عندما تكون قد وصلت إلى باريس،15 ساحة البانتيون، حالما تكون قد رأتك، ستعرف هي أن مخاوفها، ورغباتك ستتحقق؛ لن تكون ثمة حاجة لأن تُخبرها بذلك، لن تتمكن أن تُخفي عنها ذلك، وحينئذ ستفعل ما في وسعها كي تُخبرها بتفاصيل، ستسألك متى تصل سيسيل، لكن هذا، لا تعرفه حتى أنت، لن تكون قد عرفته في ذلك

الحين، ستقول لها إنك لا تعرف شيئاً عن الموضوع بعد، وستكون هذه هي الحقيقة تماماً، لكنها لن تُصدقك، ستُلاحقك بأسئلة شفوية أو صامتة، ولن تجد إلا وسيلة واحدة للتخلص من هذا المأزق، وهي أن تشرح لها نقطة بنقطة كيف جرت الأمور.

كان من الأجدر ألا تعلم شيئاً عن الموضوع، ألا تعرف شيئاً قبل وصول سيسيل، ولكن بما أنها ستعلم ...

الثلاثاء القادم، عندما تجد هنرييت بانتظارك وهي تخيط، ستقول لها قبل أن تكون طرحت عليك أي سؤال: «لقد كذبت عليك، كما توقعتِ؛ لم أذهب إلى روما من أجل شركة ساكابيلي هذه المرة، وبالفعل لهذا السبب أخذتَ قطار الساعة الثامنة وعشر دقائق وليس الآخر، الأكثر سرعةً، والأكثر راحةً، الخالي من الدرجة الثالثة، وقد ذَهَبْتَ إلى روما هذه المرة من أجل سيسيل فحسب، لأُثبت لها أنني اخترتها على نحو نهائي بدلاً منك، ولأُعلن لها أخيرا أنني وجدت لها عملاً في باريس، لأطلب اليها أن تأتي إلى باريس لتكونَ بالقرب مني على الدوام، لتمنحني هذه الحياة الرائعة التي لم تتمكني أنت أن تمنحيني إياها وكذلك لم أستطع أنا أن أمنحك إياها؛ أعترف بهذا، فأنا المذنب بحقك، هذا مفهوم، أنا مستعد لقبول هذا، وأُقر بكل اللوم الذي تُلقينه عليّ، أن أتحمل كل الأخطاء التي ترينها، إن كان هذا يساعد ولو بشيء يسير على مواساتك، على التخفيف من الصدمة، لكن فات الأوان الآن، انتهت اللعبة، لا أستطيع أن أغير شيئا فيها، لقد حدثت الرحلة، ستاتي سيسيل؛ وأنت تعرفين جيداً أنني لست في خسارة كبيرة ،لا داعي لأن تجهشي بالبكاء هكذا ...».

لكنكَ تعرف جيداً أنها لن تبكي البتة، ستكتفي بالنظر اليك دون أن تتفوه بكلمة، وستتركك تخطب دون أن تقاطعك، وأنك ستتوقف عن الكلام تلقائياً، وستلحظ حينئذ أنك في غرفتك، وهي في السرير ،تخيط، وأن الوقت متأخر، وأنك متعب من هذه الرحلة، والمطر يهطل على الساحة...

الثلاثاء القادم، حينما تدخل إلى غرفتها، ستحكي لها بالفعل كل هذه الرحلة وستقول لها: «لقد ذهبت إلى روما لأُثبت لسيسيل أنني اخترتها بدلاً منك، كنت قد ذهبت لأدعوها لتأتي وتعيش معي على نحو نهائي في باريس ..».

حينئذ يرتفع في داخلك صوتك المذعور ويشكو: آه، كلا، إن هذا القرار الذي عانيت كثيراً لأتخذه، يجب ألا أتركه يفشل هكذا؛ ألست إذن في هذا القطار، في طريقي الى سيسيل الرائعة؟ كانت إرادتي ورغبتي قويتين جداً... يجب أن أوقف أفكاري كي أتمالك نفسي من جديد وأن استدرك، رافضاً كل هذه الصور التي تهاجمني مرة واحدة.

لكن لم يعد ثمة وقت بعد الآن، فتسلسلها المترسخ على نحو متين من خلال هذه الرحلة يسير مع حركة القطار الأكيدة، وعلى الرغم من كل جهودك كي تتخلص منها، كي تحيد بانتباهك إلى مكانٍ آخر، نحو هذا القرار الذي تشعر بأنه يفلت منك، ها هي تجرك في تشابكاتها.

هذا الذي تسميه «بيير»، الذي لم تتمكن أن ترى اسم أسرته قبل قليل في جواز سفره، لم يعد ينظر من خلال النافذة، حين ندخل في نفق وتصبح ضوضاء الماكنة الطويلة التي تحملك مخنوقا مرة أخرى كما لو كان يحدث داخل جسدك أنت؛ لم نعد نرى خارج النافذة سوى الانعكاسات المضببة لهذه الأشياء والوجوه.

كانت الساعة تُشير إلى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة بعد الظهر، كانت الشمس تدخل من الجهة اليسرى إلى «ستاسيوني ترميني»؛ لا يمكن أن يكون الجو حاراً والسماء صافية على هذا النحو، بعد غد والإثنين. كانت واحة صيف أخيرة، مُذَهِبَةً خريف روما الرائع الذي سيصبح باهتا ومُضفيةً عليه ألقاً.

مثل سبّاح يلتقي المتوسط بعد سنوات، غُصْتَ في المدينة، ذاهباً على الأقدام، حقيبة سفرك بيدك، حتى «البيركوكيرينال» حيث كُنتَ تنتظر ابتسامات النادلين المتحمسة.

لم تكن في عطلة، في تلك المرة، كان لديك موعد في شركة «سكابيلي» في الساعة الثالثة، وكان عليك أن تبقى هناك إلى ما بعد السادسة والنصف، ثم لم تتمكن من رفض تناول كأس، لتتمتع بهذا الجو الجميل جداً، على واحد من أرصفة مقاهي شارع «فيتيريو فينيتو»، بينما كانت سيسيل تنتظرك، ففي تلك المرة كما بالنسبة لجميع رحلاتك الاعتيادية الأخرى، كنت قد أخبرتها بوصولك، وأعطيتها موعداً، كالعادة، عند خروجها من السفارة، في هذا المقهى الصغير في «بيازا فرنزي»، لكن كالمعتاد كنت دائما هناك في السادسة قبل وصولها.

حينما وَصلتَ إلى المقهى أخيراً، كان بالطبع خالياً. لا، لم يترك لك أحد رسالة؛ وهذه

السيدة التي كنتَ تأتي معها عادةً، لقد رأوها دون شك، لكنها لم تبق طويلاً ولا نعرف أي وجهة اتجهت.

شارع «مونتي ديلافارينا «كانت نافذتها مُضاءة. فتحت لك الباب السيدة دا بونتي وصرخت في الحال «سنيورة، سنيورة، السنيور الفرنسي هنا».

«آه، أخيراً أنتَ هنا؛ كنتُ أتساءل عما إذا اضطررت لتأجيل رحلتك، وعما حدث».

لم تكن قد خَلَعَتْ معطفها بعد: نزلتما حالاً، تبادلتما القُبل في السلم المظلم.

كانت سيسيل تعرف إلى أين تقودك، إلى مطعم صغير في «التراستفيري» حيث كان زملاؤها في العمل مأخوذين به، وكانت تريد أن تجربه، لكن المرور بجزيرة «التبر» لم يكن بالتأكيد أقصرالطرق، فَتُهْتُما في الشوارع الضيقة و صعدتما كذلك إلى غرفتها عند عودتكما.

ها هو الخروج من النفق، تُصبح ضوضاء القطار أكثرشِدَةً، لكن ها هو الليل قد هبط تقريبا ومن خلال زجاج النوافذ الذي أخذ الضباب يختفي منه تقريبا، بدأتَ تلحظ في الجبال، على ارتفاعات مختلفة، أنواراً خافتة تُضاء. على الأرضية المعدنية الساخنة يبدو لك أن الأشكال المعينية تُشكل شبكةً يصعد عبرها الهواء الحار من فرن مُظلِم.

في مثل هذا الوقت من السنة تقريبا؛ والوقت ليلاً والجو ممطرٌ خرجتما من محطةليون أنتما الاثنان دون أن تتفوها بكلمة؛ كان هناك التعب والبرد بعد هذه الرحلة الطويلة جدا.

كان على الرصيف الكثير من الناس إلى حد أنك اضطررت لانتظار سيارة الأجرة بعض الوقت. كم كان هذا مختلفاً عن هذا الاستقبال السعيد لمدينة ما، لمدينتك، لهذه المدينة التي كانت هي بالتحديد تنتظر الكثيرمنها، وكانت مشتاقة جدا لرؤيتها مرة أخرى، التي كُنتَ أنت فيها السفير وشبه الأمير، حتى إنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بخيبة أمل حينما رأتك تائهاً فجاةً وسط الزحام،

وأسيرة إزعاجات صغيرة، تصبح في نهاية المطاف غير محتملة، كانت تأمل أن وجودك يحميها منها فقط.

لقد رافقتها حتى الفندق الذي اخترته لها، في الحي اللاتيني، ليس قريباً جداً من ساحة البنتيون كي لا تصادفها هنرييت كثيراً، فندق مريح نوعاً ما وهادئ جداً، في شارع «أوديون».

مبدئياً، كان ينبغي أن تصعد إلى غرفتها كي ترتاح قليلاً، ثم تنزل لتلقاك لتذهبا وتكمّلان السهرة معاً في مقهى لطيف في حي سان جيرمان، لكنها ضجرت، وأنت أيضاً كُنتَ قد توهمت بشأن قوة تَحمُّلك ونشاطك، إلى حد أنكما افترقتما في الشارع، وأعطى كلٌ منكما للآخر موعداً في اليوم التالي، عند خروجك من مكتبك هذه المرة لتتناولا الغداء معاً.

سيراً على الأقدام وحقيبة سفرك بيدك، سلكت شارع «مسيولوبرانس»، وكأنك تحط في مدينة غريبة، أو كأنك لم تكن تعرف أحدا، تبحث عن سكن مما كان قد عاد بك سنوات إلى الوراء، إلى زمن لم تكن فيه غنياً (اذا افترضنا أنك غني الآن)، ولا متزوجاً، كما لو أن كل ما كان يشكل أساسك، وصلابتك، ومظهرك، قد تخلى عنك فجأة، وبدا لك هذا الشارع طويلاً على نحو غريب. لم تتنفس الصُعداء، ولم تستعد ثقتك بنفسك إلا بعد أن اجتزت ساحة البانتيون الخالية، وأنت تدخل إلى المصعد.

حينما سمعتك هنرييت تدير المفتاح في قفل الباب، خرجت من الصالون حيث كانت تخيط .

- «هل تأخر قطارك؟».

- لا، أبداً،لكنني اضطررت لاصطحاب سيدة أعرفها في روما إلى فندقها. فطالما كانت لطيفة معي في روما؛ وأعتقد، أدبياً، أنه ينبغي أن ندعوها؛ إذ صرحت لي بأنها ترغب جداً التعرف إليك وإلى الأولاد، وما إلى ذلك. لنختر مساءً من الأسبوع (إنها موجودة هنا مدة اسبوعين)؛ الإثنين أو الثلاثاء ليس عندنا شيء؛ سأتصل بها هاتفياً لأطلب منها ماذا تفضل وأخبرك بِرَدِها.

«حقا لن آخذ هذا القطار المتعب جداً بعد، الذي لا يوفر إلا القليل من الوقت في روما (عصراً أو عشاءً)، وقد أخبرتهم بهذا، إن أرادوا أن أتعشى في روما، لن أسافر إلا في اليوم التالي، بالمناسبة، غداً لن أتناول الغداء هنا».

في الجبال والريف، في الجانب الآخر من زجاج النافذة الشفاف أكثر فأكثر، تحت السماء التي تزداد عتمتها، تُضاء الأنوار في القرى أكثر فأكثر، لكن القطار يدخل في نفق ليُصبح ضجيجه خافتاً أكثر. فيما وراء النافذة، أصبح ظل الباب المجاور لك ينعكس الآن على سلسلة من الصخور السود الهاربة.

أيقظتكَ الدراجات البخارية والترامواي في غرفتك الضيقة المليئة بالضجيج في «البيركو كيرينال»، فَتحتَ مصاريع الشبابيك وانتظرتَ طلوع النهار.

لم يكن المنهاج مزدحماً في شركة سكابيلي؛ لم تلق صعوبة في أن تكون في البار الصغير في «بيازا فرانزي «في الساعة الواحدة بالضبط .

كانت عطلة نهاية الأسبوع مكرسة إلى بوروميني «Borro mini»، وأخرى إلى «بيرنان» (Bernin)، وواحدة «للكارافاج» (Caravage)، «كيدو رني» (Guido Reni)، للرسومات الجدارية في بداية القرون الوسطى، وموازائيك المسيحيين الأوائل؛ لقد مرت عليك عطلات نهاية أسبوع، أمضيتها باذلاً قُصارى جهدك لتستكشف مراحل مختلفة من الإمبراطورية، إمبراطورية قسطنطين (قوس النصر في عهدها، كنيسة «ماكنس»، أجزاء من تمثالها الضخم في متحف الكابيتول)، وعطلة مكرسة إلى «أنتونان»، وعطلة مكرسة للفلافيان»، وعطلة لأسرة سيزار (معابدهم، قصورهم على البالاتان، وبيت نيرون الذهبي)، وكنتَ تُحاول خلالها أن تُعيد تشكيل الصُرُح من خلال الخرائب الضخمة المنتشرة هنا وهناك كما كانت في أيام شبابها، صورة المدينة كما كانت في أوج جرأتها؛ وكذلك، عندما كُنتَ تتنزه في ميدان روما، لم يكن هذا بين بعض الأحجار الفقيرة ،وتيجان الأعمدة المُهشمة، والجدران المدهشة وأسس من الطابوق فحسب، بل وسط حلم جد كبير كان مألوفاً لديك، متماسكاً أكثر فأكثر، دقيقاً ومسوغاً في كل زيارة.

بعد أن قادك تجوالك وتنقلك من مسلةٍ الى أُخرى. وكنت تعرف جيداً أنه للاستمرار

بهذا الاستكشاف المُنَظَم لموضوعات روما، كان يجب عليك كذلك أن تذهب، مرة واحدة، من كنيسة سان بول إلى كنيسة سان بول، من القديس جيوفاني الى القديس جيوفاني، من سانت آنييس إلى سانت آنييس، من لورنزو إلى لورنزو، لتحاول أن تعمق أو تفهم، أو تدرك وتستعمل الصور المرتبطة بهذه الأسماء، أبواباً لاكتشافات غريبة بالتاكيد حول العالَم المسيحي المعروف هو أيضاً على نحو مزيف، حول هذا العالَم الذي ما زال ينهار في الحاضر، ويتلوث، وينقض عليك، وكنت تُحاول جاهداً أن تَهرب من أطلاله ورماده في عاصمته، لكنك لم تكن تملك الجرأة لتتحدث إلى سيسيل عنه، مُدرِكاً أنها سترفض أن تفهمك، خائفاً من العدوى، وبدافع خرافات متصلة بروما.

في الشهر الماضي كان مفتاح تنقلاتك «بيترو كافاليني»، ويوم الجمعة الماضي كنت تقول في البار الصغير في «بيازا فرينزي»، قبل أن تذهب لتتغدى في «لاركو أرجنتينا» (إذ لم يكن بإمكانك أن تبتعد كثيراً في يوم من الاسبوع كهذا)، إن من الغريب أنك لم تطارد أبدا، ايزيس وهوروس يَضُمان أوزيريس، أجزاء مايكل أنجلو، أن تجمع بهذا معالم نشاطه في هذه المدينة.

حينئذ أخذت هي تضحك:

«أفهم جيداً ما تصبو إليه: «السكستين» (La Sixtine)، بالطبع؛ تريد أن تُجبرني بهذه الحيلة على وضع قَدمي في الفاتيكان هذا الذي أمقته، في هذه المدينة السرطانية التي تتمسك بجانب الروعة والحرية في ايطاليا، كيس القيح هذا المذهب على نحو غبي».

«على الرغم من كل اعتراضاتك، فأنت مُمتلىء بالمسيحية حتى النخاع، وورعك في غاية الغباء؛ وذهنيةُ أبسطِ ربَّةِ بيتٍ في روما أكثرُتحرراً منك».

«آه، كنت أتوقع أن يحدث هذا ذات يوم، لكنني أخشى كثيراً هذا السُم المتغلغل الذي حرمني الكثير من الأشياء، ويحرمني منك الآن، كي أرتكب حماقة الدخول، وخاصة برفقتك، إلى داخل هذه الجدران الملعونة، كل ما فيها يشجع جُبنك».

إنها رائعة هكذا، تسخر من نفسها ومن غضبها، مُقبِلَةً إياك لتتاكد من هيمنتها عليك، وكان من المستحيل، وغير المجدي أن تشرح لها أنها لم تفهم أي شيء على الإطلاق وتحاول أن تعطيها أفكاراً عقلانية.

«لكننا نستطيع أن نرى موسى، إن كُنتَ مُصِراً، وهل تعرف أنه يوجد في «سانت اندريا ديلا فالي» بالقرب جدا من مسكني، كنيسة توجد فيها مجتمعة نسخ قديمة من تماثيله المهمة ؟»).

إن اختلاف صوت القطار هو الذي ينبهك بنهاية النفق. تدق آنييس بأطراف أصابعها على اللوحة المعدنية المكتوب عليها «من الخطر مد الرأس من الشباك»، وتكتم تثائبة طويلة، تمر محطة «اولزيو كلافييري» بجميع مكاتبها المُضاءة بفانوس يُضيء اللافتة المعلنة عن اسم المحطة.

بيريتي أو بيريتي، أوسيروتي، كلا، سيريتي، كان «ايتي»، هو المقطع الذي استطعت أن تقرأه في جواز سفرها، يخرج وهو يعتذر، يلتقي بسيدة ترتدي معطفاً طويلاً من الفراء الأبيض، إنها إيطالية بالتاكيد، ترتدي حذاءً أنيقاً ناصع البياض، ويأخذ رفيقها أندريا، حقيبته إلى جانبك ويضعها على ركبتيه، لابد لأنه يعرف، ويشعر بأنه يقترب، فمن المحتمل أنهما سينزلان، هما الاثنان، في تورينو.

تطلب آنييس وبيير من الموظف الذي يرتدي سترةً زرقاء بطاقتين لوجبة العشاء الأولى وتطلب أنت، بحكم العادة، بطاقة لوجبة العشاء الثانية، كي لا تكون أوقات ما بعد العشاء طويلة قبل أن يقرروا إطفاء المِصباح، قبل أن تنشر اللؤلؤة الزرقاء في مركزه أشعتها الخافتة المريحة. إنك جائع؛ لكنك غير مرتاح؛ جائع؛ لكن لا شهية لك، وما يلزمك هو شيء من النبيذ أو من الكحول، إنه جوع مشوب بالضجر والتقزز، ومن الأفضل لك بالتأكيد أن تنتظر إلى أن تشعر بالجوع تماماً.

يعود فاسيلي، لا، فاسيتي، أو مازيتي، معتذراً ويجلس ثانيةً إلى جانب أندريا، ثم يضع على ركبتيه حقيبة ظهره التي كانت بين بيير ولورنزو الذي لم يحجز طاولةً لوجبة العشاء، هذه المرة، الذي سينزل إذاً في تورينو حيث تنتظره زوجته لتضع الباستا في الماء المغلي حالما تسمعه يضع المفتاح الذي يمسكه بيده في قفل الباب، المربوط في الحلقة نفسها التي يعلق فيها مقلمة الأظافر، هذه المرأة التي لا بد أنها بعمر هنرييت، حيث تنتظره ابنته أيضاً، أكبر سناً بقليل من مادلين (إذ لا بد أنه قد تزوج قبلك)، التي لا بد أنها تُثير له بعض المتاعب.

تُهيىء ابنته المائدة وتنتظر، أو بالأحرى لا، إنها ليست هنا، لقد احتجّب بأنها ستذهب للعشاء عند صديقة لها في حين أنها ذاهبة إلى بيت صديق وصرحت لها أمها أنه «في اليوم الذي سيعود فيه ابوها من فرنسا ...»، مما أثار أزمة دموع.

يفتح كانيتي أو بانيتي جيباً من حقيبته، يأخذ سكيناً، وخبزاً وزبدة، يُمرر قطعة خبز إلى أندريا الذي يفتح علبة تحتوي على حلقات رفيعة من السلامي.

سيخرج هؤلاء الإيطاليون الثلاثة؛ سيمشون معاً على الرصيف، بالخطوات نفسها تقريباً، حتى شباك التذاكر وحينئذ سيقول العاملان بود وبصوت عالٍ مع السلامة إلى لورنزو كما لو أنهم يعرف بعضهم بعضا منذ مدة طويلة، ثم تفترق طرقهم ومن المحتمل ألا تسنح لهم الفرصة للإلتقاء ثانيةً، قد يلتقون مصادفة في يوم ما في الشارع دون أن يلحظ أحدهم الآخر.

غداً صباحاً، في مكتبه، سيكون لديه بريد متأخر، ولن يعود ليتغدى إلا زهاء الواحدة ظهراً بعد أن يكون قد أرغم سكرتيرته على البقاء معه لتطبع له رسائله على آلة كاتبة قديمة من صنع شركة سكابيلي، التي تطلب إليه أن يُغيرها منذ عام، ومزاجهما هما الاثنان متعكر جداً، ولا بد أن هذا الاحتمال، فضلاً عن التعب والجوع، هو الذي يُتعِب تقاطيع وجهه التي كانت هادئة قبل قليل.

بعد أن تفحص أظافره، أعاد حزمة مفاتيحه إلى جيبه، رمقك بنظرة قلقة بعض الشيء، كما لو كُنتَ تشبه رئيسه في العمل، كما لو كان يخشى حكمك على هذا التنظيف البسيط (الذي يرتبط بشيء يخفيه مثل سر؟ تولد لديه انطباع أنه يُفشيه؟ هل هيأ يديه على هذا النحو الجيد لشخص آخر غير زوجته، لشخص آخر سينتظره في شباك التذاكر وسيذهب معه للعشاء في واحد من مطاعم البيازا سان كارلو؟).

هاتان العينان اللتان رفعهما نحوك، تقرأ فيهما لا الدهشة بل الشفقة تقريباً، كما لو كان وجهك أنت قد تغير، كما لو كانت تقاطيع وجهك مُتعبة، وعيناك تائهتين، كما لو كُنتَ قد شخت بضع سنوات منذ المرة الأخيرة التي نظر إليك بها بشيء من الانتباه؛ أشاح بوجهه عنك.

يلتقي عامل عربة المطعم الذي يدق جرسه، بامرأة ترتدي فستاناً أسود، إيطالية محنية الظهر كعرافة نحيفة من «كوم»[1]، تشبه السيدة دا بونتي العجوز، أغلق بيير الكتاب الذي لم يعد يقرأه منذ وقت طويل، يَنهض، يُرتب ربطة عنقه أمام المرآة، يَعبر من فوق قدميك. تمر محطة «بوسولينو» بأضوائها وسط الليل الذي بدأ يدلهم، تخرج آنييس بدورها، يدخل القطار داخل نفق فيغوص ضجيجه.

دَفَعتَ الحساب والتفتَ نحوها قائلاً: «ربما لدينا الوقت لنذهب إلى هناك قبل أن نتغدى»، لكن باب الكنيسة الكبيرة كان مغلقاً حين وصلتما إلى شارع «فيتوريو إيمانويلا»، حتى إنكما لم تتمكنا أن تدخلاها إلا مساءً؛ لكن الظلام كان دامساً في هذه الكنيسة بحيث أنك لم تر شيئا إن صح القول.

كانت الشمسُ قد غابت؛ وهَبَتْ ريحٌ باردةٌ كانت تفجر على سكك الترامواي زوابع من الغبار البنفسجي، كنت تسرع، تريد أن تمر بـ «سان بيير أولين» قبل العشاء لأن الوقت كان يبدو لك ملائماً. كُنتَ تتذكر أنكَ رأيتَ موسى (هل كان هذا أثناء رحلتك مع هنرييت ؟) وسط ظلام شبه تام، وكان الضوء مسلطاً عليه، هو وحده، على نحو مكثف، إلى حد أن قرنيه كانا يبدوان كأنهما حقاً قرنين من الضياء.

الباب الكبير مغلق والليل يسدل أستاره على روما مع نجوم تتلألأ فوق الفاتيكان، فوق هذا البخار الذي يتصاعد من الشوراع حيث المصابيح والإعلانات الضوئية تسيقط بين السطوح الغارقة في الظلام، فوق هذا الصخب الذي تتخلله ضربات المكابح وصرير آلات تحويل سكة الحديد، وثمة ضجيج آخر ينضح من مصاريع الأبواب، انبعث من نوطات الأرغن، وأناشيد مخنوقة تُشير إلى أن هناك مراسيم في الداخل.

درتما حول المكان،واجتزتما حديقة الدير؛ كان سلام القربان المقدس، كان المذبح مُضاءً بشموع ومصابيح؛ وثمة غيوم من البخور، ونساء راكعات يهمهمن في عمق جناح الكنيسة؛ والكثير من الأجانب، واقفون، ينظرون إلى تمثال موسى الذي يبدو المرمر المصنوع منه مغطى بزيت أو بدهنٍ سائحٍ أصفر اللون مثل تمثال إله روماني قديم.

1- مدينة إيطالية.

سحبتك سيسيل من يدك، ووصلتما إلى شارع «كافور» المُضجِر.

قالت: «ينبغي أن نعود غدا».

– لكن سيكون لدينا الكثير من الأشياء لنراها.

– أي أشياء، إذا حذفنا وسنحذف، أنبياءك، وعرافاتك، ويوم قيامتك، وخلق كونك؟

– «مريم العذراء والملائكة»، على سبيل المِثال، في ينابيع المياه المعدنية لـ ديوكليسيان، فضلاً عن الصومعة.

– مع تمثال «سان برينو» الشنيع الذي لا أدري أي نحات فرنسي نحته.

– هودان؛ من الأفضل رؤيته في باريس، ينبغي الإقرار بأن «برنو» هذا هو أحد أكثر القديسين إزعاجاً فيما يتصل بالفن.

– وما تبقّى ؟

– لا أعرف؛ لا أرتاح إليهم.

– يوجد إذن من ترتاح إليهم؛ ينبغي عليك أن تتجنب كالطاعون سلام «القربان المقدس». أواذهبْ وشاهدْ واحداً منهم، استنشقه، وتذوقْ واحداً منهم في كنيستك الغالية «سان بيير»، العظيمة، كي تشفى مرة واحدة؛ لكن لا تعتمد علي لمرافقتك، سأنتظرك في مطعم صغير كي أواسيك بعد هذه التجربة المريعة، وسأرقب نومك المليء بقديسي «برنو» العديدين، لجزء من الليل فحسب... قبلني.

– «ليس هنا؛ في مطعم البيتزا».

هناك عمال جالسون حول موائدهم يلعبون الورق، أحدهم ثمل جداً.

«ثم، المسيح مصلوب، أعتقد، في سانت ماري سور لامينيرف» (Sainte–Marie sur la Minerve)، الكنيسة القوطية الوحيدة في روما.

– واحدة من أكثر الكنائس قبُحاً في العالم؛ إنها في حَيّنا، سنتمكن من الذهاب إليها عندما نخرج من قصر «فارينزي» مباشرة.

– ومن ثم نذهب لنتغدى بالقرب من «لا بورتابيا»، لكن له ثمة جانب واحد فقط.

– سنتأكد من هذا بعد قليل في دليلي السياحي «الازرق» الذي يعود إلى ما قبل الحرب؛ ثم هناك شيء آخر، شيء لم اره أبداً، في فيلا، أعتقد أنه بعيد نوعا ما، بييتا (Pieta)، ألا تعرفينه؟

– في اليوم التالي كذلك، ركبتما سيارة أجرة لتذهبا إلى فيلا «سانسيفيرينو»، لكن، حين وصلتما الباب، رأيتما أنها لا تفتح إلا يوم الإثنين من العاشرة إلى الثانية عشرة.

هكذا كان لديك الوقت الكافي لتتامل تمثال «موسى» بهدوء في «سان بيترو إن فينكولي»، قبل ساعة القداس، قبل غياب الشمس، وحدكما في جناح الكنيسة الخالي والبارد جداً، من دون إضاءة قوية؛ التمثال شاخص كشبح في مخزن أعلى المنزل، وكنت تشعر وأنت تذهب من مكان إلى آخر، من عملٍ فَني إلى آخر، أن ثمة شيئاً مهماً ينقصك، شيئاً كان في متناول يديك لكنك ممنوع من رؤيته بسبب سيسيل، شيئاً لم تكن راغباً أن تحدثها به، لكنك كنت تعرف جيداً أنها هي أيضاً كانت تفكر فيه، مسحوران أنتما الاثنان بهولاء الأنبياء وهؤلاء العرافات، وبيوم الحساب الغائب هذا، مدركان جيداً عبثية نزهاتكما هذه المرة، صامتان وليست بكما حاجة للتعبير عن خَيبة أملكما، ليقول كل منكما للآخر: «نعم، تمثال «موسى» لكن باستثناء هذا..». إذ كنتما أنتما الإثنان تعرفان جيداً ما يوجد في روما من أشياء أخرى، متذوقين بخجل وألم مرارة ما لا يمكن أن يُسمى إلا جُبنكُما، وحتى عند الباب المُغلق لفيلا «سانسفرينو»، إن كنتما قد شعرتما ببادرة غضب فقد لزمتما الصمت بسرعة، متأكدين تماماً أن هذه الـ «بييتا» مهما كانت مؤثرة، ما كانت لتسوي الأمور وتملأ الفراغ.

بينما كانت تطبخ، في شارع «مونتي ديلا فاينا» وأنت مستلق على الأريكة تتصفح عدد «إيبوكا» (Epoca) التفتت وهي تمسح يديها بمنشفة مخططة بثلاثة ألوان: ثمة أيام لا أطيق فيها روما أبداً...

– متى ستكون إجازتك القادمة ؟

– نعم، للإجازة فقط ؛ أنتَ لا تأتي هنا إلا للإجازة، في هذه الغرفة؛ لا تأتي إلى روما إلا من أجل «سكابيلي»، بعد قليل، ستعود إلى فندقك «البيركو». آه لو أستطيع أن أثق بك، لو استطعت أن تقدم لي بُرهاناً».

(لقد أخذت القطار هذا الصباح في الثامنة وعشر دقائق لِتُقَدِمَ لها هذا البرهان)؛ وبينما كنتما مستلقيان، والمصباح مُطفَأ، وأنت تنظر من وقت لآخر إلى الأرقام اللماعة في ساعتك حول رسغك، وبينما كانت تهمس لك: «لا تأت متأخراً غداً صباحاً، سأُعدُ شاياً وخبزاً مُحَمَصاً»، أغلقتَ فمها بتقبيلها، لكن في صباح اليوم التالي كنتما قد نَسيتما.

فيما وراء النافذة، سطح الأرض أسود الآن مثل أعماقها (لم يعد القطار يحدث الضجيج عينه الذي يحدثه وهو داخل النفق)، وفي السماء لم يعد الآن إلا بضعة خطوط خضر، وبضع غيوم ما زال بإمكاننا أن نُميزها، وتظهرمن بينها بعض النجوم، كما يظهر على الهِضاب ضياء جميع المنازل، وضياء السيارات على الطرق الخارجية.

في باريس، عندما كانت سيسيل في إجازة ولست أنت، تقريباً في هذا الوقت من السنة، بعد الدقائق الطويلة في مكتبك حتى الثانية عشرة ظُهراً، كما لو لم تكن مديراً بل موظفاً، وجدتها في الأسفل تنتظرك تحت المطر، بمعطف مطري أصفر فاتح مع قبعة للرأس، يداها في الجيب، وقدماها مبتعدتان.

«أي طقس هذا!».

– الا تُقبلني ؟.

– ليس هنا، ليس في هذا الحي، ياعزيزتي. أنا مُتأسف أنك بقيت تحت المطر؛ في المرة القادمة ...

– آه، ما أهمية هذا بالنسبة إلي؟ ستكون مُضطراً للغداء مع زوجتك في المرات القادمة ...

– ليس كل يوم .

– لكن تقريبا .

– ليس مع زوجتي فحسب؛ ستكون هناك مواعيد غداء عمل أيضاً، كما في روما.

– في هذه الحالة سيكون نصيبي أقل بعد.

– أنتِ هنا لمدة اسبوعين ...

– أعرف هذا، ستمر بسرعة. سنأخذ القطار ثانية ...

– لا تفكري بهذا منذ الآن. أين سنذهب؟

– أنت الذي تقودني هنا.

– الخيارات جد كثيرة. ألديك رغبة معينة؟

– قُدني، أُريدها أن تكون مُغامرة.

– الضفة اليمنى من نهر السين أم الضفة اليسرى؟

– في الضفة اليمنى عملك وفي الضفة اليسرى زوجتك، من الصعب اتخاذ قرار.

– سنذهب إذن إلى الجُزر. لا أدري ما يوجد فيها، لكننا سنجد شيئا بالتاكيد. ها هي السيارة.

بعد شبابيك التذاكر في متحف اللوفر، يميناً، من خلال زجاج النافذة الممطر، خلف وجه سيسيل الجانبي الذي كان مُسترخياً، مَر قوس النصر لساحة الكاروسيل ومن بعيد، وعلى نحو غامض، مَسَلة ساحة الكونكورد، وحين كنت تحاذي نهر السين، ظهرت أبراج كنيسة «نوتردام» الرمادية مهيمنةً على سطوح الأبنية.

جلستما في مطعم صغير، شراشف موائده مربعات حمراء وبيضاء يطل على رصيف.

تَحَدثتُ عنكِ إلى هنرييت ...

– كيف ؟

– أه، لم أقل لها شَيئاً، لا تقلقي، كُنتُ أظن أنك ترغبين بالتعرف إليها، ورؤية منزلي وأولادي، ثم ألَم نتفق أنها لا بد أن تعرف في يوم من الأيام ...إذ لا بد من ذلك، أليس كذلك؟

– نعم، بالطبع لا بد من ذلك.

– وبما أنه ينبغي أن تكون على علم بهذا ذات يوم، فمن الأفضل انتهاز هذه الفرصة لتهيئتها تدريجياً، فلطالما قلنا إننا نريد أن نتجنب مأساة، أليس كذلك؟

– نعم، نعم، لقد اتفقنا على ذلك.

– من الضروري إذن أن تلتقيا. ستعجبين بها، سترين هذا؛ ستسير الأمور على ما يرام؛ ستُقر بخصالك، بحيث إن اليوم الذي ينبغي أن تعرف فيه سيكون الأمر أكثر سهولةً بكثير.

– بالفعل، سيكون كل شيء أسهل بكثير بالنسبة إليك.

– لماذا تسخرين مني؟ هل أنا صاحب هذه الفكرة؟ كان بإمكاني ألا أتكلم عن مرورك في باريس؛ أنتِ التي تكررين علي أن لا داعي للاستياء وأن كل هذا في الحقيقة سهل ويجب مواجهة الأمور بحزم. ويجب علي أن أترك طريقة التفكير المتخلفة هذه المتأتية من هذه التربية الدينية والبورجوازية التي لم أفلح في التخلص منها؟ ألم تقولي لي هذا مئة مرة ؟ ولذلك فقد حدثتها عن امراة من روما، أخبرتها باسمك (لم أعد أتذكر إن قلت لها اسمك أَوْ لا)، وأنك قدَّمت لي خدمات كثيرة وينبغي أن ندعوك، وسيكون هذا لائقاً...

– وما هو رأيها؟

– لا أدري ما هو رأيها، قالت لي الإثنين أو الثلاثاء، اختر أفضل ما يناسبك. إنها بالتأكيد حذرة بعض الشيء، لكن هناك الفضول أيضاً، لا بد أنها تقول مع نفسها، بتربيتها الدينية والبرجوازية ... فهي التي تحمل هذه التربية الدينية والبرجوازية، ولا تريد أن تتخلص منها البتة، بل على العكس تترسخ لديها أكثر فأكثر، تزداد قوة وانغلاقاً منذ سنوات؛ لم تكن هكذا عندما عرفتها، ولهذا السبب لم أعد احتملها وأحتاج إليك كثيرا لأنك تجسدين التحرر، وأنت تعرفين هذا جيداً؛ لكن ينبغي أيضا أن أحاول ألا أكون فظاً معها، بسبب وجود الأطفال، بسبب... تعرفين جيداً لماذا، وإن كنتُ أحبك إلى هذا الحد، فلأنك تفهمين جيداً كل هذا، وأنتِ التي قلت لي كل هذا وأن كل هذا يبدو لك بسيطاً ويبدو لي بسيطاً أيضاً عندما أكون معك، لكن معها ...آه، إنها لا تتفوه بكلمة، خاصة هذه الأيام لا تَقُلْ لي أي شيء، لكنها ليست بها حاجة لقول شيء ما؛ فمعها، كل شيء معقد على نحو سخيف وقاتل، أتفهمينني جيداً؟

– بالطبع افهمك جيداً.

– لماذا إذن تجبرينني على هذا الشرح المُضني؟ إن كنتِ لا ترغبين بالمجيء، فالأمر في غاية البساطة، لن يَغيظَها على الإطلاق.

– بالتاكيد أريد أن آتي، أريد أن أرى هذا المنزل، وهذه النوافذ التي تطل على قبة البانتيون، أثاثك، كتبك، أولادك، زوجتك، بالتأكيد أريد أن أرى وجهها، صمتها،

ابتسامتها الساخرة المتوترة التي لم تصفها لي غالبا (فلم تُحدثني عنها غالبا في روما، تاركاً كل حياتك الباريسية خلفك كما لو لم تكن تريد أن يكون لها وجود، في الأقل بالنسبة إلي، كما لو كنتَ لا تريد أن تكون لي إلا هذا الذي التقيه لسوء الحظ إلا نادراً)، ليس غالبا، ولكن بكلمات وتحفظ، بتشنجات لا يمكن أن أنساها، لا أدري كيف هو شكلها هذه المرأة، إنك متشبث بها إلى هذا الحد.

– لا تكوني غيورة، ما من سبب يجعلك غيورة.

– لست غيورة؛ كيف يمكن أن أكون غيورة وأنا أعرف جيداً أنني أجدد شبابك ؛ يكفي أن أرى كيف أنت في روما، وأي رجل أنت هنا في باريس، أنا لست غيورة.بما أنني سأذهب لمواجهة هذا الوحش وهو في عرينه.

– وحش؟ بل امراة مسكينة تعيسة تريد أن تُغرقني معها في ضجرها.

– سأذهب لأراها، هذه المرأة المسكينة، يمكن أن تخبرها، سأذهب يوم الإثنين؛ ستستقبلني، سألعب دوري جيداً، سأمثل دور السيدة القديرة، البسيطة جداً، سأرقبها، سترقبني، سنكون لطيفتين.

– ستكونين لطيفة .

– سنكون لطيفتين نحن الاثنتين، سترى كم أنني أعرفها جيداً. سأعاملك وكأن علاقتي بك رسمية جداً، كشخص أديت له خدمة بالفعل.

– هل ستكتشف شيئا ؟

– لن تُظهر شيئاً.

– يجب ألا نضحك.

– لن تكون لديك رغبة في الضحك، ولن ترغب في رفع الكلفة بيننا، هكذا أنا مرتاحة، على الرغم من أنك مدير فأنت طفل، في الأقل حينما تكون معي، ولهذا أنا أحبك، فأنا أرغب أن أحولك إلى رجل، وهذا ما لم تتمكن هي أن تفعله، على الرغم من المظاهر. لم تنجح إلا في أن تحولك إلى نصف عجوز، وأنت لا تتقبل هذا وهذا بالطبع سيىء، اتركنا لشأننا وسنعرف كيف نتصرف، ستُقِرهي بخصالي، بينما تتكوى أنت على

الجمر، سنتبادل عبارات ودية، في النهاية، سأقول لها إن سهرتها كانت ممتعة؛وحينئذ ستدعوني إلى العودة ثانية، وسأوافق، ها أنت ترى أنه على الرغم مما يبدو أنك تعتقده فأنا لا أكرهها أبدا؛ هل سبق أن اثبت لك هذا ؟

– اذاً، اتفقنا ... يوم الاثنين ؟

– اتفقنا.

لم يعد لديكما ما يقوله أحدكما للآخر، كان ينبغي أن تنتظرا هذا اللقاء. وقد حان الوقت أخيرا للبدء بتناول هذه المقبلات التي وضِعَت منذ مدة طويلة. كان ينبغي عليكما أن تُسرعا، فالوقت قد مر بسرعة. كنتما تقضمان الزيتون وأنتما تنظران عبر النوافذ إلى الماء يجري على السيارة السوداء ذات الخمسة عشر حصاناً وصدر كنيسة نوتردام ظاهرٌ في العُمق.

على الأرضية المعدنية الساخنة، يبدو لك أن الأشكال المعينية تتموج كالقشور على جلد ثعبان كبير. وحده ضياء المنازل في الريف، وضياء السيارات ومحطات القطار يُلقي انعكاساته الآن على زجاج النوافذ، مشيراً بكسرات هاربة إلى الصورة المقلوبة لهذه المقصورة خلف الوجه الجانبي لأصغر العمال الإيطاليين.

أخيراً بدأت السماء تنكشف بعد طلوع النهار المتوسطي الرمادي، البارد جداً قبل مدينة جنوة، بعد هذه الليلة المُضنِية التي صَلَبَتْ لك جسدك، والتي كنتَ قد اجتزت خلالها، تحت مطر غزير، ريف روما دون ضياء، باستثناء محطات القطار شبه المقفرة، من وقت لآخر، مع هزهزات بسيطة لعربات الحِمل، بعض كلمات التعجب من أشخاص غير مرئيين أو أخذوا يبتعدون على الرصيف المليء بالمطر حاملين فوانيس مهتزة، لم تنم أثناءها إن جاز التعبير، تنظر إلى ساعتك في أغلب الأحيان، تحسب الساعات التي بقيت لك قبل طلوع النهار، قبل أن تجتاز الحدود، قبل أن يهبط الظلام في الليلة المُقبلة، الوصول إلى باريس، اللحظة التي يمكنك فيها أخيرا أن تنام في شقة 15 ساحة البانتيون، تدندن مع نفسك قائمة محطات القطار، في الأقل الرئيسة منها، التي بدأتَ تعرفها عن ظهر قلب منذ زمن بعيد، والتوقفات، وبعض آخر منها يرتبط بمشاريعك، بأحداث عابرة، أو عبر مسيرة التاريخ بكامله بحدث أو صرحٍ مُعين، تنظر إلى نوم هنرييت

المتقطع التي كانت قد بدات تقترب منك شيئا فشيئا، التصقت بك لتتجنب البرد، وضَعَتْ رأسها على كتفك، شعرها الذي كُنتَ تداعبه كما لم تفعل منذ زمن بعيد، لربما منذ الحرب، كما كنتَ قد حلمتَ أن تفعل في ظل روما مشمسة في المرات الأولى التي كنت قد تحدثت فيها عن هذه الرحلة، منذ سنين عديدة، تداعبها وأنت تقول مع نفسك إنه من الآن فصاعدا يمكنك أن تضمها اليك حقا أثناء نومها فحسب، أن تكون فعلاً إلى جانبها، وأن روما هذه التي كان ينبغي أن توحدكما، الآن، بعد هذه الإقامة المكدرة، بعد استئناف رحلة شهر العسل الفاشلة هذه، ها هي روما التي كنتَ تشعر بأنك متعلق بها على نحو فظيع، تَشخص بينكما كبيرة جدا، لِتُفرقَ بينكما (لم تكن قد شعرت قط بقوة الانجذاب هذه إلا وأنت تبتعد عنها هذه المرة، بعد أن حُرِمت منها وأُبعدت عنها من قبل هذه المرأة التي كُنتَ تداعبها وأنت تكرهها)، روما هذه التي كنتَ ترغب الآن معرفتها والتعمق فيها إلى حد كبير، الآن بعد أن عرفت، من قبل هذه المرأة ذات النوم المتقطع، التي كانت تشكو وهي تغمغم على كتفك، أنك غير قادر على الحديث عنها، من قبل هذه المرأة التي كانت تشكو من خيبة أملها المريرة والتي لم تكن قادرة بالفعل على مساعدتك بأي شيء كان لأنها كانت تنتظر كل شيء منك في هذا الميدان الذي كانت تشعر شيئا فشيئا أنها أُقْصِيَت عنه وكانت تنتظر منك أن تُدخلها اليه كي تستعيدك كما كانت قد عرفتكَ قديما، أثناء رحلتكما الأولى قبل الحرب.

أخيرانكشفت السماء، وانقشعت الغيوم، فإن كان المطر قد توقف منذ مدينة «بيزا»، فقد بقيت الغيوم ثقيلة ومنخفضة كغيوم باريس في مثل هذا الوقت من العام، مغيرة طبيعة المنظر ولون البحر الهادىء، وفي المقصورة الصامتة باستثناء صوت العجلات والسكك الجهير المستمر هذا، وهذا التذبذب المستمر لكل الأشياء المعدنية، كان كل واحد يفتح عينيه، يرخي يديه، يلوي رقبته يميناً وشمالاً ويحك شعر رأسه المنفوش.

أخيراً، كانت شمس الشتاء الحادة قد اخترقت هذه القشرة من الصوف المليء بالشوك؛ أخيرا بدأ تما تتحدثان؛ قالت لك: «لم نوفق في اختيار الوقت المناسب للذهاب الى روما».

وكنت تعرف أنها محاولة لمسامحتك، وسيلة لتجنب التصريح لك بأنك كنت قد أسأت اختيار هذا الوقت عمداً، لتتخلص من رغبتها في المجيء وإزعاجك مرة أخرى، إنها كانت تحاول أن تمحو هذه الأيام المعدودة، عارفة جيداً في أعماقها أنه أمر مُستحيل، حيث إن فشل هذه الرحلة، والانفصال الذي كانت قد حملته لم يكن إلا تأكيداً وتعزيزاً لهذا الفشل الذي كانت تشعر به فيك وتلومك عليه، هذا الانفصال بينكما الذي شَعَرَتْ به يرتسم منذ سنوات وكانت قد اعتقدت بأنها يمكن أن تمحوه بوساطة هذه المدينة حيث كانت تظن أن وجودك القديم والحالي يلوذ بها، لكن في حلم فحسب، وكانت الدراما، كان الأمر بديهياً من الآن فصاعداً، في حلم لم يكن بها حاجة للشرح، بحيث إنها كانت محقة في احتقارها.

باختصار، من أعماق نظرتها كنت تبلغ واحدة من ابتساماتها؛ كانت تحاول أن تردم الهوة بقفزة واحدة، أن تلم شفتي الجرح؛ كانت تحدثك عن باريس، عن الأولاد الذين كانوا ينتظرونك في بيت والديها؛ استؤنف الحديث بينكما؛ الحديث الاعتيادي، الذي لم يعد يكفيكما، لكنه أفضل من لا شيء وكان لا بد، حينئذ، في الأقل أن يُستأنف الحديث، إذ لا تملكان البديل، لا تملكان البديل بعد.

اجتزتما مدينة «تورينو»؛ هذا المنظر بعينه، الذي يُخيم عليه الليل الآن، الذي كنتما تمران به، اللامع بضع لحظات تحت الشمس، هذه الهضاب المُغطاة بالثلج وبعد قليل تغطي الجبال، لكن بينما كنتما ترتفعان عن مستوى سطح البحر كأنكما تعبران هذه الأنفاق، افترشَ البخارُ زجاج النوافذ وتحولَ بعد ذلك إلى صقيع فضي، وكل هذا الفضاء الرحب من الوديان والقرى الذي رأيته تواً يختفي عند الغسق خلف غابة كثيفة بيضاء يرسم فيها اظفر طفل حروفاً واشكالا.

وفي الجانب الآخر من الحدود، بعد اجتياز نقطة الجمارك، حينما استعاد زجاج النوافذ شفافيته، كان الثلج، ثم المطر في منطقة «الجورا»، ثم الليل مخيماً على «ماكون»، كل هذه الكيلومترات التي تتتابع ببطء شديد، والتعب يستعيد طغيانه، ووجه هنرييت وقساوته وقلقه.

وأنت تجتاز غابة فونتينبلو حيث كان «الصائد بالكلاب» يصرخ بك: «هل أنت مجنون؟»، كنت متلهفاً أن تكون أخيراً في باريس، في غرفتك في سريرك؛ وحينما استلقيتما هَمَسَتْ لك:

«أشكرك، لكنني سأموت، لقد كانت هذه الرحلة طويلة جداً!».

استدارت على الوسادة وغفت في الحال.

بيد أنك تعرف جيداً، أن ما شَكَرَتكَ عليه هو ليس اصطحابك لها إلى روما، إذ إنك لم تصطحبها حقا إلى روما، بل لأنك أعدتها إلى باريس حيث إنها، من الآن فصاعداً، إن كانت ستبتعد عنك حتماً، فعندها في الأقل هؤلاء الأولاد، وهذا الأثاث، وهذه الجدران، وهذه العادات، وهذا الأساس.

ثمة رجل عند الباب، رجل عجوز، يتلفت يميناً ويساراً، مديراً وجهه الملتحي مثل «حسقيل»(Ezéchiel)[1]، ينظر برهةً انعكاس صورته الدقيق، الذي يرتجف على زجاج النافذة، تخترقه بصعوبة بعض الأضواء البعيدة التي تمر.

بالتأكيد كان هناك يوم السبت حيث شعرتما برغبة شديدة لتلتقيا ويقبل أحدكما الآخر.

«هل أخذتَ تتآلفين من جديد مع باريس خاصتك؟».

– تآلفت معها منذ الليلة الثانية، فأنا أجد طريقي في هذه الشوارع كما لو لم أكن قد تركتها أبداً. لقد تغير كل شيء بالتأكيد، منذ ذلك الزمان، لون المخازن وتخصصها في الأغلب؛ فقد وجدت مكتبة حمراء حيث كنت قد تركت مخزن لوازم خياطة أسود ورمادي، ولكن هذا بمثابة زينة عيد لاستقبالي.

– وأنا الذي كنت آمل أن اصطحبك فيها، أن أجعلك تكتشفين كل هذا كما تكشفين لي روما.

– هذا بالضبط ما أنتظره منك.

– لكن إذا كنت تعرفين كل شيء مقدما ؟

1– نبي يهودي (592–570). أعلن لليهود الأسرى في بابل دمار القدس.

– لقد نسيت كل شيء، يجب أن أرى كل شيء مرة أخرى ؛ فأنا لا أتذكر الأشياء إلا حينما أراها مرة ثانية أمام عيني، قديمة كانت أو متجددة الشباب أنا متاكدة أنك تعرف الكثير من الأماكن المرموقه التي لم تطأها قدماي أبداً...

– أي منها ؟

– إنه لسؤال غريب؛ اصطحبني حيثما شئت، سأكتشف شيئاً أحببته، شيئاً أحلم به على نحو غامض في روما، أو سبباً جديداً يجعلني أندم لعودتي إليها بهذه السرعة، فعندما لا تكون هنا فأنا فيها وحدي، بعد أن ارتكبت حماقة وتعلقت بك.

– كنتما تنزلان جادة الأوبرا في نهاية الخريف.

إنكِ لا تعرفين بالتأكيد القاعات الجديدة في متحف اللوفر، لكن من غير المعقول أن نمضي أوقات ما بعد الظهر هذه في متحف.

– لكننا من زبائن «فيلا بوركيز» وقصر باربريني.

– لكن هذا في روما.

– ألا ينبغي أن أكون في باريس كما تأتين إلى روما.

– ينبغي إذاً أن ندرس هذه المدينة بالاهتمام نفسه.

– ينبغي أن آتي إليها أكثر، أن أبقى فيها وقتاً أطول، أن استقرفيها، ولذلك فأنا أثق بذوقك، وبأدنى رغباتك، منذ متى رأيتها إذاً؟

– منذ سنة في الأقل، ربما سنتين، لم أعد أتذكر.

– واليوم ترغب أن تعود لتراها لأنني هنا، ولأنني هنا لا تجرؤ أن تعود لتراها خشية أن يتنابني الضجر؛ علماً أنني لست جاهلة بالرسم إلى هذا الحد، ما هذه الخشية المفاجئة، وهذا الوسواس، كما لو كنت بالنسبة إليك فجأة إنسانة غريبة ؟ أليست أذواقنا متقاربة؟ عندما تكون في روما، تقول لي بصوت مليء بالحماسة، وبعيون تلمع كأنها تتلقى متعة قريبة، بجدية ترفض أي اعتراض، يجب أن نذهب لنرى هذه الكنيسة، تلك الخرائب، هذه الصخرة وسط الحقول أو المندمجة مع البيوت؛ ألم أتبعك باستمرار، لست مطيعة فحسب، بل شغوفة؟

– لأنكِ يمكن أن تذهبي وتشاهدي كل هذا من دوني فحسب.

– ولِمَ ترغب أن أرى هذا من دونك؟ لِمَ تزعج نفسك من أجلي ؟

– لِمَ تبدين قاسية في كلامك في حين أنني لا أبحث إلا عن إرضائك ؟ هل أحتاج حقاً أن أقولَ لك أنك لا يمكن أبدا أن تكوني مصدر إزعاج بالنسبة إلي ؟

– أبدا؟ في أي مكان كان؟

– كل ما تبقي هو مصدر إزعاج، هنرييت التي تفرق بيننا حتى عندما تكونين بالقرب مني في باريس. وإذا بدأت أنت أيضاً تعقدين الأشياء، كيف لي أن أكون طبيعياً ؟

وهكذا اجتزتما بعد وجبة الطعام هذه القاعات دون أن تتبادلا الكلام تقريبا إلا قبالة التماثيل الرومانية والمناظر الطبيعية لكلود لوران ولوحتى «بانيني» اللتين تأملتما بشغف جميع تفاصيلها.

بعد أن تركتها بوقت طويل، مساءً في فراشك بالقرب من هنرييت التي كانت نائمة، تذكرتَ أنك نَسيت الدعوة التي كنت قد وجهتها لها باصطحابها في السيارة إلى ضواحي باريس في اليوم التالي، وأنك قلت لها «الى اللقاء يوم الإثنين» فحسب.

وفي يوم الإثنين، لم تُحدثك قط عن هذا، كانت أنيقة جداً. تبادلتا نَظرةَ تحد عندما دَخَلَتْ إلى صالة الجلوس، تفحصت إحداهما الأخرى كمتصارعتين مستعدتين للهجوم، وبانتظار هذا الانفجار الذي كُنتَ تخشاه كثيراً، كانت يدك ترتجف وأنت تصب النبيذ على نحو جعلك تُمسك الكؤوس بيدك لتملأها على وفق التعليمات المكتوبة في قوائم الطعام في مقصورة المطعم، كما لو كانت كل صالة الجلوس تهتز، كما لو كان الجميع مهدداً باهتزاز كبير، بكبحة فرامل عنيفة عند مدخل محطة قطار.

كانت مادلين وهنري فقط معكم على المائدة (توما وجاكلين كانا قد تناولا عشاءهما في المطبخ وذهبا إلى فراشيهما)، ينظران إلى السيدة وينظران إليك، يتأملانها بإعجاب، لم يفوها بكلمة، وحرصا على التصرف على نحو لائق، تقطعان اللحم في صحنيهما إلى قطع صغيرة، آكلتان بروية، ماسحتان فَمَهما بعناية قبل أن يشربا جرعة، شاعرتان بالحرج من جراء ارتباكك غير المعتاد، شاعرتان أن لدى هذه المدعوة شيئاً يعنيك على نحو خاص،

وأنها هي التي تجعلك بهذه الحال. مدركتان أنك كنت قلقاً، متيقظا؛ لاتفهمان أسباب خشيتك، بل كانتا بالأحرى تتقاسمانها معك.

كان يبدو أن هنرييت وحدها لم تلحظ شيئاً، كانت تبتسم، تقرع الجرس لتنادي الخادمة وتعطيها أوامر، غيرمرتكبة لأي خطأ، لطيفة مثل سيسيل، وبما أنك لم تتجاذب أطراف الحديث، فقد كانت تتحدث تقريبا بقدر ما كانت هي تتكلم، بجودة حديثها تقريبا، عن روما، ورحلاتها إليها، وتسألها عن عائلتها، عن سكنها، عن مهنتها، ونجحت في جعلها تقول أشياء أنت نفسك لم تكن تعرفها.

لم يَحدث هذا الصدام الذي كنتَ تخشاه إلى حد كبير، لقد أدركتَ شيئاً فشيئا أن الحديث لم يكن ينم عن لباقة فحسب، والابتسامات عن خداع، وهذا الاهتمام الذي كانت تبديه كل واحدة منهن بالأخرى عن سياسة، بل لا تكره إحداهما الأخرى، وجهاً لوجه، وأن هاتين الغريمتين كانتا تشيد إحداهما بالأخرى وأن ما كان يشع الآن من عيونهن، كان تقديرا مُتبادلاً صادقا، ولا تملكان سببا آخر لكره إحداهما الأخرى إلا أنت، شبه المشلول داخل قلقك وصمتك، حتى إنهما أخذتا تبتعدان عنك شيئا فشيئا، وابتعدتا بأفكارهما عنك، متقاربتين، مشكلتين اتفاقاً، وحلفا ضدك.

وقد شَهَدتَ أنت هذه المعجزة بشيء من الرعب: سيسيل، عونك، كانت تخدعك، كانت إلى جانب هنرييت؛ ومن خلال غيرتيهما كان يتجلى شيء كالاحتقار.

حينئذ تَدخَلت، آملاً في أن تضع حداً لهذا التفاهم الشنيع. آه، أنت غير قادر على احتمال قناع كياستهن أكثر من هذا، لم يكن الخطر معركة بينهما فحسب،، بل في أن هذا القناع أصبح هو الوجه الصادق لسيسيل.

لم تكن هنرييت، وسط هذه القلعة المتمثلة في شقتك، لتتنازل عن أيٍ من امتيازاتها، ومع ذلك هذا ما كنتَ قد أملته عندما اصطحبت إليها غريمتها، بمعنى أن تتراجع، أن تعترف بهزيمتها وتعدها عادلة إزاء الجمال، والشباب الدائم، وخفة الروح وقدرة غريمتها المنعشة. كلا، كانت تحتقرك لكنها لن تقبل بالتخلي عنك.

ما الذي يمكن أن يحصل لك لو أنها نجحت في أن تُقنع سيسيل بأنك لا تستحق حتى

عناء انتزاعك من مخالبها ؟ وكان هذا ما بدأ يحدث، بصعوبة جداً، لم يكن إلا ظلاً أخذ يولد لكنه يمكن أن يكبر لا محالة، ولا مناص من هذا إن بقيت هاتان المرأتان معاً. ستنتهي هنرييت بانتزاع النصر، لا في معركة قط، بل في عدوى غريمتها، ليس ضدها فقط بل ضدك؛ قد تكبلانك هما الاثنتان، حزينتين وخائبتي الظن، باتحادهما، قد تتغلبان عليك، أنت المحطم، جثة تحتفظ بمظهر الحياة، مستمرا بتنفيذ مهماتهن التافهة البشعة، تبكيان بصمت، وحقد، هما الاثنتان، خيبة أملهما وحبك الكاذب.

ياله من جُرح حينما توسلت هنرييت إلى سيسيل، مسترخية، وهي تودعها عند صحن السلم، أن تعود ثانية بعد ثلاثة أيام، ووافقت هذه الأخيرة، واحسرتاه، بحرارة صادقة دون شك، على الرغم من أنها لم تصدق هذا! لكنك لم تتمكن أن تصرخ بها: «لاتقبلي، لا أريدك أن تعودي إلى هنا؛». وبعد بضع لحظات، في السيارة، عندما كنت تصطحبها الى فندقها، شارع الأوديون، كان الأمر قد انتهى، وانقضى، لم تكن ثمة حاجة لإثارته من جديد.

لا تظني مطلقاً أنك مُجبرة على المجيء مساء يوم الخميس، سيكون سهلاً علينا أن نجد عُذرا.

– على الاطلاق؛ فليست لدينا الفرصة ليرى بعضنا بعضاً، وهذه الطريقة هي من أبسط الطرق. أترى، ألم أقل لك: لقد سار كل شيء على ما يرام، وترك كل منا صاحبه ونحن صديقتان حميمتان، ونجحت حتى في الحصول على هذه العودة الجديدة، وهذا ما أعده عملاً فذاً «انجازاً عظيماً».

– كُنتِ رائعة.

– هي أيضاً، أليس كذلك؟ إن ذهنها منفتح أكثر منك وعليكَ أن تتخلى عن أوهامك: لم تعد مهماً جداً بالنسبة إليها. فلست أنت من يدعوني، بل هي نفسها، وليس لإرضائك أبداً، وليس لأنها تعبدك وبتخليها عنك فهي مستعدة لتُقبل قدمَي المرأة التي تأخذك منها، فالأمر في غاية البساطة. ألا تدرك أنها تترك لك كامل الحرية ؟».

أوقفتَ السيارة؛ إنها باب الفندق.

كنت ترغب أن تقول لها: «سيسيل، أحبك، أرغب أن أقضي الليلة معكِ»، ثم، لا، غير ممكن، لم تكونا في روما؛ كان ينبغي أن تستأجرا غرفة ...

قبلتكَ من جبينك، وجاءت عدة مرات إلى داركم، تعودتَ على رؤيتها بالقرب من هنرييت. كنتما تقولان إن كل هذا لم يكن ذا أهمية، لم يكن لديكما الوقت للتفكير بهذا. كانت الأمور تسير على نحو جيد هكذا حتى الآن، ألم يكن هذا هو المهم ؟ في الأسبوع الأخير، لم تلتقيا وحدكما ولو مرة واحدة ؛ إذ استعادَت الصلة مع جزء من أسرتها وكانت لديك الكثير من المواعيد في أوقات الوجبات.

على الأرضية المعدنية الساخنة كانت الأشكال المعينية تهتز، منفصلة الواحدة عن الأخرى والأخاديد التي تفصل بينها تبدو كأنها تشققات تنفتح على نار حامضية؛ إذ تتقوس، ترفع أطرافها التي تستطيل ثم يعود كل شيء ليصبح أسود مع الفتافيت التي تتقافز والأوساخ، والأتربة، ولطخات الطين،و فتات الأطعمة المسحوقة، وحافات الأوراق القديمة التي تهتز تحت المقاعد. تتمزق الانعكاسات على زجاج النافذة أكثر فأكثر، إنها ضواحي تورينو. في نهاية الممر الذي ما يزال خالياً، تلمح آنييس تقترب.

يرتدي السيد لورينزو معطفه الرمادي، لكن الإيطاليَيْن الآخرين، العاملين، بسكينة يمكثان في مكانيهما، حقائبهما مغلقة على ركبتيهما، ذراعاهما متشابكان ويكملان حديثهما، يتسليان.

تُحدث نفسك قائلاً: قبل عام، عام بالضبط ؛ كنتَ قد نسيت، ليس رحلتنا، بل النحو الذي كانت قد سارت على وفقه بالضبط، إذ لم أعد افكر إلا بالعودة، وعند العودة كانت الأمور قد سارت على ما يرام تقريباً.

يأخذ السيد لورينزو حقيبته الخضراء، يدس صحفه في جيب معطفه، يفسح المجال لآنييس التي تبتسم لك لتدخل؛ يفسح بيير، الذي كان يتبعها، المجال له ليخرج.

يُهدىء الرصيف المكتظ بالناس من سرعته، شأنه شأن سكة القطار اللماعة، والمصابيح، والقبة المظلمة، واللافتات التي تعلن عن تورينو، والحمالين الذين يركضون وهم يصرخون، والمرأة التي تدفع عربة مرطبات.

أنت ظمآن، لكنك ستشرب بعد قليل؛ وجائع، لكن يجب انتظار جرس العامل الذي لن يطول انتظاره إذ إن العريسين قد عادا.

تقول لنفسك: لم أعد أدري ما العمل؛ لم أعد أدري ما أنا فاعل هنا؛ لم أعد أدري ما سأقول لها؛ إن جاءت إلى باريس، سأفقدها؛ سيضيع كل شيء لي ولها ؛ إن أدخلتها عند «ديريو»، سألمحها كل يوم من نافذة مكتبي، سأرغم على هجرها بفعل وضع أقل مواءمة من وضع روما حيث تعرف هي، برغم كل شيء، الكثير من الناس. لا ينبغي التفكير بذلك. يجب تركيز النظر على هذين الشابين السعيدين اللذين تناولا عشاءهما تواً، وتظهر على وجهيهما حرارة النبيذ والطعام، واللذين شبكا أيديهما من جديد.

آنييس وبيير، كيف ستنامان هذه الليلة ؟ هل سينزل هذان العاملان الإيطاليان قريباً؟ حينئذ سيكون بإمكانكما أن تتمددا إن لم يصعد شخص آخر، ولكي تتمددا على نحو مريح عندما أعود من عربة المطعم، سأذهب إلى عربة أخرى. هل ستبقيان في هذا القطار حتى «سيراكوز»؟

كم ستكون أيامكما هذه جميلة! كم ستتمشيان على ضفاف البحر، متفاهمين أحدكما مع الآخر ليل نهار، في انبهار دائم، ظناً منكما أن جدار الوحدة قد انهار أخيراً، بينما أنا، أثناء هذه الأيام المعدودة، غداً السبت بينما لا تزالان في القطار، منهمكين لكنْ مفتتنان، مستكشفين نابولي، متأملين خرائب «بايستوم» (Paestum)، الأحد قد تكونان استقررتما في مدينة «دنيز لو تيران»، في فندق أنيق جداً بسيط بنافذة تطل على حدائق غارقة في الخضرة، والإثنين كذلك، ماذا سأفعل، إلى أي قدّيس، أي قدّيسة سأولي أمري؟

أين ستسكنان حينما تعودان من هذه الإجازة، وتلتقيان في باريس في عجلة هذه الحياة القاسية التي ستأخذكما، وتقلقكما ؟ بعد عشرة أعوام، ماذا سيبقى منكما، من هذا التفاهم، من هذا الفرح الذي ينكر التعب، الذي يجعل منه شراباً مسكراً لذيذاً ها قد شرعتما في التلذذ به؟ ماذا سيبقى منه حينما يأتي الأولاد، عندما تكون أنت، بيير، قد تدرجتَ في وظيفتك، الغبية ربما كوظيفتي أو أسوأ، حينما يكون تحت إمرتك العديد من الموظفين الذين ستدفع لهم أجراً جد قليل كي تحافظ على شركتك، ولكي تكون أنت. الأمرُ

ليس مماثلاً، عندما ستحصل على الشقة التي تحلم بها، خمسة عشر ساحة البانتيون[1]؟ هل سيكون في نظراتكما الاهتمام نفسه، أو هذه الريبة، آنييس، التي أعرفها حق المعرفة، أو تجنب ذاتك هذا، بيير، الذي أباغته في مرآتي وأنا أحلق والذي لن تتخلص منه مؤقتاً، ولو بضعة أيام فحسب في كل مرة، بضعة أيام من حلم روماني، إلا بفضل سيسيل التي لن تكون قادراً على اصطحابها إلى مكان إقامتكَ الدائمة؟

يدلف رجل طاعن في السن ذو لحية طويلة بيضاء كزكريا، متبوعاً بامرأةٍ عجوز ذات أنف معقوف قليلاً كساحرة فارسية.

إذن آنييس وبيير لن يكونا وَحيدَين، وستأتي لتراهما ينامان على نحو غير مريح، وأنتَ نفسك تُصارع الأحلام المزعجة التي تسمعها من الآن تهمس وتصرخ خلف أبواب رأسك، خلف هذا السياج المُرتَسم على الأرضية الحديدية التي لا تكاد تُمسك بها، التي تهزها واخذتَ تلويها، ضائعاً بين أشلاء هذا المشروع الذي ظننته مُتماسكاً جداً، ومحبوكاً بإحكام، كنت أبعد من أن تتصور أن كل هذه الثغرات، بفعل فتافيت وأتربة، وسِرب من أحداث مُستمرة مجتمعة، آكلةً الضِّيق بدراية، وشاشات حياتك اليومية وموازينها، وكل هذا التمزق كان سيرتسم فيها لا محالة، مُسلماً إياك إلى الشياطين ليست شياطينك فحسب بل كل الذين من عِرقك. لمَ لازمتكَ هذه الذكرى المشؤومة بإلحاح في حين كان بإمكانكما أن تعيشا معاً بعضَ الوقتَ... سراً، في الأقل؟

ماذا يفعل زكريا هذا، وهذه الساحرة في هذا القطار؟ كيف دارت حياتهما؟ إلى أين يذهبان؟ هل سيرافقانك حتى روما بهذه النظرة التي لن تنام؟

لديهما حقيبة سفر سوداء؛ لقد خلعا قبعتيهما؛ لربما كان هو أستاذاً جامعياً أو موظفاً في بنك. لا بد أنه كان لديهما أطفال. فقدا ولداً في الحرب. وهما ذاهبان لحضور تعميد حفيدتيهما. إنهما غير معتادين على السفر.

آه، كلا لا أصدق أنهما سيبدأان بالكلام! ليتركاني وشأني! لترن هذه الصفارة!

لم يعودا يتكلمان؛ أيديهما متصالبة على بطنيهما؛ جالسان باعتدال، متصلبان، يرتديان السواد.

ها هو صوت الرنين؛ القطار لم يتحرك بعد. تضع الكتاب في مكان جلوسك. تتكيء على إطار الباب وأنت تترك المقصورة.

1- تطل ساحة البانتيون في وسط باريس،على مقبرة العظماء التي تحمل الأسم نفسه (المترجمة).

-7-

لم تكن إلا وعكة عابرة؛ ألم تستعد قوتك وثقتك بنفسك، وما زالت فيك حرارة هذا النبيذ وهذا الخمر، ورائحة آخر سيجار، على الرغم من هذا النعاس الأكيد المُرَحَب به، إذ لم تتناول قهوة بخلاف عادتك، زيادةً في الحذر، عازماً على تجنب أي سبب إضافي للأرق، ولكيلا تؤخذ في دوامة تفكير وذكريات قد تجلب لك لا تدري أي تغيير كارثي للمزاج وللمشاريع، على الرغم من هذا الدوار الداخلي المستديم، الذي يأخذك، على الرغم من هذه الوعكة، وهذه الغربة المتأتية من السفر والتي لم تكن تظن أنك ما زلت أسيراً لها، وهذا يبين لك أنك لست عجوزاً، ومنتهياً، وسئماً، وجباناً كما كنت تحاول قبل قليل أن تقنع نفسك بذلك؟

برفقة هؤلاء المسافرين الستة الهادئين جداً المُلازمين لأماكنهم، الصامتين جميعاً، الذين توقفوا عن القراءة، العجوزان، آنييس وبيير، وهذان العاملان الإيطاليان اللذان منحتهما اسمين لم تعد تتذكرهما، والآن ستتمكن من العودة للتفكير بهدوء بهذه المسألة التي لم ترغب في أن تفكر بها أثناء وجبة الطعام، مستعيناً بهذه الحيلة ضد نفسك: التفكير بأن هذه الرحلة كبقية الرحلات، على حساب شركة سكابيلي ومن أجلها، مفكراً في القضايا قيد الإنجاز كما لو كنتَ ستتحدث عنها غداً صباحاً في بناية شارع كورسو، أو أن تركز انتباهك كطباخ أو عالم سلالات على هذا الطعام الإيطالي الذي تُحبه والذي ستجده بضعة أيام بل لن تجد غيره، مُصغياً إلى هذه الأحاديث الإيطالية إلى مائدتك أو إلى الطاولات المجاورة إذ لم يعد يوجد فرنسيون، وأولئك الذين كانوا هنا، لم يعد المرء ينتظرهم، معظمهم متعب من يوم السفر هذا، بهذه اللغة الإيطالية التي تحبها لكنك للأسف لا تجيد التحدث بها جيداً، التفكير بمشكلة سفرك، بالقرار الذي اتخذته، بمصير سيسيل، وبما ينبغي أن تقول لهنرييت، الآن بعد أن شَبِعْت، وارتحت على نحو معقول، وليس في ظل هذا النوع من الحيرة التي اقتحمتك، وأغشتك، وأضلتك بعيداً عن الطريق الذي اخترته، في الظلمات

الباردة والخجلة، التي جردت وجودك الحالي برمته من معناه، بوجودك هنا في هذا المكان المُعَلَم بالكتاب الذي لم يُقْرَأ، بسبب الجوع، والتعب والضيق فقط، إذ لم تعد قادراً وأنت في عمرك هذا أن تسمح لنفسك بغرور الشاب (أنا لست عجوزاً، لقد قررت أن أبدأ العيش، استعدت قواي، كل ذاك قد مضى)، بسبب تَفَتُّتك هذا، وبسبب كل هذه التصدعات البادية على سطح نجاحك، إلى حد أن الوقت كان قد حان لاجتيازها، هذه الخطوة، إلى حد أنه لو كنتَ انتظرتَ بضعة أسابيع أخرى ربما ما كنت قد وجدتها، هذه الشجاعة التي كانت تلزمك، والدليل هو أن كل شيء، نعم، كل شيء في هذه المقصورة، كان مُهَدَداً، قبل هنيهة، بالزوال، بِهدوء، وتعقل، توقف عن التفكير في ذلك، لأنه كان قد حدث، فقد اجتزت الخطوة، أنا هنا، يجب أن تكرر قول ذلك لنفسك: أنا ذاهب إلى روما، من أجل سيسيل وحدها، وإذا أجلس في هذا المكان، فبسببها، لأنني تجرأت على القيام بهذه المغامرة.

لكن لِمَ تَبق واقفاً في فرجة الباب تتأرجح وفق الحركة المستمرة، كتفك مُصطدمةً بالركيزة الخَشبية دون أن تعي ذلك؟ لِمَ أنت متسمر هكذا كمن يسير في نومه مشوشاً في رحلته، هل تتردد في دخول هذه المقصورة كما لو أن كل هذه الأفكار التي راودتك قبل قليل ستنقض عليك من جديد حال جلوسك مرة أخرى في هذا المكان الذي اخترته في البدء كما لو أنه مُلك لك؟

تركزت جميع الأنظار عليك، وأنت ترى في النافذة التي أمامك صورتك المتأرجحة كصورة رجل ثمل على وشك أن يسقط، حتى اللحظة التي تنفصل فيها الغيوم، ويظهر من بينها القمر، فَيَمْحوك.

لِمَ لم تقرأه؟! هذا الكتاب، بما أنك كنت قد اشتريته، وهو الذي ربما كان حماكَ من كل هذا؟ لِمَ لا تتمكن من فتحه، حتى الآن وأنت جالس؟ وتمسك به بين يديك، بل ليست لديك الرغبةَ في أن تفك ألغاز عنوانه، بينما ينهض بيير ويخرج، والقمر في زجاج النافذة يرتفع وينخفض، وأنت لا تنظر إلا لظهر الكتاب الذي أضحى غلافه شفافاً، وصفحاته البيض في الداخل، كما لو أنها تتصفح نفسها بنفسها أمام ناظريك، بأسطر حروف لا تدري اي كلمات تشكل؟

ومع ذلك، في هذا الكتاب، أياً كان، بما أنك لم تفتحه، وليس لديك الفضول، حتى الآن، أن تنظر لا إلى العنوان ولا إلى المؤلف، في هذا الكتاب الذي لم يكن قادراً على أن يُلهيك عن نفسك، على أن يحمي قرارك إزاء نخر الذكريات، مظاهر القرار هذا إزاء كل ما يلغمه، ما ينكره، وأوهامك، مع ذلك، في هذا الكتاب، بما أنه رواية، بما أنك لم تَختَره عشوائياً تماماً، وأنه ليس أي كتاب من بين كل الكتب التي تُنشَر لكنه ينتمي، حتى بفعل الموقع الذي كان يحتله على رفوف مكتبة المحطة هذه، إلى فئة معينة، بفعل عنوانه، واسم مؤلفه اللذين نسيتُهما الآن واللذَين لا يعنيان لك شيئا، لكنهما كانا يُذكرانك، حين اشتريته، بشيء لَم تقرأه، ولن تقرأه، لقد فات الأوان، أنت تعرف أن هناك أشخاصاً يشبهون إلى حد ما أناساً تعاقبوا على هذه المقصورة خلال الرِحلة، وأن هناك ديكورات وأشياءً، وأقوالاً ولحظات حاسمة، وأن كل هذا يشكل قصة، في هذا الكتاب الذي كنت قد اشتريته كي يُسليك والذي لَمْ تقرأه لأنك خلال هذه الرحلة كنت تود أن تكون، ولو مرة واحدة، أنت نفسك على نحو متكامل في فعلك، وأنه لو كان قد أثار اهتمامك على نحو كاف في هذه الظروف، لكان متطابقاً مع حالتك إلى حد أنه يعرض مشكلتك أمامك وبالنتيجة، أبعد من أن يكون لإلهائك، وأبعد من أن يكون لحمايتك من تخليك هذا عن مشروعك، وعن آمالك الجميلة، لكان قد استعجل الأمور، ولا بد أن يكون في داخله في مكان ما، وإن كان قليلاً، وإن كان غير صحيح، وإن كان قد قيل على نحو سيىء، رجل في مأزق يريد أن يخلص نفسه، يقوم برحلة ويتبين أن الطريق الذي سلكه لا يقود إلى حيثما كان يعتقد، كما لو كان تائهاً في صحراء، أو في الأدغال، أو في غابة تنغلق عليه إن صح القول دون أن يعثر حتى على الطريق الذي قاده إلى هناك، إذ تُغطي الأغصان والعرائش آثار خطواته، والحشائش انتصبت والريح مَحَت آثار أقدامه من على الرمال.

إنه ظَهر الكتاب الذي تنظر اليه، ثم إلى يديك وكُمَي قميصك الذي لبسته نظيفاً هذا الصباح، لكنهما اتسخا، والذي لن تتمكن من تغييره قبل الوصول، قبل أن تنقضي هذه الرحلة وهذه الليلة، بالتعب الذي ستشعر به قبل فجر هذا النهار الذي لن يكتمل إلا مشوهاً، إذ، يمكن أن تكرر قول ذلك على نفسك، نعم، لقد أُنجز الأمر، تم اجتياز

الخطوة، ولكن ليست الخطوة التي كنت تظن أنك ستجتازها وأنت تأخذ القطار، خطوة أخرى، التخلي عن مشروعك بنسخته الأولى التي كانت تبدو لك في غاية الوضوح والتماسك، التخلي عن هذا الوجه المشرق من مستقبلك الذي كُنت قد قررت أن تتجه نحوه هذه الآلة، حياة حب وسعادة في باريس مع سيسيل؛ بهدوء، وعقل، ينبغي عليك الآن أن تقلع عن التفكير بذلك، في هذه المقصورة حيث دخل بيير تواً، وجلس إلى جانب آنييس، وطبع على جبينها قبلة خاطفة، ينظر حوله فيما تُسدل هي عينيها راغبةً في النوم (لكن الضوء سيبقى مُضاءً بعض الوقت)، يفتح كتاب تعلم اللغة الإيطالية، يعاود القراءة معها، شفاههما تتلفظ المقاطع دون أن تصدر أي صوت، الدليل الأزرق على المصطبة قفز قليلاً، في حين أن زكريا العجوز بلباسه الأسود أخرج تواً من جيب صدريته ساعةً فضية يفتحها، ويصغي اليها (كيف يستطيع سماع حركتها في خضم الحركة الكبيرة، وضجيج القطار الصاخب؟)، وينظر إليها (أنت أيضاً ترى أن الوقت لا يتجاوز التاسعة والنصف)، يغلقها، يعيدها إلى جيبه، بينما يلوح العاملان بأيديهما إلى صديقهما الذي يمر في الممر ويستعجلهما المجيء بإحناء صدره بالكامل وغمزه بالعين، ينهضان، يضعان حقيبتي الظهر اللتين تخصهما على مقعديهما، يقولان (بالايطالية) «اعذرنا، اعذرنا» وهما يمران من أمامك، يبدأ ان بالحديث بصوت عالٍ حالما اجتازا العتبة، يبتعدان، يدخلان في مقصورة أخرى.

ما زالت الإيطالية العجوز إلى جانبك تضع ذراعيها متصالبين على بطنها، لكن شفتيها أقل جُموداً، كما لو كانت تتمتم مع نفسها صلاةً ما لتحمي نفسها من خطر الرحلة، تتصلب قسمات وجهها المتعَبة أحياناً كما لو كانت تتلفظ بلعنات ضد الشياطين التي تُلازم تقاطعات الطرق، وتحملق عيناها فجأة بنوع من الفزع والعزم، ثم تهدأ، ينسدل جفناها نصفياً، وتصبح حركة شفتيها شبه خفية، ويتساءل المرء عما إذا كان تأرجح القطار هو الذي يحرك فكها ويهز على نحو خفيف تجاعيد جلدها الهَرِم.

أما زوجها الذي يجلس قبالتك، فهو أيضاً، بدأ وجهه بالانفعال؛ ينظر إليك، يبتسم لنفسه، يقص لنفسه حكاية كما لو كنتَ تُذكِرهُ بأحد ما، وفجأةً ثمة وميض قسوة وانتقام يمر في عينيه الهرمتين، كما لو كان لديه ما يلومك عليه بمرارة.

تمر محطة نوفي ليكور(Novi Ligure). ترتجف المصابيح داخل الكُرة. تَلمح انعكاسها الذي يتراقص، ويتغير شكله عند المنحدرات السود المزروعة بنوافذ مضيئة، في الجانب الاخر من الممر.

لا، لن يُقال كل شيء، لن تقول كل ما كنتَ تريد قوله؛ لن تكون قد نجحت في تهيئة الأمور بالدقة التي كنت تريدها؛ لا بد أن هناك بعض التواريخ التي ستُحَدد، لكن، ليس التاريخ الذي على وفق مشروعك الأولي كنت ستترك فيه هنرييت، وتأتي للاستقرار مع سيسيل في هذه الشقة التي كنت تفكر فيها.

ستتصالحان دون شك، إذ ستعود إلى روما من أجلها، وستعلن لها عن اكتشافك لهذه الوظيفة التي كانت ترغب فيها في باريس، لكن هذه المصالحة لن تكون إلا مَظْهراً في غاية الهشاشة والضعف، وعلى الرغم من هذه المصالحة ستعلم، أنت، أنك ابتعدت عنها؛ سيكون في داخلك دائماً هذا القلق أكثر نخراً بعد، إذ ستسأل نفسك وأنت ترتجف: إلى ماذا سيؤول حبك حينما تلحق بك، مبهورة بهذا الوضع الذي وعدتها به، مخدوعةً، وضحية فخ هذا البَوح؟ وهذه الإعتراضات التي لم تتوان عن تِكرارها وتعزيزها داخل فرحك الغامر بلقائها في روما حُراً تماماً خلال هذه الأيام القليلة، وأنت بكاملك لها، لا سيما أن المستقبل يبدو لك من الآن فصاعداً غير أكيد على الإطلاق، مليئاً بالمخاطر وخيبات الأمل.

لا بد أن أحداً سيكون قد طلب إطفاء الضوء. بعد محطة سيفيتافيجيا(Civitavecchia)، المحاذية للبحر، ستشعر مقدماً بالتعب من هذه الرحلة التي بدأتها تواً، لكن النوم لن يأتي، وستبحث عبثاً عن وضع أكثر راحةً، تنتصب في جلستك عند كل توقف، محاولاً أن تطرد الأحلام المزعجة التي ستُلاحقك بِسوداويتها وسخريتها.

في جَنَوَة، ستترك مقصورة الدرجة الثالثة هذه التي لم تحتملها؛ لن يكون النهار قد بزغ بعد، وستكون الستارة ما زالت مُسدلة، وفي داخل المصباح ستكون الشمعة الزرقاء مستمرة في تلوين وجوه هؤلاء الرجال والنساء الذين يتنفسون على نحو ثقيل، الفم مفتوح، في الهواء الثقيل، المُقَزِز.

عندما ستعود إلى المقصورة، سوف يجبر الضوء الحامضي لنهار بارد مُمطر عيونهم على الانفتاح، وستتسلق شيئاً فشيئاً جبال الألب محاولاً أن تقرأ، كي لا تستغرق في التفكير بالطريقة التي ستسير فيها هذه الأحداث التي حَرَكَتها كلماتك المتحمسة طوال هذه الإقامة، كتاباً ستُمسك به بين أصابعك بينما تتقدم من الحدود، ربما يكون هذا الذي لم تنته منه قط لأنك ستنشغل بشيءآخر في أمسياتك وهذه المرة أخيراً، ولو مرة واحدة، لن تكون بك حاجة للعودة في عتمة الليل، جاراً ساقيك ونادباً حظك العاثر، في «البيركو كيرينال»، هذا الذي ربما لن تكون قد بدأت به بعد، أو كتاباً آخر ستكون قد اشتريته من محطة «تيرميني»، هذا الكتاب الذي ستغلقه وأنت تمر من الجمارك، وفيه يجب أن يتعلق الأمر، على سبيل المثال، برجل تائه في غابة تنغلق عليه دون أن يتمكن، حتى لأن يقرر من أي صوب من الملائم أن يذهب الآن، من ايجاد الطريق الذي قاده إلى هنا، حيث إن قدميه لا تتركان أي أثر على الأوراق الميتة المتجمعة التي يغوص فيها، (سامعاً وقع تسارع خطوات حصان يبدو أنه يقترب أكثر فأكثر ثم يختفي، وفي الوقت نفسه شيئاً من العويل يتردد صداه، كما لو أن الفارس هو أيضاً كان تائهاً ويطلب النجدة،

يصادف فجأةً سياجاً يمنعه من الاستمرار، وينبغي أن يسير بمحاذاته، ويغدو تنفسه أكثر صعوبةً، مع صعوبة إبقاء عينيه مفتوحتين تحت المطر الذي يأخذ في التساقط بغزارة، وعلى نحو مُصِم،

ثم هناك شخص مُتدثِر، مُسَلَح، يُخْرِجُ من جيبه مصباحاً، يفتش المناطق المحيطة، ومن خلال آلاف القطرات يلمَحُ هذا الوجه المُنهك، هاتين اليدين اللتين ترتفعان وهما ترتجفان، يجد كتاباً دُسَ في الحزام، يفتحه بينما يغسل المطر صفحاته التي تنفصل شيئاً فشيئاً وتتناثر، ينفجر بالضحك المدوي ثم يجلس القرفصاء داخل حجيرته الشبيهة بالتلعة الأرضية، تاركاً العنان لصوته)، في هذا الكتاب الذي ستكون قد أغلقته ثانية بسبب مرورك من الجمارك، لتقدم جواز سفرك إلى الموظفين، بعد اجتياز النفق، ومن ثم ستُحاول مرة ثانية أن تقرأ، هابطاً على الجانب الفرنسي في هذه الوديان المنخفضة الدَبِقة بالظلال، كي تتجنب أن ترى هذه التجربة التي أنت على وشك أن تعيشها بتفاصيل دقيقة

مزعجة، أيام العمل هذه في مكتبك في باريس، بينما ستلمح في الجانب الآخر من شارع دانييل كازانوفا سيسيل وهي تعمل في الطابق الأول من وكالة ديريو للسفر، سيسيل التي ستتخيل نفسها وهي تصل إلى مدينة أحلامها أنكما ستعيشان معاً هذه المغامرة الرائعة التي اخترعتها لك، وستلحظ بعد وقت قصير، أنه لا صحة لهذا، وأنك أكثر بُعداً عنها على نحو لا يقارَن عما كانت عليه في روما، تنامان أحياناً معاً لكن ستفقدان القدرة على التحاور، وستصوب نحوك أحياناً نظرةً كره وخيبة أمل فظيعة إلى حد أنها ينبغي أن ترحَلْ، وأنك يجب أن تتدبر أمرك لإرجاعها، بألم شديد، في كل مرة ستلمحها فيها، ستُصَوب نحو وجهك، الطريقة المثيرة للسخرية التي آلت إليها أكبر محاولة للتحرر قمت بها، تستغرق في الكتاب كي لا تفكر بذلك، إذ سيفوت الأوان لتغيير شيء ما في المحاولة حينما ستحاذي البحيرة الحزينة، بعد أن قلت لها إن جميع هذه المشاريع هي من أجلها، وستكون سعيدة جداً بهذا في الأيام القليلة القادمة، وهي تجهل تماماً، حتى إنه سيكون من المحال إقناعها بالتخلي عنها، من المحال أن تشرح لها لماذا دون أن تُسيء فهم كل شيء، جاهداً أن تتحلى بالشجاعة مرة أخرى، مُتَهماً مرة أخرى جُبنك، فمن المُحال عدم الاستسلام لثقتها، لاعترافها بالجميل، ولمفاجأتها المُنْبَهِرة.

في «بور»، سيكون الغَسَق قد حل، في «ماكون»، سيكون الليل حالكاً وسوف تستعرض في رأسك أحداث الأيام السابقة، والأيام القادمة، مهنئاً نفسك بنجاحك في أن تخفي عنها أنك وجدت لها عملاً في باريس، وأن أصدقاء اقترحوا عليك أن يُعيروك شقتهم، أن تخفيه عنها بينما ستكون هي قد طرحت عليك السؤال مرات عديدة، وأن تجعلها تصدق، أنك، نعم، بحثت فعلاً، وأنه خُيل إليك أنك عثرت على شيء، وأنك بالفعل بسبب هذا تهيأت خِفيةً لهذه الرحلة إلى روما، ولكن في اللحظة الأخيرة انهارَ كل شيء، وأنك، نعم، بالطبع، ستستمر بالبحث، وأن ثمة شيئاً في بالك يبدو أنه سيتحقق، كي تُسعد مقدماً، بهذا التغيير الذي لن يحدث.

وعليه لن تكون بك حاجة لتهيئة معركتك ضد هنرييت، وبالتفكير فيما ستقوله لها أو تخفيه عنها، فلن يتغير شيء فيما يتعلق بها، وستنظر، من خلال زجاج النوافذ السود

المغطاة ربما بآلاف القطرات السود، التلاع المغطاة بأوراق فاسدة، وسترى، منبثقاً من الظلال المطلقة، عند مرور نوافذ الممر المُضَاء، المئات من جذوع الأشجار المقطعة في غابة «فونتينبلو»، متخيلاً سماع خبب حصان بعيد فيما وراء ضجيج محاور العجلات وهذا القول الساخر: «أتسمعني؟»

ثم أثناء الليل الباريسي حيث ستمطر السماء، ستصل الثلاثاء القادم وحيداً، مُنهكاً من هذه الرحلة بالدرجة الثالثة، إلى محطة ليون في الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة ليلاً، وستنادي سيارة أجرة.

في الجانب الآخر من الممر، في مضيق يفتح الأفق، فوق طريق صغير متعرج تخطه مصابيح سيارات بعيدة، يظهر القمر وهو يزيح غيوماً على هيئة رؤوس طيور ذات ريش وعرف كبير. خلف رأس هذا الرجل المسن الجالس قبالتك، ذي العينين غير المغمضتين تماماً، الذي يبدو أنه يُلقي لنفسه قصيدة مقفاة طويلة، محركاً كتفيه في نهاية كل مقطع شعري، صور الجبال التي تخفيها جزئياً قبعته السوداء، مشكلةً ما يشبه هالة دكناء مُسَنَنَة.

ترى من خلال النافذة قطار بضائع طويل يمر.

لم تتوقف منذ «ليفورن»؛ إنه قطار روما السريع هذه المرة؛ كنت تعبر «الماريما» وكانت الشمس تتلألأ فوق القنوات بين الحقول المحروثة، بين الأشجار المغطاة بأوراق صهباء إلى يمينك في الجهة الأخرى من نافذة عربة المطعم، وفي اللحظة التي بَدَأتَ فيها تلمح «كروسيتو»، مر قطار بضائع طويل.

ثم سألتك الإيطالية الجالسة بمواجهتك، سيدة من روما بصحبة زوجها الذي كان يمضي وقته في إخراج مفكرة من جيبه صغيرة مُغلَقة بجلد بنفسجي فاتح اللون يُسَجل فيها، ويشطب، ويتحقق بعصبية، بينما كانت هي تنظر حولها، بعينيها الدكناوين الكبيرتين، وتوزع ابتسامات على جميع الأشخاص الذين لا تعرفهم ومن بينهم أنت، سألتك إن كان بإمكانها أن تُسدل الستارة التي بدأت تلتمع من ألف نقطة.

كنت تتأمل بإعجاب يديها المعتنى بهما جيداً وأنت تقشر برتقالتك، مفكراً بسيسيل التي كنتَ أعطيتها موعداً في السادسة والنصف في بار «بيتزا فرنزي»، وكنت تتساءل أين

يا تُرى تتناول طعام غدائها في هذا الوقت، في بيتها أو في أي مطعم من مطاعمها الصغيرة المفضلة، وهي تفكر بك دون شك، وبما ستفعلانه معاً في المساء، متأملةً دون شك أن تحمل لها هذه المرة هذا الخبر الذي كانت تنتظره، هذا القرار الحاسم بشأنها الذي تتمنى أن تراك متخذاً إياه، الإعلان بأنك أخيراً وَجَدتَ في باريس العمل الذي كانت كلها رغبة به.

عدتَ إلى مقصورتك في الدرجة الأولى حيث كُنت وحيداً، لامحاً البحر من وقت لآخر، أخذتَ مرة أخرى رسائل «جوليان لابوستا» التي كنتَ قد تركتها على الرف، لكنك احتفظتَ بالكتاب بين يديك دون أن تفتحه، ناظراً إلى محطة «تاركينيا» تمر والمدينة من بعيد بأبراجها الرمادية المواجهة للجبال المقفرة من خلال النافذة المفتوحة التي كانت تمرر أحياناً هبة رملية مع الهواء المنعش، ثم مركزاً على هذه البقعة من الشمس على هيئة شفرة المقصلة، كانت تمتد كبيرة أكثر فأكثر على إحدى الوسائد.

كان الطريق سالكاً؛ ومن الجانب الآخر ثمة مرعى مرتفع نشّفت الريح في الفجرعشبه الممتد.

وبين النباتات المنتشرة هنا وهناك، تلحَظُ في الأفق، خلف وشاح الأتربة، سلسلة جبال متقطعة تفصلها هوة، تبدو أكثر عمقاً كلما اقتَرَبَتْ، وشِعْب نظن أنْ ثمة نهراً في أعماقه، يبدأ بنزول جوانبه متعلقاً ببعض أغصانه الشوكية. لكن النباتات التي يريد أن يتشبث بها تنقلع من جذورها؛ والأحجار التي يريد أن يضع قدميه عليها تتفتت، وتتعرى، وتنزلق من طبقة إلى طبقة إلى حدّ أنه يفقد القدرة على التمييز بين ضجيج سقوطها وسط الطنين العام الآتي من الأسفل، بسبب الهدوء الذي يصاحب هبوط الليل، واستحالة كون شريط السماء بنفسجياً.

أخذت بقعة الشمس الكبيرة هذه التي امتدت ببطء على الوسائد التي أمامك، وبلغت نسيجها الثخين خيطاً بعد آخر، تسيل، مع أحدى منعطفات السكة،على الأرض المرتجفة، ثم انسحبت شيئاً فشيئاً من المقصورة.

كُنت تَعرف جيداً أنك لا بد أن تتخذ قراراً في يوم ما، لكن لم يساورك شك في أن اللحظة كانت قريبة جداً؛ لم تكن بك رغبة في استباق أي شيء، منتظراً أن تترتب

الأمور بنفسها، وأن مناسبة ما ستأتي، وتأخذ المغامرة مسارها الجديد بنفسها، دون أن تفكر بمستقبل سيسيل، دون أن تنظم حياتك المقبلة معها، أو التفكير بعلاقاتك القائمة، أو استعادة ذكرياتكما المشتركة، تُمسك أصابعك بكتاب رسائل جوليان لابوستا، الموضوع على ركبتيك، المغلق الذي انتهيت من قراءته، ،كان ذهنك مُنشغلاً قبل كل شيء بأشغال شركة سكابيلي، لتلعنهم بالتأكيد، ولتحاول أن تطردهم من ذهنك، لكن إلحاح الأشغال، والوقت القصير الذي بقي لك قبل الموعد الذي كان في الثالثة والنصف بعد الظهر، أجبرك على الرجوع إليها باستمرار، ولم يكن وجه سيسيل يظهر إلا بين هذه الأرقام، وهذه التواقيع، ومقترحات إعادة تنظيم الفرع الفرنسي هذه، ومشاريع الدعاية هذه، حركات سيسيل وصوتها المنبثق خفيةً من بين طنين الأصوات التجارية، وجداول الحسابات وأرقام البيع.

كان هناك أولاً هذا الحاجز، وهذه الحدود التي ينبغي اجتيازها، وبعد هذا قد تكون ثمة راحة في عينيها، في خطواتها، في ذراعيها، هذه العطلة، وقت الفراغ هذا، الشباب المتجدد هذا، والرؤية الجديدة هذه.

لم يكن لديك وقت قط للاعتذار مقدماً عن عودتك في أوج الليل، إلى «البيركو كيرينال»، إذ كان في رأسك شيء آخر، كل هذا النثر، هذه المشاكل التافهة، هذه المعركة غير المعقولة، هذا العمل الذي كُنت تضيع حياتك فيه، دون نتيجة أخرى تهمك إلا الحصول على منصب أكثر استقراراً، الأمل في زيادة في الراتب تتيح لك أن تجعل حياة هذه المرأة وهؤلاء الأولاد البعيدين عنك، أكثر يُسراً، إذ لم تكن قد أتيت من أجل سيسيل هذه المرة، لم تكن هي قط، السبب الوحيد لرحلتك كما هو الحال اليوم، بل كان أرباب عملك هم الذين دفعوا ثمنها ونظموها؛ لقد سَرَقتَ سعادة رؤيتها منهم، كان انتقامك الكبير من العبودية التي كانوا يبقونك فيها، الذُل الذي قادوك إليه بفرضهم عليك الصراع الدائم من أجلهم، والدفاع الدائم عن مصالحهم الغامضة، ليست مصالحك أنت، أنت الخائن الوديع لنفسك.

آه، في الجانب الآخر من منطقة الخزي النشيط هذه، من العُجالة المُكْرَهة التي نُحاول

أن نُخفيها تحت أنظار الرقيب تعبيراً عن الإخلاص، نحاول تحت انظار الآخرين التي نراقبها نحن أنفسنا، أن نُخفيها، تعبيراً عن الحماسة، شاتماً إياهم سراً إذا ما انقادوا لذلك، كم كانت تبدو لك تحرراً، عودةً إلى طبيعتك الحقيقية، راحةً، وابتسامة وشعلة، ماءً نقياً حارقاً، انفصالاً مُنقياً من كل هذا، تلفك عيناها كمسافة شاسعة وديعة، عيناها اللتان تحزنان لأنك لم تعد تفكر أكثر فيهما، بينما تجتر في ذهنك الكلمات، والمهارات التي ينبغي أن تستخدمها كي تدافع عن نفسك في مقابلتك القادمة، كي تصمد إزاء هؤلاء الحُساد الذين يَصبون إلى منصبك، لخدمة هذه القضية التي لم تكن قضيتك ولا قضية أحد حقاً، بينما كنت تستعيد هدوءك، وشجاعتك، ومظهرك الجيد، ولذة الحياة، وأنت تتأمل أشجار الصنوبر التي كانت تتراقص بهدوء في الضوء.

فيما وراء النافذة، وانعكاس المقصورة الدقيق المرتجف هذا، حيث يمكنك أن ترى نفسك فيه إذا ما قدمتَ رأسكَ قليلاً فيما وراء هذه الإيطالية المتسمرة، ذات العينين نصف المغمضتين، لا تكاد تبعد عن صورة نفسك إلا بقليل، كما لو كانت رحى تسحقك، كصخرة جبلية، سفح نهر بين جبلين كنت تنهار على امتداده، كنت تظن الصخرة التي حُفِرَ فيها النفق. تنام آنييس، ينظر اليها بيير وفوق شعريهما المتشابكين يبدو أحد القوارب التي تمثل صورة مدينة «كونكارنو» (Concarneau) عائمة. واقدامهم تحك الأرضية الحديدية الحارة وتتأرجح عليها.

لكن هذه المرة أتيت من أجلها هي فحسب، هذه المرة اتخذت أخيراً هذا القرار الذي ذبُلَ شيئاً فشيئاً، تكلسَ خلال الرحلة، ولم تعد قادراً على التعرف إليه، المستمر بالتغير دون أن تتمكن من ايقاف هذا الانهيار المقيت، هذه المرة لم تقرأه، هذا الكتاب الذي تُمسك به بين أصابعك، بل حتى لم تفتحه، تجهل حتى عنوانه، ترغب أن تجهله، لأنك هذه المرة في عطلة، أوقفتَ هذه العُجالة الخارجية التي كانت تُمسك بك، لأن شاشة العمل الضخمة لدى «سكابيلي» لم تعد تُشكل هذه المرة حاجزاً بينك وبين حبك، إذ، دون أن تعرف بالضبط ما كنتَ تفعله، ما كان يجري، وبعد أن وصلت الحالة تدريجياً إلى نقطة حرجة، مُرغَماً على تشويش الترتيبات السابقة، وقطع هذا الروتين الذي استتب،

فقد أحرجت نفسك بنفسك؛ وَجدتَ نفسك مضطراً منذ الآن لتتفحص، بعناية أكبر، وبعين جعلتها الهزة أكثر صفاءً، تنظيم هذه الحياة القادمة التي كنتَ تتخيلها هذا الصباح على نحو دقيق، وشامل، وحاسم، والتفكير بوضعك القائم، فاتحاً بهذا، الباب لكل هذه الذكريات القديمة، المخزونة، التي كنتَ نسيتها تماماً، التي فيها شيء ما في دخيلتك (أيمكن أن نسميها أنت، بما أنك لم تعد تفكر فيها؟)، ولكن هذا الشيء الموجود فيك الذي كان ينظم ما كنت تفكر فيه، كان يتخيلك محمياً على نحو جيد، هذا الشيء فيك الذي وجد نفسه فائضاً بفعل الأحداث المستبقة، حداثة هذه الرحلة، جميع أوجهها غير المعتادة، هذا الجزء الآخر منك الذي نجح إلى حد الآن كيفما اتفق في التنكر والذي ينبسط الآن ويعبر عن نفسه وهو يَضعفْ، وهو يختفي.

هكذا تفرض نهاية هذه الإقامة غير الموفقة نفسها الآن، هذا اللقاء في القطار، لقاء اليوم نفسه، وكذلك بسبب هذا السؤال المجنون عن الطبقة والمال، بمسافة طويلة بعد محطة «ليون» حيث اتفقتما، مبدئياً، على موعد على الرصيف، حيث إنك لم ترَها منذ عدة أيام، فقد احتفظَتْ ببطاقة عودتها منذ رحلتها السابقة، بعد مدة طويلة، لأنك لم تنهض مبكراً بوقت كاف، وكان الوقت الثامنة وخمس دقائق صباحاً عندما خَرَجْتَ من سيارة الأجرة، ولم يكن لك حتى الوقت الكافي لشراء علبة كولواز، منتظراً حتى اللحظة الأخيرة على الرصيف الذي لم تكن هي موجودة عليه كي تصعد إلى هذا القطار الذي كان يرتج، مكتظاً، أكثر من هذه المرة، بممراته المزدحمة التي كنتَ تشق لك فيها طريقاً، متفحصاً جميع المقصورات، قائلاً لنفسك إن لم تجدها، إن لم تكن هنا، إن كانت قد أخرت رحيلها حتى من دون أن تعلمك، تعبة منك، خائبة الظن من الصورة التي بدوتَ لها فيها، ووضعكَ، في باريس، ستدفع مبلغاً إضافياً كي تكون في الدرجة الأولى كي تضمن في الأقل أن تكون جالساً، وأن تجلس في عربة-المطعم حيث كانوا يقدمون طعام الفطور (كنت قد تناولتَ طعامك ولكنكَ كنت لاهثاً)، تقول لنفسك: ماذا عساي أن أفعل في روما الآن دونها؟ سأذهب لرؤية شارع «مونتي ديلا فارينا» إن كانت قد عادت، وإلا ساعود إليه كل يوم حتى موعد رحيلي، طالباً فنجان شاي بالقرب من النافذة المغطاة

بقطرات مطر كنت تتأمل من خلالها سكك الحديد، وتحويلاتها، والحصى بين السكك، الصدئة في الغالب، ثم، حقيبة سفرك في يدك، مُستعيداً استكشافك في النصف الآخر من القِطار نحو الآلة، سامعاً إياها تصرخ: «ليون»، ملتفتاً، تبقى واقفاً في فتحة الباب بينما كانت تقول لك:

«ظننتُ أنك لن تأتي قط، ولا بدّ أنك غيرت يوم سفرك؛ لقد احتفظت لك بمكان، ولكن بما أن القطار كان قد أخذ بالسير منذ وقت، فكرت أن هذا بلا جدوى»، نظرتَ إليها وقد استأنفت قراءتها، وأنت واقف في مكانك في الممر، دون سيجارة، دون أن تقول شيئاً، ثم اتكأتَ إلى الشباك وأنت تتساءل: كيف يمكن ترتيب الأمور؟ آه ياليت أحداً ينزل في «لاروش» أو«ديجون»، لو استطعت الجلوس إلى جانبها! وعيناك تائهتان في أوراق الغابة الميتة المبللة وأشجارها الباسقة شبه العارية.

ولكن بما أنه كان يصغي منذ مدة طويلة خائر القوى إلى صخب هذا النهر المنخفض الذي كان يلتمع الآن على أمواجه ألق القمر، إذ كان قد ارتفع في أوج ألقه هلاله الأول، طرفاه متقاربان جداً كقارب بين طرفي صخرة بحرية، وخُيِلَ إليه سماع خبب حصان من الجهة الأخرى من النهر بل حتى صرخة، وثمة مقاطع ترتد من صخرة إلى صخرة، كما لو أن شخصاً انتبه لحضوره وكان يحاول أن يعثر عليه: «من أنت؟»

مشى بمحاذاة الماء باحثاً عن معبر، منزلقاً على امتداد الجدار الذي كان يزداد ضيقاً؛ ينهار ساقطاً إلى أمام، يغوص في الرمل بين الأحجار، فيما يتصاعد الصخب بسبب الصدى وها هو ينجرف، ويتدحرج في سيل سريع، ويُرمى على الصخرة التي يبدأ يزحف عليها حتى مدخل كهف يخرج منه تيار هواء سريع مصحوب بصفير. يتلمس ما حوله كي يجد سطحاً أملس يتمدد عليه، ولكن عليه أن يكتفي بزاوية يستقر فيها، ليس مستلقياً، ولكنّ صدغيه مُسندين إلى سفح عمودي، عِرق مَرْمَر دون شك، منعش ومصقول مثل زجاج نافذة؛ يستعيد أنفاسه؛ ويأخذ يشم رائحة دخان.

عيونه تائهة في الأوراق الميتة لغابة «فونتينبلو»، والأوراق الأخرى في حدائق دون أزهار، محترقة بكومتها، غير راغب في طلب سيجارة من سيسيل المنهمكة في كتابها، التي

لا بد أن يوجد في حقيبتها سجائر، بدأتَ بهذا العمل الاستجدائي، سحبتَ من جيبك علبة كبريت لم يبق فيها إلا ثلاثة أعواد كبريت، شعلتها، الواحد تلو الآخر، وكوعك على حافة النافذة، لكنها انطفأت مباشرة بلا شك إذ كان ثمة شباك مفتوح في النهاية الأخرى للممر، وعندما رفعتَ رأسك لحظتَ أن سيسيل تنظر إليك، وأنها كانت تتمازح، إلى حد أنك ابتعدت قليلاً، مما جعلها تخرج بعد قليل من مقصورتها، سيجارتها في فمها، مقتربة منك كي تعطيها ناراً، لكنك أريتها العلبة فارغة فعادت لتأخذ ولاعتها.

«أتريد واحدة؟

–لا شكراً.

– ألا تريد الجلوس؟

– سأنتظر حتى يكون هناك مقعدان.

– سينزل حتماً شخص ما في ديجون».

كانت تنفض رماد سيجارتها نفضات سريعة بخنصرها. مرت كاتدرائية «سنس» ببطء، رمادية فوق المدينة؛ كنتما بمحاذاة نهر «إيون».

« في أي ساعة ستتناول الغداء؟

– لم أستطع أن أحجز مكاناً. وصلت في اللحظة الأخيرة. نمت متاخراً ليلة أمس. كنت مشغولاً جداً في الأيام الأخيرة.

– نحن الاثنان كنا مشغولين في الأيام الأخيرة.

– سيأتي النادل.

– لقد سُويَ الأمر. لدي بطاقة على الوجبة الأولى؛ لو كنت أعرف أنك هنا لطلبت بطاقتين.

– لا بد أنه كان عندما كنت أتناول هذا الشاي. أنا أيضاً ظننت أنك لم تكن في هذا القطار؛ لقد جلت فيه إلى منتصفه باحثة عنك.

– سنذهب معاً نجرب حظنا. قد يكون الشيطان...

– لا سيما أن مدير الخدم يعرفني. اجلسي ثانية في مكانك؛ لن تبقي واقفة حتى ديجون بسببي».

لكن لم ينزل أحد من هذه المقصورة في «لاروش»، أو في «ديجون»، ووجب عليكما أن تنتظرا وجبة الطعام كي تجلسا جنباً إلى جنب، دون أن تتمكنا حقاً من الكلام بقلب مفتوح، بسبب الشخصين الجالسين إلى جنب مائدتكما، زوج وزوجة مُحبان للمشاجرة.

«في روما، سنكون أحراراً؛ يجب أن أكون عند سكابيلي في التاسعة صباحاً وكنت غبياً عندما وافقت على موعدٍ للغداء، ولكن، من الساعة السادسة، سأكون حراً، سآتي لأنتظرك في «بيتزا فرنزي».

– في روما...

– كما لو أنكِ لا تحبين روما!

– أحبها خاصة عندما تكون أنت معي.

– أود أن أكون فيها دائماً.

– وأنا، أود أن أكون معك في باريس.

– كُفي عن التفكير بهذه الإقامة؛ في المرة القادمة سيكون كل شيء مختلفاً.

– لن أحدثك عن هذا بعد».

سَقَطَ الكتابُ الذي كنت تُمسك به بين أصابعك على الأرضية الحديدية المدفئة. وأنت ترفع رأسك تلمح في المرآة، بين صورة الجبال وصورة القوارب، أبراجاً ومرامي سهام كاركاسون، الصورة الموجودة فوق حقيبة واحد من العمال. تمر محطة قطار صغيرة معزولة، فيها بضعة فوانيس تُضيء مصطبة، وساعة جدارية، وصناديق للشحن.

ثم تتضاعف الضجة وتتواصل بسرعة كبيرة في زجاج النافذة، كضربات مطرقة تنهال بعنف على مسمار جموح، النوافذ المُضاءة لقطار يسير في اتجاه معاكس، قطار روما–باريس السريع الذي كنت قد أخذته كي تعود في المرة الأخيرة.

ما زال العجوزان ساكنين في تأرجحهما الهادىء، ينظران بعضهما إلى بعض ويتبادلان ابتسامة تواطؤ.

تبحث في جيبك الذي لم يبق فيه إلا سيجارتا كولواز ونسيت أن تشتري «نازيونالي» قبل قليل. تجرب وضعاً آخر، مغمضاً عينيك لأن الضوء بدأ يضايقك. لا يمكن التفكير بالنوم حالياً؛ ولربما لن يكون هذا ممكناً طوال الليل. أنت الآن في وضع أفضل، ولكن لن تتمكن من الاحتفاظ بساقيك متصالبتين على هذا النحو.

إن كانت هناك رائحة دخان، فلا بد أن أحداً يعيش في هذا الكهف، وينهض بحذر كي لا يصطدم بالقبة بعنف، يتقدم ويداه محكمتان على الصخرة، بينما تزداد الرائحة قوة.

يلمح أثناء استدارة ناراً وسط صالة كبيرة ناضحة ومضببة، وبريقاً برتقالياً كبيراً وسط البخار؛ يقترب، سامعاً تنفساً مبحوحاً ثقيلاً آخر، تنفس امرأة عجوز ساكنة تنظر إلى كتاب كبير، دون أن تحرك رأسها تدير عينيها نحوه فحسب مع ابتسامة ساخرة، تهمس (لكن هذه الوشوشة المضخمة على نحو كبير تصبح شبيهةً بالضوضاء التي يصدرها القطار داخل نفق ومن الصعب فهم ما تقوله): إنها مُتعبة هذه الغابة، وهذه الأدغال، وهذه الأحجار، ولكن الآن من حقك أن تستريحي قليلاً كي تصغي إلي، وتطرحي علي هذه الأسئلة التي لا بد أنك أعددتها على نحو طويل، ودقيق، إذ لا يرحل المرء في ركبٍ بهذه الخطورة دون أسباب في غاية الدقة، والنضج، والتعقل، التي لا بد أن تكون مدونة على هاتين الورقتين اللتين ألمحهما من خلال البخار ودخاني الأصهب، مُلصقَتين، على هذا الهندام الغريب الذي يُنبهني شكله المحطم ولونه الحائل إلى المسافة التي لا بد أنك اجتزتها.

« لِمَ لا تكلمني؟ أتتصور أنني لا أدري أنكَ أنتَ أيضاً تذهب في البحث عن أبيك كي يخبِرك عن مستقبل عرقك؟»

عندئذ بشيء من الشهقة والتأتأة:

«كلا، لا داعي للسخرية مني، لا أريد شيئاً، أيتها العرافة، لا أريد سوى الخروج من هنا، والعودة إلى دياري، العودة إلى الطريق الذي كنت قد بدأته؛ وبما أنك تتكلمين لغتي، أشفقي قليلاً على ذلي، على عدم قدرتي على تشريفك، وعلى قول الكلمات التي تناسبك، وتُطلق جوابك.

– أليست موجودة في أوراق «الدليل الأزرق» للتائهين؟

– مع الأسف لا، لم تعد موجودة، أيتها العرافة، وحتى لو كانت موجودة لن أتمكن من قراءتها.

– هيا، أستطيع أن أزودك بقطعتي الكيك المحروقتين في الفرن، ولكن أشك في أنني سألمحك عائداً إلى النور.

– أليس هناك أيضاً غصن ذهبي يمكن أن يرشدني ويفتح لي الأسوار؟

– لا، ليس لك، ليس لأولئك الغريبين على رغباتهم؛ لا يمكنك أن تثق إلا بهذا البريق غير الأكيد الذي سيظهر حال انطفاء هذه النار الخامدة».

لم تعد يوجد إلا غيمة ثقيلة تنتشر بعيداً وعبر هذه الغيوم الحادة ثمة لون فضي؛ يأخذ في الحركة.

بما أنك لم تعد قادراً على تحريك ساقيك المتصالبتين على هذا النحو، تمدهما الواحدة بعد الأخرى كشخص يمشي فتصطدم بقدم هذا العجوز الإيطالي الذي يواجهك، والساكن كأنه نائم على الرغم من عينيه المفتوحتين اللتين لم تتوقفا منذ بضع لحظات عن التحديق بك كما لو أنه يتسلى بحركة شفتيك، كما لو أن حلماً ما في داخله كان يُعلق عليهما.

هذه الحركة، هذا التأرجح، هذه الضجة، هذا الضياء، كل هذا بدأ يَثقُل عليك؛ كل هذا التعب المتراكم على امتداد هذه الساعات والكيلومترات، الذي كنت قد قاومته على نحو مناسب حتى الآن، ها هو الآن يهددك ككومة علف كبيرة، إلى حد أن رغبة عارمة في أن تتمدد تغزوك، لكنك لا تستطيع، لا يمكنك أن تزعج هذه العجوز، لا تريد أن تظهر أقل مقاومةً من «بيير» هذا الذي تنام الآن على كتفه «آنييس» والذي لا بد أنه معتاد أقل منك على مسار الرحلة هذا، والذي لا بد أنه يقوم أول مرة برحلة باريس–روما، والذي يحتفظ بابتسامته، ويداعبها تحت أنظار الإيطالية التي استرخت نظرتها قليلاً، وأصبحت مشوبة بترحاب يبدو أنه أخذ في الظهور على السطح بعد أن اجتازت سنوات وسنوات من القسوة، والمثابرة.

تستقر في زاويتك، مغمضاً جفنيك نصف إغماضة، ومن خلال هذه الفتحة كفتحة

مشربية حانة، كرجل مخمور لم يعد قادراً على ايجاد قطع النقود القليلة في قعر جيبه كي يأخذه سكره الكئيب إلى النوم، ترى في الغيوم الكثيفة الوجوه الأربعة هذه التي تهتز، في الضجة، مع مستطيل الليل هذا الذي يتغيرعمقه نوعا ما إلى يسارك، نعم، إنها الجهة اليُسرى، ومن خلال هذا الانعكاس، ومن الجانب الآخر، هذا الممر الذي تقترب منه الجلبة المعدنية المعلنة عن المفتش الإيطالي.

عندئذ، وحينما تغور فقرتاك العنقيتان العلويتان،الفقْهة (الفقرة العنقية الأولى) والفائق (الفقرة العنقية الثانية) (مفاهيم تعود، كمذاق وجبة دسمة جداً، إلى بضعة دروس في التاريخ الطبيعي منذ زمن بعيد)، تغور شيئاً فشيئاً كإبرةٍ رفيعة صدئة، ها هو، هذا الرجل ذو القبعة، يفتح الباب، يطالبكم بفمه ذي الشوارب بـ«تذاكركم رجاءً»: فتبحث، متضايقاً من تصلب رقبتك المؤلم، في جيوب معطفك وسترتك، لكن لا تتلمس هذه الورقة الصغيرة التي لا تدري كيف جاءت إلى هنا إلا في جيب بنطالك، إذ كان ينبغي أن تُعيدها كعادتك إلى محفظتك؛ لا بد أن مفتشاً قد جاء إلى هنا قبل قليل، بينما كنت في عربة المطعم، لكن هذا المفتش لم يتفرس في وجهك بهذا النحو؛ كان يظن أنك من ركاب الدرجة الأولى؛ ربما هو معتادٌ رؤيتك في الدرجة الأولى؛ وربما هو مندهش من رؤيتك هنا هذه المرة؛ لا بد أنه يتساءل إن كنت مُفلساً؛ يلمس قبعته بجهاز ثقب التذاكر؛ يعيد غلق الباب بعنف.

ثمة دبوس صدىء آخر له رأس طويل يضغط، ويبحث عن طريقه بين فقرتيكَ العنقيتين الثانية والثالثة، ونقاط أخرى تبدأ بالوخز على امتداد ظهرك، يجعلك تحك ظهرك بالمسند، فيساعدها هذا على الانغراز، دخلت دزينة منها، تعوق حركتك، شبيهة بمخالب وأسنان تدخل أكثر فأكثر إلى أمام، وأخريات بعد، فكٌّ من خمسة عشر سناً تبحث كما لو أن لكل واحد منها استقلاليته، تضيق فجأة، يجبُرك هذا الألم على الاستقامة من جديد.

لا تريد أن تعود: تخشى أن تشم هذا الفم نفسه، وترى هذه النظرة القاسية والكابية، وحراشف هذه الأفعى الشائكة التي يلتف ذيلها البارد حول ساقيك اللتين لم يعد بمقدورهما أن تنفصلا.

ينهض العجوز الجالس في مواجهتك وكأنه يقول لك: «انظرْ كم هي مَرِنةٌ حركاتي»؛ يبدو كأنه يطفو نحو الباب الذي ينفتح أمامه دون أن يمسه تقريباً، ضخماً، فيختفي.

يرتجف الضوء داخل حاملة المصباح ويهتز كما لو أنها ستنطفىء فجأة. تنتفض آنييس، تفتح فمها كما لو أنها رأت فجأة حفرة؛ تتذكر أنها داخل قطار، تُمَرر يدها على جبينها، بعض شعراتها خارجةً من وشاحها، تنظر إلى بيير الذي يأخذ أصابعها، يمنحها قبلة في عنقها، تريح رأسها على كتفه، تنظر إليك، تبتسم لك، وتستسلم مرة أخرى للتأرجح، وينغلق جفناها مرة أخرى بهدوء؛ تبدو القوارب في الصورة الموضوعة على الجدار أعلى رأسها وكأنها تسير مساءً، عند غروب شمس روما،على أمواج من حرير مذهب وأزرق غامق.

تتأرجح أشجار الصنوبر بهدوء في الضوء؛ لم نعد نرى أشخاصاً في الحقول؛ لا بد أن الفلاحين ينامون.

وحيد في مقصورتك، وبين يديك رسائل جوليان لابوستا التي انتهيت من قراءتها، بدأت المدينة تتبين لك بقبة سان بيير وكان هذا الاقتراب يملؤك بالفرح.

نَهضتَ حينئذٍ، وضعتَ كتابكَ في حقيبة سفركَ، أنزلتَ شباك النافذة كاملاً، ونظرت إلى هذه البيوت التي كانت تمر، وإلى الشوارع، والنساء عند أبواب بيوتهن، وحركة السير، والتراموای، والتبر، لاستازيوني، تراستيفير، والتبر الذي اجتزته مرة أخرى، وبداية الأسوار، لاستازيوني اوستينسي.

كم كنتَ تتنفس الصُعداء حينئذ، كم كنت متهيئاً لملاقاة سيسيل، كم كنتَ على عجلة لإنهاء الأعمال مع سكابيلي، أي رغبة كانت تغمرك في هذه اللحظة: أن تأتي مرة من أجلها هي فقط، لم تكن تعرف متى بعد، قد تكون هذه المرة، وقد تتخذ هذا القرار مبكراً جداً!

كانت تمر محطة لاستازيوني تسكولانا، ثم اقتربتْ باب «ماجور» بقبر الخباز اوريساكيس(Eurysacès) الذي كان يتكىء عليه سكير عجوز نهض، وأرسل إشارات إلى القطار كما لو أنه كان يستقبلكم في روما، وأشغال ترميم قارعة الطريق.

استعاد حركته. كانت الأحجار التي يريد أن يضع قدميه عليها تتفتت، وتنقلع من مكانها، وتتدحرج من طبقة إلى طبقة إلى أن أصبح من المحال التمييز بين ضجيج سقوطها وسط هذا الطنين الذي كان يأتي من الأسفل والذي تزداد حدته أكثر فأكثر.

ثمة غيمة كثيفة كانت تنتشر، بعيداً، من خلال هذه الغيوم الكثيفة، كان يظهر لون فضي.

وصل إلى ضفة الماء؛ رأى بضعة انعكاسات على الأمواج؛ وكان يُصغي طويلاً لتلاطمها.

حينئذ يأتي قارب دون شراع على النهر الطيني، في زوبعة، على متنه رجل عجوز واقف مسلح بمجداف يحمله مرفوعاً على كتفه، كما لو أنه متأهب للضرب.

لم تعد هناك عينان فوق لحيته المتصلبة البنفسجية اللون بفعل الانعكاسات بل تجويفان فحسب يشبهان محرقين بلهيب يصدر صفيراً يمنع تمييز أي شيء آخر من الوجه بسبب الانبهار الذي تثيره.

إنه قارب معدني، كتلة كثيفة صدِئة، لكن جوانبه فاتحة اللون كسكك حديد حادة كشفرة منجل.

يقترب من الساحل، يكاد لا يهتز، يستند المجداف على الرمل الغامق اللون؛ وعندئذ ثمة صوت وديع على نحو غريب:

«ماذا تنتظر؟ هل تسمعني؟ من أنت؟ أتيت لآخذك إلى الضفة الأخرى. أرى أنك ميت؛ لا تخف من الانقلاب، لن يغرق القارب بفعل وزنك».

لكن لا، لا يمكنه الإمساك بهذه اليد، وعلى راحة يده المُضاءة بلهب المحرقين الساطع، يرى زيتاً أسود مذاب يسيل من جميع أظافره يلتصق بجلده، يزحف، لزجاً، يتوغل إلى داخل كمه.

ينهار، وتلثم الأمواج الطينية جسده كله، يلتقطه المُهَرب، يرميه في قعر قاربه الذي يعومه من جديد؛ حينئذ يحرقه صوته، وكأنه مضخم بأحد مكبرات الصوت المعدنية التي تُستَخْدَم في المحطات:

«كنت ترغب في الذهاب إلى روما، أعرف ذلك جيداً، أعرفك؛ لم يعد الوقت يسمح بالتراجع، سأقودك إلى هناك».

ثم مر تحت باب ماجور ودخلت إلى روما.

ثمة قطارات أخرى كانت تقترب من قطارك، سائرة بالسرعة نفسها تقريباً، ومن نوافذها المفتوحة كان الرجال والنساء ينظرون إلى هذا الجناح الدائري الأحمر، معبد «مينيرف مدسن» (Minerve Médecin)، ثم بنايات المحطة، والأرصفة ومصطباتها من المرمر.

كم من الوقت مر منذ ذلك الحين، ومع ذلك لم يمر أكثر من ثمانية أيام فحسب؛ لم تذهب أبداً من قبل في رحلتين متقاربتين على هذا النحو إلى روما ؛ إنه الوقت السابق، الذي كان متماسكاً وكأنه شقة جدار من الطابوق، الذي تراكم كله منذ سنين، وأخذ يتأرجح فجأة أثناء هذه الرحلة، ويستمر، وسوف يستمر في حركته القاسية حتى قبل فجر الغد، لكي تتخذ الأمور شكلاً جديداً مستقراً بعض الشيء.

كان كل شيء قيد الانتظار بعد، المستقبل بكامله مفتوح لسيسيل، إمكانية أن تحيا معها شباباً جديداً، أول شباب حقيقي لك، لم يُمس بعد. دخلتْ الشمس إلى «ستازيوني تيرميني» من جهة اليسار: آه، كم كانت جميلة هذه الأيام القلائل!

تتمايل القوارب فوق رأس آنييس الغافية على الضجة التي يُحدثها القطار المار داخل نفق. وترتجف فوق بيير في المرآة، أبراج كاركاسون.

استعادت سيسيل مقعدها تواً في مقصورتها في الدرجة الثالثة، في هذا المكان الذي تشغله أنت حالياً، في الزاوية المحاذية للممر في اتجاه السير. أي صورة كان يمكنها أن ترى فوق هذا الشخص الجالس أمام ناظريها الذي لم يعد له وجه بالنسبة إليك؟

في الممر، وأنت مُتكىء على المسند النحاسي، شهدتَ مرور هذا الجدار الحجري الكبيرالمسجل عليه: «في هذه القرية (لقد مررت تواً من هنا، ولحظت مرة أخرى هذا الحجر والكتابة الموجودة عليه، لكن هذا الاسم على مسار الرحلة هذا الذي تعرفه الكثير من أسماء القرى غير ذي أهمية، هذا الاسم تجهله دائماً) في السنة الفلانية (في بداية القرن

التاسع عشر، الف وثمانمئة بالطبع، ولكن بعد؟) اخترع نيسفور نييبس (Nicéphore Niepce) «التصوير»؛ مررت رأسك من خلال الباب لتعلم سيسيل التي استعادت الغوص في كتابها الذي لا تعرف عنوانه، وأخذتَ تفكر بصور باريس الموجودة في غرفة نومها في روما: أبراج نوتردام، وسلم لبرج ايفل،وقوس النصر، والمسلة السوداء، هذه الصور الأربع على الجدارين إلى جانبي النافذة كهذه التي تزين هذه المقصورة، هذه الحُجرة الآنية والمتحركة التي لايمكنك التمدد فيها.

كانت السماء تمطر فوق جبال الجورا كما مَطَرت اليوم؛ كان زجاج النافذة مُغطى بقطرات يزداد حجمها شيئاً فشيئاً تنزل ببطء على نحو منحرف ومتعرج كما لو كانت لاهثة، هزة إثر هزة، وفي الأنفاق كان انعكاس وجهك يشكل مثل حفرة ظل شفافة كنت تلمح من خلالها هروب الصخرة الساخط.

كنتَ تقول لنفسك: يجب ألا أنظر إلى الوراء نحو هذه الإقامة المكدرة، يجب محو أيام التيهان القلائل هذه؛ لم تكن هي هناك؛ لن نتحدث عن هذا ابداً: أنا ذاهب إلى روما، حيث سألتقي بسيسيل، أعرف أنها تنتظرني هناك؛ لم نذهب معاً إلى باريس؛ إن كانت هنا، خلف ظهري، وهي تقرأ هذا الكتاب الذي اشترته في محطة ليون قبل الرحيل فهذا مصادفة محضة.

كانت السماء تمطر على جبال الألب و كنت تعرف أن هذا المطر يُصبح ثَلجاً في الأعالي غير المنظورة؛ كان كل شيء مغروساً في البياض المُغلَق حينما توقف القطار في مودان.

كُنْتَ جالساً (لا بُد أن شخصاً نزل في شمبيري أو في إحدى محطات الوادي الصغيرة) قبالة سيسيل الغارقة في قراءتها، والتي نادراً ما كانت ترفع عينيها لتنظر من خلال زجاج نافذتها، قائلةً «أي طقس!».

كانت ندائف الثلج تلتصق بزجاج النافذة. طلب موظفو الجمارك منكما جَوازي سفركما.أغلقت هي كتابها الذي لم تقرأه أنت، والذي لم تسألها حتى عن عنوانه، الذي ربما تكون قصته تتحدث عن رجل كان يرغب في الذهاب إلى روما وكان يواصل إبحاره

تحت مطر خفيف أسود، يصبح شيئاً فشيئاً أبيض كالثلج، و جافاً شيئاً فشيئاً كقطع صفحات ممزقة، غير مستلق حقاً في قاربه المعدني، لكن صدغه يستند إلى الحاجز العمودي البارد الصقيل كزجاج نافذة، كانت تأتي منه رائحة دخان، لامحاً من جديد في الظلام بريق نار أحمر. كانت الاهتزازات تتوقف تدريجياً، الرمل يصر على هيكل السفينة المعدني الذي انفتح مثل يدين على الساحل المضبب، وحيداً، عاد المهرب مختفياً في غياهب الليل، بالتأكيد لملاقاة ظل آخر.

ما يزال يُمسك بين يديه قطعتي الكعكة الموشومتين براحتي يدين من الزيت الأسود وبقطرات من الدم، لأنه كان متعلقاً بحافات القارب أثناء إبحاره وهو نائم.

كان يتأمل ثلاث قطرات كثيفة أو أربعاً تسيل متعرجةً ببطء، كما لو أنها كانت ترغم نفسها على إعادة شق طريق معقد في منطقة وعرة وقاحلة.

كان هناك ضجيج الأمواج السود لاعِقةً الرمل البنفسجي، ثم فجأةً، في المنطقة التي كان يأتي منها البريق، ثمة ضجيج كبير لأجنحة، لطيران غربان في جميع اتجاهات الفضاء، بعض منها يمر فوق رأسه وتستمر في طيرانها فوق النهر، إن كان نهراً، أو بحيرة، أو ربما هوراً، إذ ثمة رائحة قصب، وطين، وطحالب مختطلة أكثر فأكثر برائحة هذه النار التي لا بد أن تكون رائحة خث[1]، والتي لا بد أن يقترب منها، إذ لن يبقى مستلقياً وحيداً طويلاً بعد، في هذا القارب المتفكك، والمتزعزع، من معدن رقيق خطر، الذي انفتح كَفَصٍّ، تلثمه الأمواج الصغيرة وفقاعاتها، مع زوبعات الرمل والحصباء التي تتسلل على امتداد ساقيه وظهره.

تظنه الغربان، إن كانت غرباناً، ميتاً، إذ في اضاءة كهذه يمكن لأي طائر أن يبدو أسود ولا تُصدر أي صوت: وَكَرَ طيران على كتفيه، وآخر على رأسه، متشبثاً بشعره.

يستقيم ببطء شديد، الرقبة أولاً، ثم الصدر، ثم يرتكز على يديه المنهكتين، ينهض، ينتصب زاحفاً على ركبتيه؛ ها هو ذا واقف مرتجف بغربانه الثلاثة الساكنة التي لا تفارقه، غارزةً مخالبها، وآخران ينتزعان منه قطعتي الكعكة الرقيقتين الدائريتين الملطختين.

1- تراب عضوي يتكون من تحلل النباتات الطحلبية (المترجمة).

يستمر مطر الأوراق الصغيرة، شبيهاً بأوراق التويج أو الأوراق الميتة، مستقرةً على سطح الماء الذي تكاد تغطيه تماماً، مانحة إياه مظهر لوحة تتشقق، ملتصقةً على ما تبقى من ثيابه، ووجهه، وعينيه التي بدأت تتعود، وتكتشف أنه لم يكن ساحلاً بل ميناء، وأن ثمة سدة إلى اليمين، ورصيف أبعد بقليل، وسلالم، وحلقات، وأن هذا البريق كان بريق منار.

يصعد، يترك نفسه ينقاد؛ تنخفض ضجة الأمواج؛ يحاصره ضجيج من وقت لآخر على نحو دفعات، ككتلة كبيرة من التنفس؛ يعرف أنه يُحاذي جِداراً من الطابوق وها هو الآن الباب الكبير(ماجور) لكن دون ترامواي، دون سكك حديد، وعمال، أو ناس، دون أي حركة في البريق المنتشر الذي يجلس أمامه، على كرسي عاجي[1]، شخص ما، أطول من رجل بكثير، ليس بوجه واحد بل بوجهين، الوجه الذي يستدير نحو التعيس متغضناً من خلال ضحكة صارخاً به:

«لن تتمكن من العودة أبداً»، والآخر يستدير نحو الباب، نحو المدينة، في نفس اتجاه وجهه، الوجه الذي لا يراه، يسمعه هو أيضاً يصرخ، مدة أطول، وبصمت أكبر، وأن هذه الشكوى التي لا يتمكن من البوح بها، نطق بها، واستحالت إلى نباح، والطيور تحوم حول هذا الرأس المزدوج تحت مطر نثار الصفحات.

ثم يصمت كل شيء؛ لم يعد هناك إلا هذا التنفس الكبير والغامض الذي ينضح من الجدار.

أعاد لكما رجال الجمارك، العجولين، ونُديفات الثلج على لباسهم الرسمي وشعرهم، جوازي سفركما وأغلقوا الباب خلفهم.

في هذه المقصورة المُكتظة والحارة، وبين هؤلاء الناس الذين نسيتَ قسمات وجوههم، فرنسيون وإيطاليون كانوا يتحدثون دون شك، ولكن لم تكن تصغي لأحاديثهم (لم تكن إلا ضجة كضجة القطار الذي رحل من جديد، وغار في النفق)، لم تكن تنظر إلا لسيسيل جالسةً قبالتك وكانت قد استعادت كتابها، ولم تكن منتبهة لك، ولم يبدُ عليها أنها أدركت أنك قد أضعتها، وكنت تحاول ببطء، بعناء، أن تستعيدها، أن تقترب منها بعد هذه الهوة التي كانت قد حفرتها بينكما الإقامة الباريسية، التي كان ينبغي الكف عن التفكير بها.

1- كرسي من العاج خص به كبار القضاة في روما القديمة (المترجمة)

كانت بدأت الكف عن التفكير بها، أو على نحو أكثر دقة الكف عن التفكير بك أثناء هذه الإقامة الباريسية، إذ لو تَمكَنَتْ من تعليقك خلال هذه الأيام القلائل المنصرمة، وتتظاهر كأنك كُنتَ غائباً عن باريس، مُتَجنبةً تذكر وصولها، ومواعيدكَ، وزياراتها لـ خمسة عشر ساحة البانتيون، فهذه الرحلة التي كانت قد تمنتها كثيراً بدت لها ناجحة، هذه الرحلة التي كانت قد شعرت أثناءها بمتعة كبيرة بلقاء مدينتها الأم دون أن تكون عوناً لها في هذا الخصوص، كأنك لم تكن عوناً لهنرييت بخصوص روما حين عدتما إليها بعد الحرب.

لم تكن عينا سيسيل تتابعان الأسطر الأخيرة من كتابها إلا بشرود؛ كنت تشعر أن أمراً ما يعتمل في ذهنها؛ وترقب تعابير وجهها وتركتك هي تفعل هذا،

كأنها لم تلحظ أنك كُنتَ هنا، من أجل أن ترتب ذكرياتها لهذين الأسبوعين، كان ينبغي أن تُغيبك، كأنها لم تقم بهذه الرحلة معك، كان ينبغي إذن أن تلتقي بك مصادفةً في هذا القطار، كأنها لم تتناول الغداء معك قبل قليل؛ كانت تحلم، مبتسمةً لنفسها، بأنك غائب، بأنها كانت تفكر بك، وأنها كانت ذاهبة لتراك في روما، وأن تُدرك فجأة أنك ها هنا، وأنها كانت سعيدة جداً بذلك ومتفاجأة كأنّ روما كانت قد أتت لاستقبالها.

هذا ما كُنتَ تقرؤه على وجهها، ما كنت تفك رموزه من هذا الحوار غير المصوغ خلف شاشة كتاب.

كانت تحلم، جالسةً في المكان نفسه الذي تجلس فيه الآن، في يديها كتاب مغلق، رأسها صوب اليمين، وكانت تنظرفي غيابك إلى منظر «بييمو» (Piémont) المدلهم، الذي تأملته أنت المسافر الزبون، مرات عديدة، كانت تحلم بأنها تتخيلك أمام ناظريها تنظر معها، بعد أن أخَذتَ القطار نفسه، دون أن تعلم بذلك، دون أن تعلم هي بذلك، تحلم أنه سيكون رائعاً أن تلتقيك هنا مُصادفةً، تحلم بأنها كانت مشغوفة برؤيتك وأنك بالفعل تظهر فجأة في الممر، تلمحها، تفتح الباب، تأخذ مكانك المواجه لها، في الموقع نفسه الذي كنت تحتله، تلمحها جانبياً، قلقاً، بسبب «سكابيلي» دون شك، وبسبب هنرييت هذه التي لم ترها أبداً في باريس.

كانت تنظر إليك الآن بسعادة المشاهد الباريسية، وذكرياتها، حيث لَعَبْتَ دوراً سيئاً، تغور في هذا الخيال الأكثر قوة، لكنها كانت تعرف جيداً مدى خطورة هذه المنطقة وأنه ينبغي عدم الكلام عنها، بل ينبغي الحديث عن روما كي يكون العشاء أقل صمتاً، حيث كنتما تصلان معاً، حيث أردتما، أنتما الإثنان معاً، أن يكون الآخر في انتظاره، بل أفضل من ذلك، أن يكون الآخر قد رحل منها، وأتى إلى تورينو لملاقاته، واستقباله، وإعطائه آخر الأخبار.

وإذ كان كل واحد منكما يخشى كلمات الآخر، ثمة تهور فَصمَ هذه اللُحمة التي شعرتما أنها تعود بينكما! عدتما، صامتين، إلى مقصورة الدرجة الثالثة، التي نزل منها بعض المسافرين خلال ذلك الوقت، حيث تمكنتَ أن تجلس إلى جانب سيسيل، أن تضع يدك خلف ظهرها بينما كانت تقول لك: «أنا مُتعبَة»، لكن ينبغي الانتظار حتى جنوة للتمكن من إطفاء الضوء.

في الضوء الأزرق، نامَتْ على كتفك وكُنتَ تُداعبها، وتمنحها قبلات قصيرة على شعرها الأسود الذي كان يتراخى شيئاً فشيئاً، متحرراً من النظام الذي كانت تفرضه عليه دبابيسه، منزلقاً على امتداد رقبتك، مدغدغاً شفتيك، ومنخريك وعينيك.

تتحرك الأبراج السود في المرآة فوق كتف بيير. والمرآة التي تشكلها النافذة، عبر انعكاس هذه المقصورة، تمر الأضواء في الريف، ومصابيح السيارات، وغرفة مُضاءة لمنزل حارس محطة حيث تخلع فتاة صغيرة، تُلمح لحظة، صدريتها المدرسية أمام دولاب ذي مرآة. وثمة انعكاس آخر، هو الأكثر ارتجافاً من بين الجميع، في نظارات العجوز الإيطالي المحاطة بالمعدن، الجالس أمامك نائماً، الصورة التي فوقك، خلف رأسك، والتي– وأنت تعرف ذلك– تمثل قوس النصر مُحاطاً بسيارات أجرة قديمة.

لم يكن لديك قط هذا الأساس، وهذا الوضع، وهذه العادات التي كُنتَ تريد أن تتخلى عنها من خلال هذه الرحلة ؛ لم تكن تسكن بعد بين هذه الجدران، خمسة عشر ساحة البانتيون، التي كنتَ تريد أن تتركها لتعيش في مكان آخر في باريس مع سيسيل، التي لن تتركها، وحيث أنت محكوم أن تعيش فيها الآن حتى مماتك، حيث إن سيسيل لن تأتي

للعيش معك، وأنك لن تأتي بها كما كنتَ تنوي بعزم شديد وأنت راحل من محطة ليون هذا الصباح، كما كنتَ ما تزال تنوي بعزم حتى...، كما كنتَ تظن أن لديك العزم حتى...، لن تأتي بها إلى باريس، عارفاً حق المعرفة من الآن فصاعداً أن هذا سيؤدي، على الرغم من كل الجهود التي قد تحاول بذلها لخداعها وخداع نفسك بهذا الموضوع، إلى انفصالك عنها بالتدريج ولكن بالتأكيد، بالتدريج وبأصعب طريقة وأكثرها مضرةً لكما أنتما الاثنين، وأنك إن هجرتها (وستهجرها بسرعة، على الرغم من كل حبك الصادق)، وسيتضح أن هذا الوضع الذي أوجدته لها في باريس هو محض سراب، وأنها لن تتمكن من البقاء فيها دون حمايتك التي ستتمنع عنها حينئذ، لأنك لن تعود راغباً في الاستمرار في رؤيتها، لم تكن إذن تسكن بعد في هذه الشقة التي حُكِم عليك بها حتى نهايتك، حيث لا تكون هناك سيسيل أخرى، فقد فات الأوان الآن، إذ كانت فرصتك الأخيرة في استعادة شبابك، هذا الشباب الذي عملت كل ما في وسعك للإمساك به، ها هو في الأقل اعتراف تُدلي به لنفسك، لكنه تفتَّت بين أصابع يديك، ظهر كأنه غير موجود في الواقع، كما لم يظهر إلا بفضل النسيان، وبفضل جبن ذكائك، لم يكن لديك هذا الأثاث الذي يزين صالونك لأنه كان مايزال لدى أبويك أو أثاث هنرييت أو لم تكن قد اشتريته بعد، لم تكن بعد أباً لهؤلاء الأطفال: مادلين، وهنري، وتوما، وجاكلين، إذ كُنتَ قد تزوجتَ تواً، وكانت رحلة عرسك والمرة الأولى التي تذهب بها إلى روما، هذه المدينة التي كُنتَ تحلم بها منذ أيام دراستك الثانوية وأولى زياراتك للمتاحف، كل ضواحي باريس مُزهرة في الربيع بأشجار فاكهتها، والجو رائع تتسلل رائحته من النافذة المفتوحة قليلاً، وهنرييت إلى جانبك، في غاية السعادة بثوبها الجديد على موضة ذلك الزمان، منبهرةً بأدنى الهضاب ارتفاعاً، ماسكةً بيديها الدليل الأزرق لإيطاليا بطبعته القديمة التي ما تزال تحتفظ بها على أحد رفوف مكتبتك إلى جانب النافذة المطلة على القبة المُضاءة أيام السبت، بينما كُنتَ تبذل قُصارى جهدك لتحفظ عن ظهر قلب أمثلة في قواعد اللغة الإيطالية، وغابة «فونتين بلو» في أوج نموها (ألم تكن هي التي حدثتك في ذلك الوقت عن هذه النزهات التي قامت بها وهي شابة مع شقيقاتها، مُرْعَبة وقت حلول المساء من ملاقاة رئيس الصيادين بصحبة

الكلاب منادياً إياهن وخاطفهن؟)، سبقكما هطول الأمطار، مُلمعاً السقوف والأرصفة، والمراعي المذهلة في أعالي الجبال.

كانت الشمس تسطع عند الحدود، وكنا نرى قمم الجبال المذهبة فوق الظل، وطلب رجال الشرطة منكما جوازي سفركما.

لم يعد هناك إلا هذا التنفس الكبير والغامض الناضح من الجدار. عندئذ، أخذ وجه موظف الجمارك الإيطالي العجوز يبتسم بشفقة ويهمس:

«أين أنتم، ماذا تفعلون، وماذا تريدون؟»

– إن كُنتُ وَصَلْت حتى هنا وسط أخطار وأخطاء عديدة، فهذا يعني أنني أبحث عن هذا الكتاب الذي فقدته إذ لم أكن أعرف أنه بحوزتي، ولم أهتم بأخذ عنوانه في حين أنه كان المتاع الحقيقي الوحيد الذي حملته في مغامرتي. قيل لي إنني أستطيع أن أحصل على نسخة من هذه المدينة التي تحرس أنت بوابتها حراسة شديدة.

– لكن أتظن أنكَ تعرف الإيطالية على نحو كاف يؤهلك لقراءة النسخ، التي ربما، إن كان بقي بعض منها في حالة حفظ، يمكن أن تُقتَرَح عليك؟

– «ادخل، الباب مفتوح على مصراعيه، وبوجهي الآخر سأرقب خطواتك الأولى؛ لم يبق لك خيار آخر: لم يعد بوسعي إلا أن أغلق الطريق بَعدَكَ وأؤكد لك أنه مسدود، إلا أن أعيركَ واحداً من أدلتي، ذئبة ذات فروة بلون التراب وهذا البخار الذي يخرج من فمها إلى حد أنك، بعينيك المضببتين، لن تتمكن من رؤيتها إلا من وقت لآخر، حينما تكون قريباً منها، مُمَيزاً حينئذٍ فروتها ومخالبها، ولكن يلزمك عادةً أن تحذر فقط من ضجيج شخيرها ومن خربشتها».

كان القمر يظهر فوق الهضاب المذهبة الأرجوانية، ديكور لهب ضخم حديث العهد أخذ وجه موظف الجمارك يصبح أمامه أزرق شيئاً فشيئاً، يعلو تقاسيم وجهه هذا الابتذال نفسه الذي يبدو عليه اليوم، لكن تشوبه عجرفة وقساوة أكبر.

عندما استأنف القطار مسيره ليغور في النفق، لم تكن المصابيح مُضاءة بعد، ولا مصابيح الليل الخافتة؛ ومرت لحظات ظلام مطلق، ثم المَخرج الأخضر الزمردي، وفرجة السماء الغسقية فوق وديان بييمون المظلمة، الحادة والواسعة.

كانت إيطاليا بوليسية في ذلك الوقت، متسممة بالحُلم الإمبراطوري، بزي موحد في جميع المحطات، لكن هذا الهواء الذي تتنفسه، هذا الهواء الذي كُنتَ تجهله حتى ذلك الوقت، هذا الربيع الحقيقي الذي كُنتَ تشمه أخيراً، والذي لم تعطك فرنسا إلا فكرة بسيطة عنه، كان يلزم أكثر من هذه الحماقة المسلحة المرعبة لتمنعك من الإحساس به، وقلت لهنرييت التي كانت تبوح لك بضيقها: «لا وجود لهم»، وهذا ما حاولَتْ جاهدةً، عبثاً، أن تُصدقه.

كنتما في القطار، ليلاً، على ساحل البحر مع القمر الذي كان يتلألأ على الأمواج الهادئة، هي إلى جانبك وآنييس بالقرب من بيير، ذراعك خلف خصرها، ورأسها مُسند على كتفك، ويداها على ركبتيك، بعض من خصلات شعرها مرفوعة بفعل تيار الهواء تأتي نحوك لتدغدغ جفنيك، وكُنتَ تُبعدها بحركة من يدك كحركة حشرات وديعة، وكنت تشم من خلال قميصك منخريها وتنفسها.

كُنت تستدير أكثر فأكثر؛ فأصبح ظهرك أكثر فأكثر ليس مسنداً على ظهر المصطبة بل إلى زجاج النافذة، حتى إنك كنتَ ترى صورة قوس النصر مباشرة وسط سيارات الأجرة القديمة. قبالتك في زجاج النافذة، خلف الوجه الجانبي للعجوز الإيطالية، مرت صورة هذه المقصورة فجأة، مهشمة، مبعثرة بفعل مرور قطار آخر جميع نوافذه مُضاءة أو تكاد تكون، دون أن نتمكن من عدها، أو النظر من خلالها، بفعل السرعة المُضاعفة، بضجة عنيفة لا سيما أننا دخلنا تواً في نفق؛ والآن وقد انتهى القطار والنفق، فخرج وجه القمر من شاشة جبل وعلق لحظات تحت صورة المصباح السقفي.

تتضاعف الأضواء؛ هذه شوارع بإعلاناتها الضوئية ومقاهيها العاجة بالنشاط. تنظر إلى ساعتك اليدوية؛ نعم، إنك تقترب من جنوة؛ سيكون هناك مرة أخرى نفق طويل، ثم تأتي المحطة الرئيسة.

يمر تراماوي شبه خالٍ، يتمايل. يأتي العاملان لأخذ حقائبهما. تذهب العرافة لتجلس في الزاوية بالقرب من النافذة. تنظر آنييس إلى الجدران الحادة التي تمر. ها هي المدينة بكاملها، الميناء إلى يمينك بقوارب مضيئة كواتها، والفنار الشهير، والأرصفة، وقطارات

أخرى، وجميع المسافرين الذين ينتظرون مع أمتعتهم، والبنايات الشاهقة معلقة في الأعالي على الصخر، توقف القطار، تنهض آنييس لتخفض النافذة.

أما أنت، فتقلب بين أصابع يديك، ويهيمن السكون عليك تماماً بصورة مفاجئة، هذا الكتاب الذي لم تقرأه، لكن كتاباً آخر بدأ يفرض نفسه عليك بقوة، بفعل وجود الكتاب الحالي، قد بدأت تتخيله، هذا الكتاب الذي كم تمنيت أن يكون لك، في الظروف الحالية، دليل التائهين الأزرق هذا الذي تبحث عنه، تركض هذه الشخصية الجنينية التي تقاتل في منظر أقل أهمية مازال قيد التكوين، وتسبح، وتندس، وتبقى صامتة حيال رجل الجمارك، جانوس[1]، الذي يعلو وجهه المزدوج إكليل غربان، كل سعفة من سعفاته السود محاطة بحاشية من الشُعَل، التي تتسع إلى حد أن جميع أجنحتها أضحت ملتهبة بعد هنيهة، ثم جميع أجسادها، ثم منقارها، وأرجلها شبيهة بمعدن سُخِّنَ حتى ابيضّ، عيونها فقط هي التي ظلت مثل لؤلؤ أسود بارد وسط هذا السعير، يَسمعُ صفيراً، يحاول جاهداً أن يرى، لكن ليس هناك إلا غيمة ثقيلة تنتشر، وفي البعيد، من خلال هذا القوس الكبير الذي مازال يُميَز، ثمة لون فضي كأنه انعكاس فجر، وسط هذا السديم الكثيف الذي بدأ ينقشع، يلمح الذيلَ والساقين، يظن أنه يلمح أذني ثعلب أو ذئب، أو ذئبة، يستانف حركته، يمر تحت الباب الضخم (ماجور) الذي لا يجد خلفه شارعاً فحسب بل شقاً بين الصخور، يسمع خطوات الذئبة الخفيفة في الظل كلما تقدم داخل هذا الشِعب المتعرج حيث يبدو له أن شيئاً ما يُضيىء في الأعالي، ينظر آخر مرة خلفه، يلمح في السديم الذي يتكثف فيصبح ندىً فضياً مُشكِلاً ستارةً لا يمكن اختراقها، فَقَدَتْ عينا رجل الجمارك، وشفتاه، المرسومتان بدقة شعلات رقيقة،أثر الذئبة، يُسرع، يتلمس الجدران تحت الضوء الذهبي الآتي من هذه الفتحة الدائرية العالية، من التراب وليس من الحجرمع مياه تنضح، جريان يمنعه من تمييز شخير الحيوان الكشاف، ثم كلمات، وخطوات، إذ وصل إلى مفترق

1- جانوس (Janus)، أحد الآلهة الرومانية القديمة له وجهان متقابلان، حارس البوابات، يحمي روما القديمة وقت الحرب، وتفتح أبواب معبده في وقت الحرب فحسب كي يتمكن الإله من الخروج لإنقاذ روما. ويقال أنه أنشأ مدينة في روما على هضبة سميت جانيكول.وتاتي تسمية الشهر الأول من السنة الميلادية (January) تيمناً به.

طرق، ثم مشاعل يلمحها، أناس بثياب بيض يحملون جثثاً وينشدون أناشيد دينية تحت فتحة جديدة في الأعالي يرمي خرطوماً من الضياء أقل ضياءً من السابق (لا بد أنه سدول الليل)، يسمع الشخير من جديد، تزداد قوته شيئاً فشيئاً، يشبه شخير حصان، صهيل حصان، يصعد رواقاً مستقيماً ويبدأ يركض، يلمح في نهايته الخضراء في ضياء الغسق، حيث تنطلق ذئبة بحجم الحصان، وعلى ظهرها خيال يحمل غرباناً مفتوحة الأجنحة على قبضة يديه، تشبه صقوراً، ترتفع وهي تستدير بين البيوت العالية فوق الأقواس، التي تُضاء نوافذها إضاءة بسيطة، لها بسطة جناحي نسر، يصل رجلان، أو ثلاثة رجال إلى ساحة صغيرة حيث طاولات تحت أشجار، ودوارق نبيذ، يقتربون منه (إنهم ايطاليون، يقول لنفسه، إيطاليون أعرفهم)، يفرك عينيه، إلى حد أنه يُسقط الأوراق الصغيرة، يُصغي إلى الكلمات التي يوجهونها له، لكن لا يفهم شيئاً؛ أما أنت، فتقلب في غاية السكون، الكتاب بين أصابعك.

ثمة شخص يطلبك: «اعذرني سيدي»، تدخل امرأة شابة، طويلة جداً، ذات شفتين بلونٍ أحمر قان، ترتدي معطفاً صوفياً حليبياً وحقيبة سفر صغيرة بنفسجية، تحاول أن تدعها؛ هل ستُخرج منها كتاباً هي أيضاً؟

تضع كتابكَ على الأريكة؛ تتساءل لِماذا لَم يرحل القطار بعد؛ تنهض لترى الساعة في رصيف المحطة.

ها أنت ذا تعود، وذهنك ما زال مليئاً بهذا الضجيج الذي ما لبث أن ازداد وأصبح أكثر كثافةً منذ أن تحرك هذا القطار في باريس، الجسد منمل وقرصات التعب هذه تزداد حدة كل ربع ساعة، متدخلة على نحو أكثر عنفاً في سير أفكارك، مشوشة نظرتك حينما تحاول جاهداً أن تركز على شيء أو وجه، متجهاً فجأة نحو واحدة من مناطق ذكرياتك هذه أو مشاريعك التي كنت تود أن تتجنبها، والتي تغلي، وتتخمر، وتضطرب في خضم إعادة تنظيم صورتك وحياتك هذه التي هي في طور الإنجاز، وتأخذ مجراها بعناد دون أن يكون لإرادتك دور، هذا التحول الغامض الذي، وأنت تدرك ذلك جيداً، لا تشعر إلا بجزء منه صغير جداً، والذي لا تزال مداخله ومخارجه مجهولة لديك في قسم كبير منها وينبغي أن تلقي عليها بعض الضوء، والدراسات الأكثر صعوبة، والصبر الأكثر دقة لا يمكن أن يكون بالتأكيد غالي الثمن لإبعاد الغموض قليلاً، لمنحك القليل من السيطرة والحرية على هذه الحتمية التي تسحقك حالياً في ثنايا الليل، هذا الجهد الكبير الذي يستمر في داخلك، مُحطماً شخصك شيئاً فشيئاً، تغير الإضاءة والأفق هذا، دوران الأحداث والمعاني هذا، الآتي من تعبك ومن الظروف، الآتي من هذا القرار الذي كنتَ تظن أنه بيدك، من وضعك داخل فضاء السلوكيات البشرية، مترجَماً إلى تعب يُشبه ضجيجه ولهاثه، ومضمخاً إياك بهذا العرق شبه الجاف الذي يلصق ملابسك الداخلية على جلدك، حافراً فيك هذا النوع من الدوار، واضطرابات جهازك الهضمي والتنفسي، وهذا الضيق، وهذا الوهن المفاجىء، وهذا الترنح الذي يجعلك تُمسك بإطار الباب، وثقل جفنيك هذا ورأسك الذي لا يجعلك تجلس بحصر المعنى بل تنهار على مكانك دون أن تتكلف عناء سحب الكتاب الذي تركته فيه والذي أخرجته بعناء من تحت فخذيك، متكئاً على الزاوية، ماداً ساقيك بين ساقي العجوز الإيطالي قبالتك، الوحيد ربما الذي يفتح عينيه، لكن لا يمكنك أن تعرف هذا من خلف نظارته الدائرية الشكل التي تلتمع وسط الظل الأزرق الخفيف، ثانياً خَدُّك على ياقتك تداعبه بيدك لتتلمس هذه اللحية التي نبتت فيه منذ هذا الصباح،

لكونك عَطِشاً، مشتهياً هذا النبيذ الذي يتلألأ في القوارير التي تمثل جسد فتاة على موائد حديدية مطلية بالأحمر في ثنايا الليل المحفور بأكاليل من المصابيح الكهربائية التي يحوم حولها سرب من البعوض، واجتمعت حولها مجموعة من الناس أخذت أعدادها تزداد أكثر فأكثر ليحدثوك، قد تفهم ما يقولونه إن توقف هذا الضجيج، أو خرج واحد من هذه المجموعة ليقول كلمات محددة، بصوت عالٍ: أنا عطشان، دون أن يسمع أحد، ويكرر بصوت أكثر ارتفاعاً بكثير، ويثير بهذا الإنفعال العنيف موجة من الصمت تمتد إلى أقصى حدود المكان تحت نوافذ البيوت العالية حيث تنظر إليك رؤوس، ويكرر هذا دون أن يفهمك أحد، بينما هم مذهولون، متسائلون، أكثر قلقاً وحذراً، يشيرون بأصابعهم إلى هذه القوارير إلى حد أن واحداً منهم، يملأ بكثير من التردد في حركاته، شاعراً أنه محط أنظار الجميع، يملأ كأساً متوسطة الطول، ويسكب الكثير من النبيذ على أصابعه، على أكمام قميصه ذي المربعات الزرق والبنفسجية، يرفعها بيده، ويجعلك تحترمه بتدويره لها وتدويرها مرة أخرى أمام المصباح، يقدمها لك، مُصاباً برعشة، مُقرباً الحافة من شفتيك بجهد كبير، ناجحاً أخيراً بشرب جرعة (يثلم الكأس حينئذ داخل فمك)، باصقاً هذه الشظايا الجارحة بعنف، هذا النبيذ الشنيع الذي يحرقِ حنجرتك وحلقومك على نحو فظيع إلى حد أنك تصرخ، وترمي القدح على إحدى الواجهات فيحدث كسراً فيها، وبقعة كبيرة جداً تأخذ بنخر الجص والطابوق، حاكاً بيدك خَدَّك الخشن هذا، الدسم والقذر، فاتحاً عينيك، متفحصاً أصابعك في الضوء الأزرق.

من أطفأ الضوء؟ من طلب أن تُطفَأ الأضواء بينما كُنتَ تذرع الممرات بحثاً عن عربة المطعم التي كان لا بد أن تعرف أنها فُصلت عن القطار في جَنَوة، بحثاً عن سجائر كانت قد ساعدتك على البقاء يقظاً، وعلى حمايتك من أحلام اليقظة غير المعقولة هذه التي لا تفعل إلا زيادة الاضطراب والغموض في حين أنك في أمس الحاجة إلى مواجهة المسألة بهدوء تام، بحيادية، كما ينظر إليها شخص آخر؛ إذ لو كُنتَ لا تحب سيسيل إلا لأنها تمثل لك وجه روما، وصوتها ودعوتها، وأنك لا تحبها دون روما وخارجها، ولا بسبب روما، لأنها كانت فيها، وإلى حد كبير، لأنها ما زالت هي التي تقدمك، هي باب روما،

كما يُقال بشأن العذراء مريم في الصلوات الكاثوليكية إنها باب السماء، وما يجب أن تعرفه قطعاً هو لماذا تسحرك روما إلى هذا الحد، وكذلك كيف أن هذا السحر لا يملك من الصلابة الموضوعية كي تتمكن سيسيل أن تكون، بوعي، وبإرادة، سفيرتها في باريس، كيف أن هنرييت، بكاثوليكيتها، على الرغم مما تمثله لها بالضرورة مدينة المدن، اعتبرت أن التعلق الذي تحمله لها تعبيراً عما تلومك عليه، وعليه، كما تَحَوَلَ حُبكَ لسيسيل أمام أنظارك، ويمثل أمامك من الآن فصاعداً بوجه آخر، بمعنى آخر، وكذلك، ما ينبغي عليك أن تتفحصه بهدوء وروية، هو الأساس والحجم الحقيقي للأسطورة التي تمثلها روما هذه لك، إنها المداخل والمخارج، وما يُحيط بهذا الوجه الذي يمثل تحته هذا الشيء، محاولاً أن تدوره تحت أنظارك داخل الفضاء التاريخي، من أجل أن تُحسن معرفتك بعلاقاته بسلوكك وقراراتك وأولئك الذين يحيطون بك، الذين تحدد عيونهم، وشكلهم، وكلماتهم، وصمتهم حركاتك ومشاعرك، آه لو استطعت فقط أن تقاوم نعاسك وهذه الكوابيس التي تحاصرك في هذا الضوء الأزرق الذي يُخضِعك إلى ضجرك وإلى وحوشه، من الذي طَلَبَ أن يُطفَأ الضوء؟ من الذي أراد هذا المصباح الخافت؟ كان الضوء قوياً وحارقاً، لكن الأشياء التي يضيئها كانت تمثل في الأقل واجهة صلبة يبدو لك أنك يمكن أن تتكىء عليها، وتتمسك بها، كنت تحاول أن تشكل بها سوراً لك إزاء هذا التسرب، هذا الصدع، هذه المسألة التي أخذت تكبر، مُذلةً إياك، هذا التساؤل المُعدي الذي أخذ يهز شيئاً فشيئاً أجزاء هذه الآلة الخارجية، هذه الدرع المعدنية التي لم تكن أنت نفسك تشك في رقتها، وهشاشتها حتى الآن، بينما هذا الأزرق الذي يبقى كأنه معلقاً في الهواء، الذي يُعطي انطباعاً أنه يجب اجتيازه كي ترى، هذا الأزرق الذي يساعده هذا الارتجاف المستمر، هذا الضجيج، هذا التنفس الذي يُظَنّ، الذي يُعيد للأشياء تقلبها الأصلي، غَير مرئية على نحو ساطع ولكن مُعادٌ تكوينها من خلال إشارات، تبدو وتنظر إليك بقدر ما تنظر أنت اليها، رادةً إياك إلى هذا الرعب الهادىء، إلى هذه المشاعر البدائية حيث تفرض وجودها بقوة وعلو، فوق خرائب هذا الكم من الأكاذيب، والشغف بالوجود وبالحقيقة.

تتأمل هذا المصباح الأزرق المُلِح، كأنه لؤلؤة كبيرة، ليس مُضيئاً إن صح القول،

لكنه، بلونه الكثيف الهامس مصدر صدى وديع لجميع أيدي النائمين وجِباههم، وفي قبة مصباح السقف الذي يحميه،النجمان الشفافَان اللذان تَظُنُّ أن في داخلهما أسلاك الإضاءة الباردة التي تلألأت فجأة قبل قليل، مثل أسلاك هذه المصابيح في الممر من الجانب الآخر الذي يظهر منه، من وقت لآخر ولكن في تناقص شيئاً فشيئاً، بعض شوارع قرية مازالت يقظة قليلاً على ضفاف الماء.

الإثنين مساءً، حينما ستخرج سيسيل من قصر فارنيز، ستبحث عنك بعينيها في الليل، وستجدك بالقرب من إحدى النافورات بهيئة حوض سباحة في حمام تنتظرها بخشية، إذ سينبغي لك، في ذلك الوقت، أثناء العشاء في مطعم «تري سكاليني»، أن تعترف لها وأن توضح لها التوضيح المؤلم، بما أنه، وأنت تُدركُ ذلك جيداً، سيكون من المُحال أن تبقى صامتاً، وأن تتركها تأمل أن قرارك سيأتي، وأن تتخيل أنك ما زلت تبحث لها عن وظيفة في باريس، وأنك على وشك أن تجد لها شيئاً، في حين أنك ستتوقف عن البحث، عندما تكون قد وجدت لها شيئاً.

سيكون من المُحال أن لا تقول لها في تلك اللحظة، التي ستتهيأ لتركها، بعد هذه الإقامة المكرسة لها فحسب، بعد الأيام القلائل هذه التي ستكون أثناءها في غاية السعادة بفعل المفاجأة التي ستكون قد أخبرتها بها، التي ستخبرها بها بعد بضع ساعات، التي ستظن خلالها أنها فازت باللعبة، أن لا تخبرها على نحو بدائي أن في نيتك أن تعلن لها هذه المفاجاة الأخرى: أنك وجدت لها أخيراً هذه الوظيفة، وأنها ستذهب إلى باريس، وأن بإمكانها أن تقدم استقالتها للسفارة، وأن تبدأ تحضيراتها، وأن تبدأ بتوديع روما، وأن تُعدَ ملخصاً لنفسها بالمعرفة التي كنتما نجحتما في تجميعها في روما أنتما الاثنان، وأنك قمت بخطوات لإيجاد سكن لكما، وأن لكما امكانات منظورة عديدة، وأن كل شيء جاهز، في متناول اليد، وأنك تخليت عن ذلك. من المحال ألا تحاول أن تشرح لها الأسباب التي أدت إلى هذا التحول، كي تتخلى عن أي أمل بهذا الخصوص، من المُحال ألا تبقى صامتاً، إذ إن هذا الصمت قد يشكل، بالنظر للظروف، وبالنظر إلى هذا الوعد والبوح الرسمي الذي لن يفوتها أن تقرأه أثناء هذه الرحلة الاستثنائية التي قمت بها من

أجلها هي فحسب، كذبة كبيرة جداً قد تسمم كل هذه العلاقات التي تود معها أن تحتفظ بها، علاقاتك بروما نفسها، وستجعل حتى من هواء هذه العلاقة مع نفسك، الذي تريد أن تنقيه، غامضاً، نتناً.

لا بُد إذن من هذا المساء الأخير، بما أنك ترغب في الانتظار حتى المساء الأخير، كي تتمكنا في هذه الأيام المعدودات من التمتع في الأقل من مظهر هذه السعادة الذي ينفلت منكما، من التمتع مع ذلك بجزء من هذه الحياة التي كُنتَ تتخيلها قريبة جداً تدخل شيئاً فشيئاً في الوهم والمستحيل، أن تمتلك الشجاعة في مطعم «تري سكاليني»، وأنت تتأمل نافورة «دي فلوف»، بينما هي منفعلة جداً من فكرة رحيلك الوشيك، لكنها سعيدة جداً لأنك ما زلت لها بكاملك في هذه الأمسية، ستفكر هي، بأنه فأل لإمتلاكك مدة أطول بكثير في مكان آخر، أن توجه لها هذه الضربة، وخيبة الأمل هذه، أن تعلن لها، أن تحاول أن تبين لها أن كل شيء كان جاهزاً ثم ضاع، لكنك لن تكون قادراً على هذا البرهان، وعلى هذا الشرح؛ حتى وإن كانت لديك الكلمات جاهزة، لكن وجهها، ودهشتها، وعدم إدراكها سيجعلك غير قادر.

كل الظروف، وكل أفعالك في الأيام السابقة ستبدو لها أنها تكذبك؛ لن يكون بإمكانها أن تصدقك؛ سترى في كل هذا سمواً روحياً، تضحية من أجل هنرييت التي ستحسدها، وتكرهها، انتفاضة رائعة في اللحظة الأخيرة لشغف قديم يحتضر، متخيلةً أنها يكفيها أن تنتظر قليلاً بعد- بما أنك قلت لها تواً، أن كل شيء أصبح أخيراً جاهزاً- كي يقتلع قرارك هذه العلاقات الأخيرة التي كانت تمنعها من فرض نفسها.

هذا اليقين، هذه الثقة بنفسك التي لم تكن تشعر بها بعد، سيمنحهما لها هذا الاعتراف، بحيث إن صمتك لن يكون هو فحسب، بل حتى هذا التوضيح سيكون كذبة، لن تفهم، وسيمنعها من ذلك ما ستكون قد فعلته.

سيتلفتون، متأملين هذه اللطخة، وبقايا الجص والطابوق التي تمطر عليهم، بعضهم ستكون قد أصابته بعض شظايا الزجاج، سيبتعدون عنك بدهشة وكره، فتهيج همسات نقاشهم وتصبح أكثر خشونة، وفي هذه الأثناء سيجتاز رجال الشرطة تحلقهم ويقبضون

عليك، دون عنف، بل بالأحرى بشفقة، متيقنين أنك لا تكاد تستطيع أن تمشي، جاراً قدميك، وجلدك يتقشر، من خلال ثقوب نعلك المهترىء، الأرض خشنة وحارقة، ممسكين بك من كتفيك، من وقت لآخر، رأسك الذي يرفعونه يعود لينحني من جديد، محاولين حتى أن يواسوك بكلمات طيبة غير مفهومة، قائدين إياك في شوارع «تراستفيري»، وأولئك الذين سيجلسون بجانب طاولاتهم في مطاعم البيتزا، أمام الفرن المحمر في نهاية الصالة المحدبة شبه المعتمة، يرمقونك بنظرات حذرة وهم يصبون كأساً من «فراسكاتي»، وحرارة ليلة رومانية تشع من الأحجار والبلاط.

ستلمح، من خلال أبواب معبد، بين الأعمدة، صنماً لامعاً مع شعلة تدخن وغيوماً من البخور ستصيبك منها نفحة، فيما ستلمحك من نوافذ الساحة كل أسرة بونتي دون أن تتعرف عليك.

ستدخل إلى ساحة مليئة بالبنادق، والصلبان والسيوف، وستصعد سلماً حلزونياً ضيقاً يمر بطبقات عدة حتى نهاية قصر العدالة الضخم على امتداد نهر التبر عبر الفتحات التي ترى من خلالها قبة سان بيير مضاءة، صرح مُضاء في «فكتور ايمانويل»، وساحة «التيرم» مع المحطة، سامعاً جلبة صاعدة من كوليزيه[1] (Colisée) الحديث العهد، حتى باب أسود.

ما ستفعله في ذلك المساء سيحول دون أن تفهم ما ستقوله لها، إذ لن تكون بك حاجة للعودة إلى «البيركو كيرينال» لتأخذ حقيبة سفرك، كي تسرع بعد وجبة الطعام؛ لتعود وتُمضي بقية الأمسية بالقرب منها في منزلها، 56 شارع مونت ديلا فارينا، الذي سيكون بيتك أنت خلال ثلاثة أيام؛ أدنى خطوة من خطواتك في هذا الاتجاه، خطواتك التي تجرها بسبب عدم ارتياحك، ورغبتك الملحة في تبديد أوهامها، كل الجهود التي ستكون قد بذلتها سدىً أثناء العشاء من أجل هذه الغاية، التي ستبذلها أثناء هذه الرحلة، بسبب التعب المُسبق لرحلة العودة هذه، أدنى مداعبة من مداعباتك، وكل انكسارات صوتك المُغرَم، ستشعر بتناقضها مع خطابك.

1– مسرح روماني قديم يتكون من 80 مدرجاً، ويستوعب 87000 مشاهد.

هي التي ستجرك، وتدعمك، و ستكتشف، في ليل روما، خَجِلاً من ذلك ويائساً، ابتسامة انتصار وهمي، للأسف، ستحاول هي جاهدةً أن تخفيها عنك، ظناً منها أنها تلعب لعبتك، فتساعدك بهذا.

أنتما الإثنان على فراشها، أسفل الصور، سيداعب أحدكما الآخر وأنتما تتحدثان، ولكن، كي تُصدق أنك بعد أن وجدت لها وظيفةً، وترتيباً، وإنْ كان مؤقتاً، كي تستقرا أنتما الإثنان في باريس، ستتخلى أنت عن كل شيء، مُرغماً على ذلك لهشاشة حُبكما الحتمية، وارتباطه بالمكان، ينبغي بالتأكيد أن تبدأ بالأمر مبكراً.

ستتركك إذن تتكلم، لكن دون أن تفهم، قائلةً لنفسها: لم أكن أظن أبداً أنه وفي، وصادق إلى هذا الحد؛ كم أنا مُمتنة له لبوحه لي بكل هذا! أنا أعرفه أفضل مما يعرف هو نفسه؛ أنا الآن أثق به أكثر مما يثق هو بنفسه؛ ما علي الآن إلا الانتظار بضعة أسابيع؛ لقد نجحت في انتشاله من هذا الخجل الذي كان يغرقه في الرمل؛ أنا قوته وشبابه.

سيلزمها وقت كي تزن كلمات كهذه؛ ينبغي أن تكون قد قلت لها ذلك في العشية أو قبل العشية، أي يوم غد، كي تتمكن من إعادة التفكير بذلك أثناء هذه اللحظات التي ستراك فيها نائماً، حيث ستعمل، الإثنين، في قصر فارنيز، منفصلة عنك، كي تتمكن من تكرارها عليك عدة مرات لتتأكد أن هذا هو ما قلته وأن ليس من تأويل ثان ممكن.

ينبغي عليك إذن أن تُضحي بهذين اليومين أو الثلاثة أيام التي كُنتَ مع ذلك تأمل أن تتمتع بها، تتمتع بهذه الحرية التي رَحَلتَ في البحث عنها.

للأسف، ستكون هذه الإقامة إذن برمتها إقامة حذر، وجهد من جانبها لتقتلع ما ستظن أنه ليس إلا علاقة أخيرة، سخرية رقيقة سيكون من الصعب عليك، بل من المستحيل مقاومتها؟

ولكن حتى وإن قَصَصْتَ عليها من الغد، الإثنين مساءً، كل القضية (وكيف ستقصها عليها؟)، على رصيف المحطة، قبالة عربة الدرجة الثالثة حيث سيكون مكتوباً عليها «بيزا، جنوة، تورينو، مودونا، باريجي»، فلن تفهم، ستبقى تظن أنك كنت تريد أن ترغمها، وأنك غير صادق في هذا الهجران، متشبثةً بما سيبدو لها في غاية الإيجابية: هذه الرحلة

خارج نطاق شركة سكابيلي، هذا الوضع الذي حدثتها عنه بالتفصيل، لأنها ستطلب إليك كل التفاصيل الدقيقة، خائفةً أولاً من كذبة أخرى في الاتجاه الآخر، وبعد أن تكون قد حجزت بكتاب مقعداً، كنت تأمله شبيهاً بهذا الذي انت جالس عليه الآن، ستنزل للقائها وتقبيلها، وستقول لك دون شك هذه المرة:

«متى ستعود إذن؟»

كي تكشف عنك أخيراً هذا القناع الجديد، مُستغلةً انفعالك، وجلبة المحطة، هذا القناع الجديد الذي ستكون قد لبسته، هكذا ستظن هي، لتختبرها، خاصة وأنت تمثل على نفسك كي تخفف قليلاً من توترك الداخلي.

ومن أجل ان تتيقن أخيراً من أنك في المرة القادمة ستأتي ومعك هذا المشروع الجميل وقد صغتهُ على نحو أفضل، وتبنيته على نحو أكيد، نادمةً أنها كانت لا بد أن تناضل على نحو كبير في هذه الأيام الأخيرة، التي لم تكن جزءاً من هذه الحياة السعيدة التي ستشعر بها قريباً جداً، و هل ستتمكن حينئذ حقاً، هل ستمتلك الكلمات، وحتى إن كُنتَ تمتلكها هل ستكون فعلاً لديك الشجاعة، قبل لحظات من الرحيل، حيال أفق رحيل صعب جداً، طويل جداً، ووحداني جداً، هل ستتمكن حقاً من تبديد أوهامها؟

لا، هذا ليس في حدود قدرتك، والوسيلة الوحيدة لتجعلها لا تولي أهمية خادعة وحاسمة في اتجاه يختلف تماماً عن هذا الذي أخذ ينكشف الآن شيئاً فشيئاً، بشأن إقامتك ومجمل هذه الإجراءات والمشاريع التي أثارت حماستها، والتي ستكون مجبراً على الحديث معها عن تفاصيلها، هو ألا تعلم به إلا فيما بعد، بعد وقت طويل،ربما بوساطة شخص ثالث، أو من خلال تلميحات، بعد أن يكون هذا الأمل الذي في داخلك، لن يكون إلا مخذولاً في شكله الحالي، سيكون قد ذبل أو تحول.

ينبغي إذن أن تتخلى تماماً عن لقائها هذه المرة؛ لن تنتظرك لأنها لا تعلم بوصولك.

ينبغي أن لا تَعلمْ أنكَ قد جئت، ووجدت هذه الوظيفة، وهذا الترتيب، فبالنسبة إليها كما لو أنك لم تجده، ولم تبحث عنه، من أجلها، لكن ليس من أجلك قط، فأنت تعلم من الآن فصاعداً أنك لن تجده.

قد تكون هذه الوسيلة الوحيدة، فأنت أخيراً ترى هذا النور يظهر في ذهنك كما يظهر نور الخروج من نفق، إن عدم رؤية سيسيل، وعدم البوح بشيء، وعدم اللقاء بها إلا أثناء رحلتك القادمة، على حساب شركة سكابيلي، وبأوامرها، كما رتب لذلك، محتفظاً بهذا السر في نفسك مثل دم متخثر على لسانك، مستمراً في معاشرتها بالتأكيد، مستمراً في حبها بالتأكيد، ولكن بتمزق كبير في داخلك سيتوسع بألم في كل مرة دون التمكن من لأم الجروح بسبب هذه الرحلة نفسها المستمرة حاليا، إلى اليوم الذي ستكون قد ابتعَدَتْ عَنك على نحو كاف، حيث ستكون الأوهام التي تنسجها بشأنك قد خفت بما يكفي كي تتمكن من قص كل شيء عليها دون أن يكون أي شيء كذبة بعد. الوسيلة الوحيدة لتجنب رؤيتها، من نافذة المقصورة أو من الممر الذي ستكون قد أنزَلتَ زُجاج نافذته، وهي تجري، وتلوح بيديها إلى أن تتعب من ذلك، أن لا تَلمح في آخر مرة على وجهها المصغر بفعل المسافة من بعيد، والذي ستحزر أنه لاهث، محمر من الجهد والانفعال، وربما من الدموع، هذه الابتسامة الجديدة، وهذه الثقة العنيدة، المعزة، هذا الإعتراف الإجباري، الذي لن يعود متاحاً لك بعد أن تحطمه قبل الكوارث البطيئة، الحمقاء، التي يُرثى لها، الصداقة بالتأكيد التي قد تجعلك أسير هذه المغامرة التي من أجلها رَحَلتَ إلى محطة ليون هذا الصباح، والتي تعرف أنها دون حل.

ينبغي أن تصل وحدك إلى «ستازيوني ترميني»، ولا سيما أن الذهن مملوء بها إلى حد أنك كنت أمضيت هذه الأيام متفادياً إياها، وأن ترى رصيفاً ليلياً مكتظاً بالبشر يبتعد حيث لن تتعرف على أحد فيه.

وستمر أمام عينيك محطات الضواحي، روما تسكولانا، روما اوستينسي، روما تراستفيري. حينئذ سيسأل أحد ما أن يُطفَأ المصباح.

تفتح عينيك مرة أخرى وأنت ترفع رأسك، وتلوي رقبتك، محاولاً أن تُعيد فقراتك إلى محلها، فتُسمرهما فوق الفم الفاغر للإيطالي العجوز، فوق شاربه المتصلب ومنخريه، فوق نظارته التي تلمح زجاجها المحدب بوساطة الحز الدقيق تحت المستطيل الزجاجي الذي

تعرف أنه توجد تحته صورة جبال، غيرِ مرئية الآن على الإطلاق بفعل انعكاسات الممر الصفراء ؛ في الجانب الآخر من النافذة التي لم تُسدل ستارتها، يظهر القمر بدراً متأرجحاً في المرآة.

في الجانب الآخر من النافذة كان هناك الربع الأول من القمر فوق سطوح وخزانات الغاز في الضواحي.

وأنت في ممر الدرجة الأولى، جيبك مملوء بسجائر الكولواز، كان الناس يمرون خلف ظهرك ليذهبوا إلى وجبة الطعام الأولى.

لم يكن هناك إلا راكب واحد في المقصورة، بدين، في سنك، كان يدخن سجائر جافة ومائلة إلى السواد، ومعه حقيبتا سفر حمراوان وضعتا أعلى رأسه.

في الجانب الآخر من النافذة، في الغابة، كانت الأشجار قد فقدت معظم أوراقها، حتى إن المرء كان يمكن أن يرى من خلال أغصانها الربع الأول من القمر يتأرجح كأنه قارب عمودي.

يدك اليسرى مستقرة على المسند العريض، ورقبتك مستندة على غطاء المقاعد الأبيض المخرَم المنعش، بينما كان يعود في الممر اولئك الذين انتهوا من تناول وجباتهم، كنت تضع يدك على زجاج النافذة لتحاول أن تظن في عتمة الليل محطة «لوم آليزيا» بمستودعها للقاطرات القديمة.

لم تكن، على الرف أعلى رأسك، حقيبة السفر الخضراء هذه فحسب، ولكن أيضاً حقيبة اليد الجلدية الفاتحة اللون مملوءة بالملفات والوثائق؛ وكنت تمسك الملف البرتقالي اللون الخاص بفرع رانس بين يديك.

كانت مياه نهر السون تلتمع بهدوء من الجانب الآخر من النافذة. حينئذ طلب إليك السيد البدين أن تُطفِىء النور، ثم أسدل الستارة، فخرجت أنت إلى الممر لتدخن سيجارة تلو الأخرى، ناظراً بصورة خاصة إلى أرصفة ماكون شبه الخالية وعقرب الثواني يتقافز فوق مينا ساعتك.

أنيرت الأضواء تواً، إنها مدينة مودان؛ كان رجل الجمارك يطرق بختمه برقة على زجاج الباب.

انفتح الباب الأسود الصغير على غرفة جد مظلمة لم نكن نلمح سقفها المحدب فوق الرفوف المغطاة بعلب وكتب.

ثمة رجل غليظ اليدين، خلف منضدة طويلة، يكلمك لكنك لا تفهم ما يقوله لك؛ تنظر حولك كل هؤلاء الحرس يومئون برؤوسهم، وثمة شفقة في عيونهم، رجالاً ونساءً، وهؤلاء الأخيرات يرتدين أغطية رأس سود وبيض.

ترفع حينئذ يديك، مُلملماً شجاعتك وسادلاً جفنيك، لتطالب بالانتباه إليك، وحينما تشعر أن كل شخص يحبس أنفاسه ليسمعك على نحو أفضل، مُجبِراً إياك أن تتحدث الإيطالية على أفضل نحو، تبدأ بالتوضيح:

«كل هذا خارج عن إرادتي، أنا مستعد أن أقر بالذنب، أنا لست إلا بائع آلات كاتبة، أسهم في الازدهار التجاري لبلدكم، أنا واحد من خادميه، ولدي سمعة مشرفة في هذه المدينة، ما عليكم إلا أن تستفسروا لدى سكابيلي»، لكنك تعرف جيداً أن ليس من الضروري الاستمرار، فكيف لهم أن يفهموك بما أن الكلمات التي كُنتَ تظن أنك تكونها على نحو صحيح لم تكن تخرج من حنجرتك ولم يخرج من فمك إلا صفير أخذ يشتد حدةً، وتوغلاً شيئاً فشيئاً، إلى حد أن الجميع نهض ببطء على الرغم من الرغبة التي كانت تتملكهم في الإصغاء إلى دفاعك، وأخذ يقترب وأيديه متشنجة لإيقاف هذه الصوت المُعَذب، عديم الجدوى.

أطفأ رجل الجمارك الضوء تواً وبينما كان القطار يستأنف سيره، داخلاً في النفق، مَددتَ قدميك على المقعد أمامك، ولم تستيقظ إلا في محطة تورينو، الغاصة بالناس على الرغم من أن النهار لم يطلع بعد، حيث دخل كاهنان يرتديان قبعتين يكسوهما الوبر، أضاءا النور، وبدءا بالكلام، كانت بعض كلماتهما تهاجمك من وقت لآخر، مثيرة فضولك ثانية واحدة، قصص مزعجة لمدرسة في جنوة.

كان زجاج النافذة الخشن، وأنت تحلق لحيتك، يصبح أقل قتامة؛ طلع النهار بينما كنتَ تتناول قهوتك بالحليب مع هذه المعجنات بالمربى الطازجة (التي يسمونها بالكرواسون في ايطاليا) في عربة المطعم؛ كانت السماء صافية تماماً إلا من ثلاث أو أربع غيوم مرسومة

على نحو جيد، مُحولةً ألوانها وهي تسير فوق القرى حيث كانت تنطفيء مصابيح شوارعها، وحيث تسير عربات بائعي الحليب بتثاقل، وحيث كان يخرج من الظل أول راكبي الدراجات. فجأة،من منفذ فجائي في الأفق، رأيتَ الشمس تبزغ، مادة اشعتها الأفقية على الطاولة التي كنتَ جالساً بجانبها، مبرزة على نحو رائع كل الأشياء، حتى فتات الخبز، محددة إياها بظلال طويلة.

في مقصورتك، كانت طيات الثوبين الأسودين للكاهنين قد امتلأت بالتراب المذهب وتوقف حديث الرؤوس على نحو مؤقت. كانت الأنفاق تقطع هذا البهاء فجأة. و في جنوة، بعد الخروج من الصخرة، نظرتَ إلى القوارب في الميناء بفُلكها البيضاء، بهذا البريق في زجاج كوّاتها متنافسة مع بريق الأمواج الهادئة، والفنار العالي الذي كان ظله يُطفيء النوارس للحظة.

نزل الثلاثة في ستازيوني برانسيبي (المحطة الرئيسة)، الكاهنان، مَشمَلهما على ذراعيهما، يُمايلان بنشاط حقائب سفر ضخمة الحجم، لا بد أنها كانت فارغة، وهما يتحادثان على الرصيف، والرجل البدين الذي مازال النعاس في عَينيه، غير حالق، ينحني على نافذة الممر، إلى جانبك، وينادي: «فاشينو»[1]، وأنت واقف تستنشق الهواء النقي، وتدخن سيجارتك الأولى في النهار، وتسخر من ارتباكه، وتقاسيم وجهه المُتعَبة، وفمه المُر، وتساعده في إنزال حقائبه وتمريرها إلى الحمال، قائلاً مع نفسك: لا بد أنه أكبر مني سناً بقليل، هذا ما سيحل بي إن لم انتبه لحالي.

لم تعد ترى صورة القمر في المرآة، بل أعلى شعر آنييس موشحاً بلون الزئبق، مُشوهاً، شبيهاً ببصمات بعض الحيوانات الليلية، في الزجاج الذي يُغلف هذه الصورة، غير المرئية الآن، التي تعرف أنها تمثل قوارب شراعية على امتداد الرصيف. تمر محطة فياريكيو.

أنت نمت إذن فترة أطول مما كان يبدو لك.

آه، إن كُنتَ لا تتمكن من منعه، هذا النعاس مع هذه الأحلام السيئة والعنيدة، ينبغي إذن في الأقل أن يدوم، وألا يتقطع طوال الوقت هكذا، تاركاً في رأسك وفي أحشائك دخانه المُهلك، ومذاقه السام!

1- وتعني «فاشي» بالإيطالية.

يَنبغي لك في الأقل أن تتجنب تكرار هذه اليقظات، بما أن الكابوس لن يتركك، وأن تترك له الفضاء مفتوحاً مرة واحدة كي ينتهي الأمر، كي تتمكن من التخلص منه، أن تغتسل منه، كما تغتسل من هذه القذارة الدبقة التي تلتصق على وجهك، وكما تتخلص من هذا الشَعر الذي ينمو على ذقنك منذ الرحيل، أن تجلس لتنام حقاً حتى الفجر كالآخرين، حتى هذه المرأة الشابة التي دَخلَتْ في جنوة التي تنحني باتجاهك إلى حد أنك تتساءل إن كان رأسها سيلمس كتفك، ويخورشيئاً فشيئاً، ثم ينتصب مصحوباً بحسرةٍ دون أن تفتح عينيها، وتبدأ من جديد بإسقاط رأسها، وكتفها، ويدها مستقرة مفتوحة على المقعد، مستندة إلى ذراعها المشدودة (ولكن في كل اهتزازة أكثر عنفاً، ينطوي الكوع، ثم يستقيم مرة أخرى)، وفمها فاغر، وأسنانها تلتمع قليلاً بين شفتيها البنفسجيتين.

ثم ها هي أصابعها تنزلق بهدوء حتى الحافة، وتستمر وهي تحاذيه؛ وينطوي الذراع بكامله، وبكامله يغوص الجسد باتجاهك؛ وينفصل الكتفان عن المسند؛ وظاهر اليد اليسرى يحك الفستان على الفخذين، ثم ينزل حتى الأرضية الحديدية المُسخنة التي تبدأ الأظافر بالانسحاب عليها. يشكل جِلْدُ قَفا رقبتها، بين ياقتها وشعرها، هلالاً أفتح لوناً بقليل.

إن كانت «فياريكو» قبل قليل، فستصل قريباً إلى بيزا (لا بد أنها غابة أشجار الصنوبر الآن، وأنت تبتعد عن البحر)؛ لم تعد تعرف أي ساعة بالضبط؛ إنه مكتوب في الدليل الموجود في حقيبة السفر الموضوعة فوقك، لكن ليست لديك الرغبة في النهوض لتبحث عنه فيها. تنظر إلى ساعتك: إنها الواحدة وخمس عشرة دقيقة تقريباً؛ لم تعد تدري كم تتقدم الساعة في الوقت؛ لم تعد تدري متى ضَبطتَ الوقت فيها.

ليست هناك جدوى من العودة إلى النوم الآن إذ ستكون هناك الاهتزازات، والأضواء، وربما سيصعد أحد ما.

أليس هذا نهر «الآرنو» الذي يلمع قليلاً؟

جدران تقترب، ومصابيح مُعلقة بأسلاك فوق شوارع خالية لا تتمكن من إضاءتها، إشارات ضوئية خضر وحمر، قطار آخر، محمل ببضائع، وبسيارات فوق عرباته؛ تنزلق

المحطة ببطء؛ على الرصيف الخالي، رجل يدفع عربة مليئة بحقائب بريدية، وآخر يخرج فجأة من مكتب، تاركاً هاتفه على الطاولة؛ التوقف أكثر مباغتة مما كنت تتوقع.

تنهض المرأة الجالسة إلى جنبك مستندة على كوعها، تستقيم، وتجلس مرة أخرى، تمرر أصابعها على حاجبيها، تتكيء على ظهر المقعد، تغمض عينيها مرة أخرى تقطب وجهها ثم تفرده شيئاً فشيئاً.

تنتفض حينئذ آنييس بدورها، يسحب بيير ذراعه، يطويها، يمدها ثانية عدة مرات، ينحني نحو النافذة، يمد رقبته لينظر، يقول: «نحن في بيزا»، ينظر إلى ساعته، «لم يبق لنا سوى أربع ساعات ونكون في روما»، يأخذ يدي آنييس، يميل رأسه على كتفها، يحوطها ويداعبها كما لو كانا وحيدين.

ينفتح باب خلفك، وأنت تلتفت تلمح حارساً يدخل، مُخَبئاً وجهه بساعده، متبوعاً بشخص لا تتمكن من التعرف على قسمات وجهه، يرتدي ملابس شبيهة بملابسك، لكنها جديدة، يَحمل في يده حقيبة سفر شبيهة بحقيبة سفرك، يبدو أنه أكبر منك سناً بقليل.

يقول المفوض بعض الكلمات التي لا تفهمها، وحالما ينتهي، يرتفع صوت القادم الجديد، واضح على نحو رائع:

«مَن أنت؟ أين تَذهب؟ عماذا تبحث؟ مَن تحب؟ ماذا تريد؟ ماذا تنتظر؟ بماذا تشعر؟ هل تراني؟ هل تسمعني؟»

لم يعد هناك إلا ضوء أزرق كثيف مع الحفرة البنفسجية للنافذة المستديرة. جميع الحراس على امتداد الجدران يغمضون عيونهم، ورؤوسهم محنية إلى الوراء.

مع اهتزازة الرحيل، يشرع الجميع ببعض الحركات.

يسعل العجوز الإيطالي الجالس قبالتك، الذي لم يكن قد استيقظ عند توقف القطار، يأخذ منديله، يرفع نظارته، يمسح زجاجها، يفرك عينيه وأنفه بأصابعه.

تُحرك المرأة الشابة الجالسة بجانبك شفتيها كما لو أنها كانت تردد لنفسها بإصرار شيئاً ما، كما لو أنها كانت تريد بأي ثمن أن تُقنع نفسها، تنفض رأسها، ثم تغير هذه الانتفاضة

محورها شيئاً فشيئاً؛ تُداعب الآن مسند المقعد بصدغها، يبدأ كتفها ثانية بالانخفاض بهدوء، ثم ينهار، تنطوي ذراعها، تنزلق ساقاها اللتان كانتا مستقيمتين ومتوازيتين الواحدة على امتداد الأخرى ويصنع الفستان حفرة تهتز بين الركبتين.

تتأملها العجوز الإيطالية ويداها متصالبتان، ثم تدير وجهها نحو النافذة وهي تفك أصابعها، وترفعها كما في الصلاة، ترفع كتفيها قليلاً ثم تغلق يديها، تخفضهما على تنورتها السوداء، توجه نظراتها إلى المرأة الشابة المتكورة التي يبدو ظهرها يتنفس بقوة، والتي يبدو لك أنها تزحف نحوك، فتحدوك رغبة في تقبيل شعرها، وترغب أنت أيضاً أن ترمي بنفسك نحوها.

يسطع القمر على وجه آنييس، عيناها مفتوحتان، تلتمع قرنيتاها كلمعان البورسلين، وعلى بؤبؤها الأسود ثمة نقطة سهم نَدي تهتز.

أنت ترى وجه بيير من الجانب كأنه يهمس بكثير من الحب شيئاً لمحبوبته، لكنه نائم؛ إنه الوحيد الذي ينام الآن في هذه المقصورة؛ يجب أن تنام أنت، أن تستقر جيداً كي تنام.

أنت بعيد الآن عن «بيزا»؛ تقترب من البحر؛ ستمر في «ليفورن»؛ لم تعد تعرف إن كان القطار يتوقف فيها.

تُبعد آنييس يد بيير بهدوء؛ تسقط يده؛ معصماه مستقران على حافة المقعد، كل أصابع يديه معكوفة قليلاً وراحتا يديه متجهتان نحو الأعلى.

تُمسك يد آنييس بحامل الشبكة أعلى رأسك، وبيدها الأخرى ترفع تنورتها،وتخرج.

تُريدُ أنت أن تنام؛ تُسدل الستارة أمام النافذة إلى جنبك، فيحذو الإيطالي الجالس أمامك حذوك، يغلق الباب أيضاً، ستارة الباب.

لم يعد هناك إلا ضوء السقف الأزرق وهذه البقعة من ضوء القمر على مكان آنييس الفارغ. فيما وراء النافذة، تُضيء مصابيح سيارة فجأة أشجار صنوبر في عتمة الليل.

وحيداً، ورسائل الإمبراطور جوليان بين يديك، بعد أن تَرَكْتَ ضواحي جنوة، والشمس آخذةٌ بالارتفاع فوق السطوح والجبال، يفتح لونها، يصبح حاراً وباهراً،

غامرةً وجهك، وبعد أن غيرت مكانكَ، قرب النافذة، كانت أجراس الكنيسة ما زالت تُلقي بظلالها الوافرة والشوارع مزدحمة، ثمة نساء يغسلن الملابس في السيول، ومن الجانب الآخر، بين رأس الجبل والبيوت، يظهر فجأة مثلث بحري مع شراع ساطع، بعض الزهور مازالت في الحدائق، (وفي لاسبيزيا، تمتد السفن الرمادية على الماء الأخضر)، الأنفاق تنظم إيقاع الضوء، والمصباح مُطفأ، حتى المصباح الصغير، رأيتَ مرور محطة «فياريجيو»، بعد أن تَرَكْتَ بلد الليكور[1] ودخلت إلى الأراضي الأترورية[2]، (كانت أشجار الصنوبر تتمايل مع الريح، والقطار يبتعد عن البحر)، ثم لمحت فوق سطوح القرميد الروماني، أمام أفق هضاب منخفضة، تلتمع كالأشرعة أو نوارس في ميناء مياه عميقة مع بزوغ النهار، القبة، وبيت العِماد،وبُرج الأجراس المائل الذي ترغب في زيارته في كل مرة تصل فيها إلى هذه المحطة في هذه الساعة، في هذا الضوء، الذي نحن محظوظون أن نراه فيه؛ ولكن أبداً لم تنزل إلى بيزا، أبداً لم يكن لديك الوقت.

كنت تذهب دائماً إلى روما، دون أن تتوقف عند المحطات الواقعة في الوسط، إذ كانت الأعمال، مثل سيسيل، في انتظارك.

لكنها اليوم تجهل أنك تقترب منها في الليل؛ واليوم يجهل سكابيلي أنك تقترب من روما.

في شوارع ليفورن المستقيمة، والمُشمِسة التي ستمر في وسطها دون أن تراها، ثمة مراسيم دفن كانت تمور. وعلى الرصيف ثمة بائع صحف يصيح (لن يكون هناك إلا عمال السكك الحديدية)، ثمة دخان كثيف كان يصعد من قاطرة صغيرة قديمة. كان الهواء عليلاً جداً، ومنعشا في الخارج برائحة الملح، والفتيل والفحم التي يحملها؛ ثمة شعاع يسقط على ذقنك المحلوق جيداً.

1- (Ligure) اسم شعب لا تُعرف أصوله استقر على الساحل المتوسطي (جنوب شرق بلاد الغول؛ الشمال الغربي لايطاليا)، في حدود القرن السادس قبل الميلاد. والليكور، لغة قديمة من مجموعة الإيطالية – السلتية مؤكدة بأسماء علم.

2- الأراضي الأترورية التي كانت تقع قديماً غربي إيطاليا.

ثم شَعرتَ أن رأسكَ كان ينقلب إلى الوراء وسط الحجرة الثابتة.

ثمة نفحات هواء مُحملة بالتراب، والعفونة والرمل كانت تدخل من خلال فتحة النافذة البنفسجية المستديرة.

لم يعد هناك إلا هذا الضوء الأزرق مُتكثفاً لأنك لم تعد قادراً على التمييز بين وجوه الحرس الجالسين على كراسيهم بعضهم مقابل بعض على امتداد الجدران التي كان يبدو لك أنهم يغوصون في داخلها ؛ لكنك كنت تسمع تنفسهم المنتظَم على نحو أكثر قوة، أكثر خشونة، وأكثر إيقاعاً.

كنتَ تشعر أن قدميك لم تعودا تحملانك، وأنهما لم تعودا حتى مرتكزتين على الأرضية، وكانتا ترتفعان على نحو تدريجي، وأن جسدك بأكمله يدور حول مداره في الفضاء إلى أن يستقر على مستوى عيون الناس الجالسين المغلقة.

لم تعد ترى إلا عقد القبة التي بدأت تتحرك تحتها كما تتحرك داخل نفق، والحراس يتنقلون على امتداد الجدران بسرعتك نفسها دون أن يقوموا بأي حركة.

أنت تعرف الآن أين أنت؛ بقع الجص والألوان هذه، هذا النضح، هذه المصابيح المائلة إلى الحمرة التي تأكل جدرانها بقع خضراء دبقة كبيرة جداً، إنها أنفاق بيت نيرون الذهبي.

ثمة ثقوب مستديرة تُظهِرُ السماء الليلية من وقت لآخر. يتسع النفق فجأة؛ فيتوقف كل شيء.

كان القطار متوقفاً (لا بد أن القطار قد توقف، لا بد أنك قد تركت ليفورن)، لا تزال في ليفورن (لم يُضأ المصباح في ليفورن)، الشمس تسطع على محطة ليفورن وسط الدخان (وثمة شخص هناك لم يكن يزعجك وآنييس كذلك قد عادت)، كنتَ وحيداً في المقصورة، النافذة مُخفضة، والرأس مائل على الرصيف؛ اشتريتَ صُحفاً من البائع الذي كان يصرخ، ثم تركت محطة ليفورن، تنظر في أعلى الشمس التي ما زالت قوية جداً في هذا الصباح التوسكاني بداية تشرين الثاني، إلى الحقول العارية، والقرى، والهضاب، والبلاجات الخالية بكابيناتها المصطفة الزرق أو البيض، هذا المنظر نفسه الذي تجتازه الآن تحت الليل، غارقاً في هذا النعاس السيىء المُضني والمتقطع.

في الجانب الآخر من الممر ومن البحر، انبسط رعن بيومبينو، وجزيرة البا.

جَلَستَ في عربة المطعم الخاصة بالدرجة الأولى، بما أنك كنت تعبر لاماريما، تواجهك فتاة إيطالية جميلة جداً من روما، ممشوقة القامة تذكرك بسيسيل.

من جديد فوق شعر آنييس، في زجاج الصورة غير المرئية التي تمثل قوارب راسية قرب الرصيف في ميناء صغير، يشبه الانعكاس المشوه للقمر بصمة حيوان ليلي، ليس ببصمته فقط، بل بمخالبه نفسها التي تنبسط وتتقلص كما لو كانت متلهفة للانقضاض؛ ينتقل إلى الحافة، نحو النافذة، يختفي، ولكن من خلال النافذة يظهر لك القمر بدراً بنفسه، يستقر مرتجفاً في المركز، ويغمرضوءه المستقيم فجأة المقصورة إلى حد أنه يضيىء، ويحرك الفتحات المعينية الشكل للأرضية المعدنية المسخنة بين فردتي حذائك.

في الضوء الأزرق، تسعى نحو «بيزا»، كُنتَ تنظر إليها وهي نائمة كما لو أنها كانت امرأة غريبة التقيت بها في القطار، كما لو أن هذه المرأة الجالسة بجانبك، التي يرتفع ظهرها الرائع وينزل بحضور وافر، ويلمس شعرها يدك التي ما زالت تُمسك بالكتاب الذي لم تفتحه، كانت قد تجرأت أن تأتي وتلتصق بك كي تنام بدلاً من أن تنهار، كما لو أنك قد تجرأت أن تسحبها اليك أثناء نومها، دون أن تقول لك كلمة، دون أن تسمع نبرة صوتها، قلتَ لنفسك: أنا لا أعرف اسمها، أنا لا أدري من تكون، ولا حتى إن كانت فرنسية أو إيطالية، وفي أي لحظة صعدت إلى القطار، لا بد أنني غفوت، وها أنا أجد نفسي مع هذا الوجه المستند إلى رقبتي، ويدي تحضن خصرها، وركبتها تداعب ركبتي برفق، وهذه الجفون قريبة جداً من شفتي.

كانت ستارة النافذة مُسدَلة، ولكن ليست ستارة النافذة التي كان صدغك يحتك بها، ومن الجانب الآخر من الممر، من النافذة التي تجمّعت عليها قطرات مطر، كنت تشعر أن مطر الخريف كان هائجاً.

كان تعب إقامتك في باريس، وتعب هذه الرحلة، وهذا الجهد من أجل أن تُخفي ذكرياتك، وترتب الأشياء في داخلك، يبعث فيك القشعريرة من وقت لآخر، وكان جسد سيسيل يهتز كأنه صدى لاهتزازات جسدك ثم ما يلبث أن يهدأ، ويستعيد نفسه

الرحب، الذي كان يغسل تشنجاتك، وجراحك، وكل هذه الحرقة في جهازك الهضمي، وكل هذا الصرير في عظامك، والتجعد في أعصابك، يغسله بزيت بحري مريح، وبنور خفي وديع، حنون ودافىء وتنقية مثملة ومهدئة للهواء، والجدران، والخطوات، والكلمات، والسماء الرومانية التي كُنتَ تدنو منها.

لم تكن قد توقفت منذ ليفورن؛ كنتَ تعبر الماريما، وتحاول أن تستعيد نومك ؛ استيقظت سيسيل بوصولكما إلى «سيفيتافيجيا».

كان كل شيء قد توقف؛ فوق رأسك، أمام عينيك، ثمة صورة تجسد «الطوفان»؛ كل أولئك الذين كانوا قد رافقوك، رجالاً ونساءً، بدأت أقدامهم تنتفخ وكانوا واقفين على امتداد الجدار، وكانوا ينحنون عندما يصلون الى عقدة القبة.

على امتداد جسدك، من الجانبين، كانت تمر قافلة للكاردينالات بقبعاتهم ومَشملاتهم، وكانوا كلهم يهمسون لك وهم يصلون إلى أذنك: «لِمَ تّدعي أنك تكرهنا؟ ألسنا من الرومان؟»

ثم، البابا، يُحمل على أربعة تماثيل ضخمة من المرمر الأسود عيونها بلون العنبر، تتأرجح على وفق خطواتهم، تحاط بمهافيف الريش الأربعة، مع المظلة الحريرية البيضاء والمذهبة، وأيديها ذات الكفوف المثقلة بالخواتم، وعلى رأسها أكاليل، قسمات وجهها متعبة، وعيونها مختبئة وراء نظارات دائرية سميكة، في اللحظة التي تلمس قدماه قدميك، بصوت يبدو كأنه آتٍ من القبور البعيدة، يرن كنعيق البوم على الجدران الحيوية، ببطء وحزن شديدين يعلن:

«آه أنت، المشلول وسط الهواء عند قَدَمَي، العاجز عن تحريك شفتيك وحتى عن إغلاق جفنيك كي تهرب من ظهوري، وتريد أن تنام وتتكىء على هذه الأرضية الهاربة الآن منك، أنت الذي تبقيك صور عديدة يقظاً، عاجزاً عن ترتيبها وتسميتها، لِمَ تَدعي أنك تُحب روما؟ ألستُ أنا شبح الأباطرة، أسكن منذ قرون عاصمة عالمهم المُلغَى، المأسوف عليه؟»

رأسه هو أول ما شاب فيه، ثم ملابسه التي اصطبغت بالأزرق؛ اختلط مع الضياء الأزرق الكثيف الذي يشكل ما يشبه خثارة دم وسط الصالة.

نزل شخص ما، أضاء المصباح ليأخذ حقيبة سفره من فوق الشبكة. كانت سيسيل قد افاقت تواً، لم تكن تعرف أين كانت، تنظر إليك طوال وقت التوقف دون أن تتعرف عليك، كأنها تخرج من حلم سيىء مُحاولةً ان تطرده، مع أن نومها كان يبدو هادئاً.

في المرآة، بينما كنت تحلق، كنت شاحباً وقسمات وجهك متعبة.

كُنتَ تنظر إلى محطات الضواحي حيث كانت السماء تمطر، دون أن تدلف إلى المقصورة حيث مَكَثَتْ ساكنة، وعيناها مفتوحتان، في المكان الذي تركته: روما تراستفيري، ثم النهر الذي وقفتَ فوق جسره شاحنة للحليب، مصابيحه منعكسة في الماء الأسود المتلاطم، روما اوستينسي، ثم الأسوار الدكناء التي يشعر المرء فوقها ببريق المدينة وهي تستعيد حركتها ببطء، شارع آبيا نيوفا، لاستازيوني توسكولانا.

كانت تحاول وهي واقفة ودبوساً بين أسنانها، أن ترتب فوضى شعرها. كان الناس يسحبون حقائب سفرهم على الرصيف. كنتَ قد اجتزت لابورتا ماجيورا ومعبد مينيرف ميدسا؛ كنتَ في روما.

تركَ القمر النافذة، ولكنكَ كُنتَ تلمح انعكاسه الخفيف جداً في المرآة بين رأس بيير ورأس القادم الجديد، الذي لم تكن تميز تقاسيم وجهه، يعكس صورته زجاج النافذة التي تغطي صورة أبراج وجدران مُسننة. تمر محطة كروستو.

كم هذه الأظافر مغروسة في لحمك، وهذه السلاسل معقودة بشكل محكم حول صدرك، وهذه الأفاعي تسيل على امتداد ساقيك!

تعدل رقبتك ببطء، تقلص قبضتي يديك، تُبسط ذراعيك، لكن هذا الكتاب الذي كان بين يديك، لم يعد موجوداً، لا بُد أنه سقط؛ تنكفيء على نفسك، تحك البساط الحديدي بين حذائيك، بين العُرقوبين اللذين يتحركان، دون أن تتمكن من إيجاده.

إنه فوق المقعد، أصابع هذه المرأة تحط فوقه، تود أن تعضعض رقبتها بلطف، وهي تُدير رأسها، دون أن تستيقظ، كي تمنحك شفتيها، وتضمها اليك بينما تتغلغل يدك إلى صِدارها، تترك أصابعها، تبتعد مع ارتجاجات قصيرة؛ تُمسك بها على الحاشية.

يخرج هذا الذي لم تنجح الآن في رؤية وجهه، يُغلق الباب خلفه، شُعاع ضوئي

برتقالي على سترته المصنوعة من قماش التويد، على واحدة من يديك، على واحدة من ركبتيك؛ ثم الظلام من جديد.

وحينما تختفي هذه البقعة من الدم، يظهر في عمق الصالة ملك الحُكم بيده المرفوعة، كل الشخصيات الضخمة المعلقة حول عقد القُبة قالبة رأسها ومغمضة عينيها:

«حال سماع صوت كلماتي، بدأتْ أعضاؤك تتقلص، كما لو أن الدود قد التهمها. لست أنا من يُدينك، بل كل أولئك الذين يرافقوني وأجدادهم، كل أولئك الذين يرافقوك وأولادهم».

أخذت تنتشرُ على الجدار الذي ظهرت عليه خطوط من الوميض تتساقط بقطع كبيرة.

العيون شبه المفتوحة على هذه الرؤوس، والعيون المُغلقة، في هذا الضوء الأزرق الكثيف، كلها مقلوبة إلى الوراء، متأرجحة مع حركة القطار، قد يكون الليل الخارجي المستطيل الشكل رمادياً أكثر بين العجوز الإيطالية وآنييس الفضية، هذه الشبكات المعلقة من بداية عقد القبة، ساندة ممتلكات هؤلاء الرجال والنسوة اللاتي لم ترهن من قبل، و لن تلتقي بهن بعد على ما يبدو، يستيقظ هذا الذي تُسميه بيير، باعداً كتفيه عن ظهر المقعد، سانداً كوعيه على ركبتيه، ناظراً إلى تتابع مرور المنظر المظلم المُخْتَصَر، وهذه التي تُسميها آنييس تُبعث أيضاً من نومها، تُمسك بمعصم زوجها، تحاول جاهدةً أن تتبين الساعة في ضوء القمر، «... قبل الوصول إلى روما.

نعم، تقريباً، لديك الوقت لتنامي.

– سأخرج قليلاً في الممر كي أحرك ساقي»، ينهض الاثنان، يحاولان ألا يزعجاك، يمسك بقبضة الباب، ويحاول أن يفتحه بكل هدوء ممكن، ينتشر شريط من الضوء البرتقالي على يديه ويديك، وعلى شعر هذه المرأة المنبسط بجانبك، تحاول أن تُحسن من جلستك، تسند جبهتك إلى الستارة، كلا، لن تتمكن من النوم هكذا؛ تقلب رأسك إلى الخلف من جديد.

تحك قدميك على البساط الحديدي الساخن محاولاً أن تضعها بين قدمي العجوز

الإيطالي عيناك مركزتان الآن على اللؤلؤة الزرقاء في المصباح، وتشعر بيد المرأة الشابة التي تسقط وتُداعب كاحلك بلطف، وبأصابعها التي تتلمس كما لو أنها تبحث عن شيء ما.

كان المطر على «لا ستازيوني ترميني» يُحدث ضَجَةً بقدر ضجة القطار السائر، يطرطق بموجات كبيرة على السقف الشفاف لقاعة المتسكعين وأنت تشرب فى عجالة، واقفاً في البار، فناجين القهوة بالحليب، وعلى الساحة ثمة برك كبيرة من المياه حيث كان سائقو سيارات الأجرة يحدثون رشقات مياه؛ والريح تعصف تحت الإفريز حيث كنتما تنتظران، ساكنين، صامتين، ياقة معطفيكما مرفوعة ومشدودة، في الليل الدامس الظلام، لا يبدو أن هناك شيئاً يعلن عن الفجر باستثناء حركة عربات النقل.

صَعدتَ حقيبة سفر سيسيل حتى الطبقة التي تسكن فيها، عن طريق «مونتي ديلا فارينا»، ثم تركتها بسرعة فائقة دون أن تقبلها، هامساً لها فحسب، كما لو كنت تريد أن تُريح ضميرك فحسب: «نلتقي إذن هذا المساء» ؛ ثم سمعتها تدير المفتاح في قفل الباب، ثم تصفق الباب خلفها.

وضعتَ حقيبتكَ على الطاولة، في «البيركو كيرينال»، في غرفة بشرفة في الطبقات العليا، أخرجت منها الجزء الأول من «الإنيادة» (Enéide)[1] في مجموعة «بيدي»(Budé)؛ فتحت مغاليق الشبابيك؛ فأخذَ النهار يمتد ضوءه وينتشر، ثم ظهر تشقق واضح في هذا الانهيار للغيوم فوق سقوف شارع نازيونالي.

في المساء، عقب حديث مُتعبٍ وممل في سكابيلي دام أكثر مما كان متوقعاً، وبينما تجاوز وقت الموعد في بيازا فرانزي منذ وقت غير قصير، مشيت ببطء، توقفت حيال الواجهات، وأنت تغير الرصيف في اغلب الأحيان، تتسلى بإطالة الطريق عبر ساحة الباتتيون، في الهواء الطلق الذي ما زال رطباً، والقليل من غروب الشمس المستمر في السماء،

كما لو أنك تريد أن تتجنب الذهاب إلى بيازا فرنزي (لكن قدميك كانتا تقودانك إلى هناك وكان في داخلك شيء من الغضب ضد هذه الحتمية الغبية)، آملاً أن تكون غائبة، أن يكون الملل قد أصابها، خاصة بعد ليلة السفر هذه، يوم استئناف العمل، قائلاً لنفسك:

1- شعر ملحمي لفرجيل يتألف من 12 نشيداً(29~-19~)، يسرد فيه إنشاء الأمة الرومانية في ايطاليا.

لا بد أنها لن تنتظرني، إنها قرابة السابعة، لا بد أنها قد عادت إلى بيتها تهيىء لها سندويشاً وفي نيتها أن تخلد إلى النوم في وقت مبكر جداً؛ لكن لا، كانت هنا، في مكانها المعتاد، تتصفح جريدة للأزياء، بل لم تكن حتى نافدة الصبر.

كانت لديك رغبة في أن تسألها كيف كانت إقامتها في باريس، كما لو أن هذه الكلمات التي قدمتها بها إلى هنرييت كانت قد طابقت الحقيقة، كما لو كانت بالفعل سيدة تربطك بها علاقة في روما وكانت دائماً لطيفة معك.

قالت لك: «أنا جائعة جداً، رأيت هذا الصباح أن هناك مطعماً جديداً في لاركو أرجنتينا، قد يمكننا أن نجربه ؛ ومن ثم سأخلد للنوم».

هذه المرة لم تصعد حتى السلم المؤدي إلى سكنها، ولم تحدد حتى موعداً لليوم التالي. قالت لك عِمتَ مساءً بيدها وهي تتثاءب. أغلقت معطفك ورجعت مشياً في البرد حتى البيركو كيرينال حيث قرات أبياتاً لفرجيل حتى منتصف الليل.

كان الجدار الخلفي يسقط بقطع كبيرة والوجه المركزي يتلون بالأزرق، مختلطاً بالضوء الثخين، مشكلاً ما يشبه بقعة دم وسط المنظر المدني الليلي الذي كان ينكشف شيئاً فشيئاً.

كانت الشخصيات الضخمة المنحنية فوقك تهمس، وأصابعها تقلب صفحات كتبها الضخمة.

كُنتَ تفكر فيها، قائلا مع نفسك: لم تكن إلا مغامرة، سأراها مجدداً فيما بعد، سنبقى أصدقاء دوماً؛ لكن في مساء اليوم التالي، كانت السماء غائمة قليلاً، لم تعد قادراً على أن تُمسك نفسك؛ عند خروجك من شركة سكابيلي، أسرعت الخطى، وأنت تركض تقريباً، نحو قصر فرنزي.

في البدء، لم تُظهر نفسك؛ تبعتها في ليل روما، لم تكن تسلك الطريق المباشرة للذهاب إلى طريق مونت ديلا فارينا، يبدو عليها متعجلة، عصبية المزاج، تقترب منها وأنت تتساءل: هل تذهب إلى بيت شخص آخر؟ وأنت تصل إلى قامتها، ماشياً بجانبها بعض الوقت، رأسك ملتفت إليها، غير قادر على أن تدير عينيك عنها؛ وأخيراً رأتك، توقفت،

أطلقت صرخة، تركت حقيبتها تسقط، ودون أن تنحني لتلتقطها، أسرعت لترمي بنفسها بين ذراعيك.

قبلتها من فمها؛ وقلت لها:

«لا أستطيع أن استغني عنك.

– لو عرفت أنني سألتقيك، لكنت أعددت عشاءً في البيت».

كما لو أن كل الذكريات، كل ذكريات الرحلة إلى باريس قد انطفأت. استعدت شبابك من جديد؛ أخيراً استعدته؛ كنت وصلت إلى روما.

بعد وجبة الطعام في مطعم صغير يطل على جزيرة التبر، ذهبتما حتى معبد فستا الدائري، عبرتما قوس جانوس، ومشيتما بمحاذاة البالاتان، حديقة كايليوس، متلاصقين الواحد بالآخر، غالباً ما تتبادلان القبل، لا تنبسان بكلمة حتى خرائب بيت نيرون الذهبي (كان مازال هناك ازدحام كبير في سير المركبات والدراجات البخارية (فسبا) في ساحة كوليزي) حيث كنت تفك الرموز التي تعلن أن بالإمكان زيارته الخميس فقط.

«ولذلك لم أدخله بعد حتى الآن.

– سأذهب لزيارته غداً من أجلك».

كان ضوء القمر يضرب حالياً رأس الإيطالية العجوز وزجاج صورة كاركاسون، التي تلمحها فوق رأسها شبيهة بمستطيل عمودي لامع رقيق. تتحرك قبضة الباب التي كنتَ تمسكها بيديك؛ ينفتح الباب؛ يمد رجلٌ رأسه، ثم يغلقه.

كانت الستارة التي انفك مشبكاها تصعد بهزات صغيرة، تاركة فتحة تضييء، وتكبر، بدأتَ تلمح من خلالها خطاً متغيراً من ريف روما متلوناً بفجر رمادي، ثم أخضر، ثم أصفر؛ ثم مثلثات من السماء الصافية، هناك فوق الحقول ومزارع العنب، في ثنيات الهضاب.

بعد أن كشفَ أحد المسافرين عن زجاج نافذة بالكامل، أثناء إحدى انعطافات السكة الحديدية، غمرت الشمس المكان بريشاتها النحاسية، مغطيةً خدود النائمين وجبهاتهم بطبقات رفيعة من النحاس الحار والمضيىء.

ارتفع سرب من الغربان فوق حقل، ومن الجهة الأخرى من الممر، كانت أمواج البحر مُفصَلَةً في هذه اللوحة.

«لقد وصلنا؟» قالت هنرييت وهي تفتح عينيها.

– سنصل إلى سيفيتاجيفيا».

لم تكن المدينة خربة. كان هذا قبل الحرب. ثمة أطفال يرتدون قمصاناً سوداً على الرصيف.

كُنتَ قد قلت لها أن تذهب لتصفف شعرها، وتنعش وجهها قليلاً بماء الكولونيا، لكنها كانت باقية بجانبك، يدها مستندة إلى كتفك، تلتهم بعينيها الرامشتين الشمس التي كانت تصعد، مُشَتِتةً الغيوم الباروكية[1] خلف أشجار الصنوبر وخلف القصور.

لم تكن هناك عربات أو فسبا أمام محطة ترميني القديمة بطرازها القديم، بل كانت هناك خيول، وصعدتما في عربة تجرها الخيول بعد أن تناولتما فطوركما في البوفيه القديم الكئيب المغلق الآن.

لم تكن حينئذ معرفتك بالإيطالية إلا قليلة، لم تكن قد دخلت إلى سكابيلي بعد. كان كل شيء يُدهشك؛ ولم يكن بمقدور الزي العسكري، و«يحيا الرئيس» قد فعلا شيئاً ما.

سألتها إن كانت تريد أن ترتاح في غرفة الفندق الذي تنزل أنت فيه «كروس دي مالطا»، في شارع بوركونيا، قرب ساحة اسبانيا، لكن لا، لم تكن تريد إلا أن تمشي، أن ترى، فذهبتما في الشوارع التي كانت ترتفع حرارتها،لاكتشاف الهضاب الشهيرة.

يغلق الأنبياء الكبار والعرافون كتبهم؛ وتهفهف طيات معاطفهم، وأوشحتهم وجلابيبهم وتمتد لتصبح شبيهة بريشات سود كبيرة تبدأ تصغر؛ لم يعد هناك إلا طيران ريشات سوداء كبيرة فوق رأسك، تبدو من خلاله السماء الليلية المضببة التي تتعمق أكثر فأكثر.

تشعر أنك تنزل؛ تُمسك بالعُشب. تُدير رأسكَ إلى اليمين، وإلى اليسار، تلمح جذوعاً

1– نسبة إلى الحركة الباروكية في الرسم، المعروفة بكثرة زخارفها.

مبتورة لأعمدة رمادية وأدغالاً مزروعةً بانتظام، وفي العمق عش كبير من الطابوق نصف المحطم المهيأ لكي يفخر.

لكن ها هي تماثيل صغيرة من النحاس مزينة بالحديد تقترب في الهواء، على بعد سنتميترات فوق عينيك.

« أنا فاتيكانوس، إله صراخ الأطفال.

– كونينا (Cunina)، إلهة المهد.

– سيا (Seia)، حبوب قمح منثورة على الأرض.

– لأولى البراعم.

– لعقدة السيقان.

– للأوراق التي تتفتح

– للسنبلة الصفراء.

– لسفاتها.

– لأزهارها التي ما زالت خضراء.

– لبياضها.

– للسنبلة الناضجة.

– للآلهة الصغيرة الدقيقة لإيطاليا القديمة، لتحليل الزمن والفعل، والتي تبرعم من رمادها القانون الروماني.

– جوكاتينوس(Jugatinus)، الذي يربط يد الرجل بيد المرأة.

– دوميديكوس (Domiducus)، الذي يقود العروس الشابة إلى بيتها الجديد.

– دوميتيتوس (Domitius)، الذي يبقيها في هذا البيت.

– مانتورنا (Manturna)، الذي يحفظها لزوجها.

– فيرجيننسي (Virginensis)، الذي يفك حزامها.

– باراتوندا (Partunda).

– بريابوس (Priapus).

– فينوس (Vénus)»

التي تكبر وهي تبتعد، وجسدها يصبح واضحاً ومذهباً بينما تستدير نحوك وهي كبيرة جداً في عشها الكبير رافعة في راحة يدها كل رفاقها.

ويظهر فوق رأسها ثلاثة تماثيل كبيرة من البرونز، والحديد، والثالث أكثر عتمة، من التراب الأسود، جوبيتر، مارس، وكيرينوس.

ثم، يأتي من جميع الجهات، ويتجمع رجال يرتدون أثواباً، ودروعاً أو معطفاً وردي اللون، وتيجاناً مع زخارف مذهبة أكثر فأكثر، وأحجاراً كريمة، وتطريزاً ثقيلاً على دثارهم. تتعرف إليهم واحداً إثر الآخر: إنها حاشية الأباطرة.

كنتما تمشيان في الشوارع، تستكشفان الهضاب الشهيرة، ودليلك السياحي الأزرق في يدك، وكان حينئذ مايزال جديداً.

بعد الظهر، زرتما الفوروم والبالاتان؛ وفي المساء، في اللحظة التي كانوا يغلقون فيها الأسيجة، صعدتما إلى معبد فينوس وروما.

«هناك، في الزاوية»، كنت تشرح لها، «في الجهة الأخرى من الكوليزيه، هناك خرائب البيت الذهبي لنيرون، إلى اليمين في أسفل قوس النصر لقسطنطين، أبعد من هذا، ما نلمحه من خلال الأشجار، وأساس معبد كلود، إذ كان الأباطرة يُحسَبون كالآلهة».

كان هناك زحام كبير حول المدرج، لكنها كانت سيارات بطيئة جداً قياساً إلى تلك التي كانت في السنة الماضية أو اليوم. كانت الأشغال قد انتهت في شارع دي فوري امبريالي وافتتح قبل قليل، وهذه الحديقة أنشئت على خرائب المعبد.

فجأة، في هذه الأمسية المُسكرة، على المصطبة، سألتك:

«لِمَ فينوس وروما؟ ما العلاقة بين هذين الشيئين؟»

رأسَك مقلوب تماماً إلى الخلف، تلمح المستطيل الزجاجي الذي يغطي صورة قوس النصر يلتمع قليلاً فوق مكانك. تمر مصابيح محطة ما؛ لا بد أنها محطة تاركينيا.

تقول لنفسك: يجب أن تبقى ساكناً، في الأقل يجب أن تبقى ساكناً، هذه الحركة غير مجدية على الإطلاق؛ ألا تكفي حركة عربة القطار لتحريك يقينك وإثارة صريره كقطع آلة أُسيْءَ استخدامها؟

لكن ما من حيلة لمنع هذه الذراع أن تستريح. تسترخي ذراعك، وتنبسط أصابعك كما لو أنك وترت قوساً، وتركت فجأة حبله ؛ يلامس ظهرها جلد خَد، فيبتعد عنه بسرعة كما لو أنه كان يغلي، خد هذه السيدة الجالسة إلى جنبك التي استقامت، والتي تتفحص وجهها، وعينيها المفتوحتين الآن.

كنتَ قد وضعت يدك اليُمنى على قبضة الباب، وأخَذَت هذه الأخيرة تتحرك من جديد؛ تنفرج فتحة الضوء البرتقالي؛ يندس فيها حذاء، ثم الركبة، إنها ركبة بيير هذه المرة، الذي لم يذهب ليحلق إذ لا يُمسك شيئاً بيديه، يشق طريقه إلى الداخل، نصف خدّه مُضاء وقذر، كما لو أنه يسبح في حبر، يتلمس بيديه، جسده المنحني إلى أمام ويدور في هذا الاتجاه وذاك، وترتفع قدماه ببطء عالياً جداً، الواحدة بعد الأخرى، ويلتف حول نفسه أخيراً ليستقر على المقعد.

ترى نصف ثوب آنييس، ثم ساقها التي ترتفع، راسمةً قوساً متردداً، مقدمة قدمها متأرجحة كإبرة مقياس كالفاني، فوق ركبتيك المتصالبتين الواحدة فوق الأخرى، وهذا الجزء من تنورتها ذات الطيات، عاكساً ضوء الممر، ينتشر بمستوى عينيك كجناح دراج كبير؛ تستند يدها على كتفك، ثم على ظهر المقعد بجانبك. تلتفت، تدور محورياً على الكعب الذي نجحت في إدخاله، حاشية تنورتها مفروشة على بنطالك، وركبتاك ملتصقتان بركبتيها، ثمة تقطيب يبدو على وجهها الكائن الآن في الظلام الأزرق كاملاً، ينغلق الجناح الآخر للدراج مرة اخرى، تلتفت مرة أخرى، تُسند يديها على كتفي بيير، تتدحرج حتى مكانها حيث تجلس الآن على نحو مستقيم، رأسها إلى الأمام قليلاً، ترى المنظر الأسود المائل إلى الزرقة يمر مع بعض المصابيح مخلفاً بقعاً على بعض الجدران.

لم تحاول أن تغلق الباب خلفها؛ يقدم العجوز الإيطالي يده حتى قبضة الباب، يتركها عليها بضعة دقائق، ثم يسحبها؛ ركبتاك في دائرة الضوء البرتقالي كركبتي المرأة الجالسة إلى جنبك.

«يا أباطرة الرومان وآلهتها، ألم أعكف على دراستكم؟ ألم أفلح أحياناً في استنهاضكم عند استدارة الشوارع والخرائب؟»

إنها مجموعة من الوجوه التي تقترب، ضخمة وحاقدة كما لو كُنتَ حَشَرةً مقلوبة على ظهرها، أضواء ترسم خطوطاً على وجوهها والجلد يتساقط منها قطعة إثر أخرى.

يغوص جسدك في الأرض الرطبة. والسماء التي تعلوك أخذت ترتسم عليها خطوط البرق، بينما تتساقط قطع كبيرة من الطين وتغطيك.

معصمك في الضياء البرتقالي. وأنت تزحلق يدك على فخذك، تُخرج ساعتك من كُم قميصك. الساعة الخامسة. وهذه الشوارع حيث تُضاء فيها بعض الشبابيك لا بد أنها شوارع سيفيتافيجيا. تزيح الستارة إلى يمينك، فيظهر حينئذ وجه المرأة الرومانية الجالسة إلى جنبك، يظيء إزاء ظل شعرها الأسود.

لن تنام بعد الآن. يجب أن تنهض، تأخذ حقيبتك وتضعها على المقعد، وتفتحها، وتأخذ منها لوازم الحلاقة، ثم تغلقها.

ينبغي أن تنجح في فتح الباب كاملة، وساقاك لا تكادان تعيناك.

يجب أن تخرج.

في الداخل، في الهواء الثقيل، الحار، والرائحة العدائية، تمسك في يدك، مغلفةً بالنايلون المخطط بالأبيض والأحمر، فرشاة الحلاقة، الرطبة والمنعشة، وآلة الحلاقة، والصابونة، والشفرات،و قنينة ماء الكولونيا، وفرشاة الأسنان وغلافها، وعصارة معجون الأسنان المأخوذ نصفه، والمشط، كل ما نشرته على الطاولة الصغيرة بالقرب من المغسلة التي لا يمكن سدها والتي لا تمنح حنفيتها الماء إلا على جرعات قليلة، تمرر سبابتك على خدّك الأملس تقريباً، رقبتك ما زالت خشنة، مخدشة، تنظر إلى بقعة الدم الصغيرة التي تنشف على طرف إصبعك، ثم ترفع غطاء حقيبة سفرك، تدس أدوات الحلاقة هذه، ثم تغلق القفلين الصغيرين من النحاس الأصفر، وتسأل نفسك إن كنت ستُعيدها فوق الشبكة، إن كنت ستبقى في الممر لترقب أطراف روما؛ لكن لا، ما زالت لك نصف ساعة، تنظر إلى ساعتك، خمس وعشرون دقيقة تماماً.

ترفعها وتضعها في الأعلى. الكتاب الذي كُنتَ قد اشتريته وقت الرحيل مغمور الآن بين الحز الذي يربط المقعد بمسند الظهر، لم تقرأه لكنه محفوظ طوال الرحلة كأنه علامة خاصة بك، كنت قد نسيته وأنت تترك المقصورة قبل قليل، وتركته يتزحلق شيئاً فشيئاً تحت جسدك وأنت تنام.

تأخذه بين أصابعك، قائلاً لنفسك: يجب أن أكتب كتاباً؛ ستكون بالنسبة لي وسيلة لردم الهوة التي انحفرت، لا أملك حرية أخرى، يحملني هذا القطار حتى المحطة، وأنا في كل الأحوال مقيد ومُجبر على اتباع هذه السكة.

وسأواصل بالتالي عملي غير المناسب لدى سكابيلي بسبب الأطفال، بسبب هنرييت، وبسبب نفسي، وأستمر في سكني خمسة عشر ساحة البانتيون؛ كان خطأً أن أظن أن بإمكاني التخلص من كل هذا؛ وخاصة، في المرات القادمة، أنا أعرف ذلك تماماً، لن أتمكن أن أمنع نفسي من العودة لرؤية سيسيل .

في البدء، لن اقول لها شيئاً، لن أتحدث إليها عن هذه الرحلة. لن تفهم هي لماذا ستتسم

قبلاتي بهذا الحزن. ستشعر شيئاً فشيئاً ما كانت تشعر به دائماً، أن حُبَّنا ليس طريقاً يؤدي إلى مكان ما، لكنه محكوم عليه أن يتوه بين رمال شيخوختنا نحن الاثنين.

تمر محطة ماكليانا. ها هي ضواحي روما تظهر من الجهة الأخرى للممر.

ستصل بعد بضع لحظات إلى هذه المحطة الشفافة التي ما أجمل أن يصل اليها المرء عند الفجر كما يتيح ذلك هذا القطار في فصول أخرى.

سيكون الوقت ليلاً حالك الظلام وستلمح من بين النوافذ الكبيرة الحجم أضواء المرايا العاكسة للسيارات وشرارات الترامواي الزرقاء.

لن تنزل في البيركو كيرينال، بل ستذهب إلى البار لتطلب كافيه لاتي (قهوة بالحليب)، وأنت تقرأ الجريدة التي ستكون قد اشتريتها تواً بينما سيظهر الضوء، ويشتد، ويصبح شيئاً فشيئاً أكثر غنىً.

ستكون حقيبة سفرك في يدك عندما ستترك المحطة عند الفجر (السماء صافية تماماً، القمر اختفى، سيكون نهاراً خريفياً رائعاً)، وستظهر المدينة بكل لونها الأحمر الغامق، وبما أنك لن تتمكن من العودة إلى شارع مونتي ديلا فارينا، ولا إلى البيركو كيرينال، ستوقف سيارة أجرة وستطلب من سائقها أن يقلك إلى فندق كروس دي مالطا، شارع بوركونيا، قرب ساحة اسبانيا.

لن تذهب لترقب مصاريع شبابيك سيسيل؛ لن تراها تخرج أبداً؛ لن تلمحك أبداً.

لن تذهب قط لانتظارها عند مخرج قصر فارنيز؛ ستتناول غداءك وحيداً؛ طوال هذه الأيام القليلة القادمة، ستتناول وجباتك وحيداً.

تَجَنَّبْتَ المرور بحيها، ستتنزه وحيداً، وعند المساء ستعود وحيداً إلى فندقك حيث ستنام وحيداً.

حينئذ في هذه الغرفة، ستبدأ بكتابة كتابك وحيداً، لملء فراغ هذه الأيام في روما دون سيسيل، وأنت مانع نفسك من الاقتراب منها.

ثم، تعود مساء الإثنين نحو المحطة، في الساعة نفسها التي كنت قد حددتها، في القطار نفسه الذي قد عينته، دون أن تكون قد رأيتها.

في الجهة الأخرى من الممر يمر مصفى النفط بشعلته والمصابيح التي تزين أبراجه العالية من الألمنيوم، كأنها شجرة عيد الميلاد.

ما زلتَ واقفاً، بمواجهة مقعدك، صورة قوس النصر في باريس، ماسكاً الكتاب بين أصابعك، شخصٌ ما يَرْبت على كتفك، هذا العريس الجديد الذي أسميته بيير، فتجلس لتتركه يخرج، لكن ليس هذا ما يبغيه؛ يمد ذراعه ويشعل الضوء.

عندئذ تحملق العيون، كل الوجوه تُظهر شيئاً من العجالة.

يأخذ إحدى حقيبتي السفر من فوق رأس زوجته الشابة، يضعها على المقعد، يفتحها، ويبحث في داخلها عن لوازم الحلاقة والزينة التي تخصهما.

تقول لنفسك: لو لم يكن هناك هؤلاء الناس، وهذه الأشياء وهذه الصور التي تعلقت بها أفكاري إلى حد أن آلة عقلية تشكلت، تاركة مناطق وجودي تنزلق واحدة نحو الأخرى أثناء هذه الرحلة المختلفة عن الرحلات الأخرى، المنفصلة عن التتابع المعتاد لأيامي وأفعالي، ممزقةً إياي، لو لم تكن هناك هذه المجموعة من الظروف، توزيعة ورق اللعب هذه، لما حدث هذا الشرخ الفاغر في شخصي هذه الليلة، ولربما استمرت أوهامي مدة من الزمن، لكن، الآن، بعد أن أعلن عن نفسه لم يعد بإمكاني أن آمل أن يندمل أو أن أنساه، إذ إنه يطل على كهف هو سببه، حاضر في داخلي منذ زمن طويل، ولا يمكنني أن أدعي بغلقه، فهو التواصل مع شق تاريخي كبير جداً.

لا يمكنني أن آمل تخليص نفسي وحدي. كل دمي، وكل رمل أيامي قد ينضب عبثاً في هذا الجهد كي يدعمني.

أن تُهييء إذن لهذه الحرية المستقبلية الخارجة عن متناول أيدينا، وأن تتيح لها، تأليف كتاب على سبيل المثال، مهما كان بسيطاً، أن تتكون، وتتأسس، هي وسيلتي الوحيدة لأتمتع في الأقل بمردودها الرائع والموجع جداً، دون أن يتعلق الأمر بإيجاد جواب لهذا اللغز الذي يُشير إليه في وعينا أو لا وعينا اسم روما، وأن أبين حتى، وإن كان على نحو إجمالي، أنه يُرَكِّز الانبهار والغموض هذا.

تمر محطة روما تراستفيري. وتتلاقى فيما وراء النوافذ أولى الترامووايات المضيئة في الشوارع.

كان الليل حالكاً ومصابيح السيارات تنعكس على إسفلت ساحة البانتيون. كُنتَ تأخذ من مكتبتك رسائل جوليان لابوستا وأنت جالس بالقرب من النافذة حينما دخلت هنرييت لتسألك إن كنت ترغب في تناول العشاء.

«أنت تعرفين جيداً أنني أفضل مطعم القطار.

– حقيبة سَفَرك جاهزة على سريرنا. أنا عائدة إلى المطبخ.

– مع السلامة. إلى الإثنين القادم.

– سننتظرك؛ سيكون طبقك جاهزاً؛ مع السلامة».

كان المطر قد توقف وظهر القمر وسط الغيوم فوق جادة سان ميشيل في خضم سنة جامعية جديدة بطلابها من جميع الأجناس، وأنت في عجالة لتترك هذه الشقة، أقلتك سيارة أجرة استدارت عند زاوية القصر الخرب المنسوب إلى الإمبراطور الباريسي.

في محطة ليون، اشتريت سجائر، حجزت، وأنت على الرصيف، مقعدك في الوجبة الثانية للعشاء؛ صعدتَ إلى عربة في الدرجة الأولى، واتخذتَ لك مقعداً في مقصورة يوجد فيها سيد بدين، بعمرك، كان يدخن سيجاراً صغيراً، ووضعت على الشبكة حقيبة سفرك والحقيبة الجلدية الفاتحة اللون المليئة بالملفات والوثائق حيث سحبت منها الملف البرتقالي الخاص بفرع «رانس».

لم تكن إلا بداية رحلة اعتيادية ومع ذلك، فقد استعلمتَ في باريس، حتى وإن كان سؤالك سطحياً، عن إمكانية إيجاد فرصة عمل تناسب سيسيل؛ لم يكن ثمة شيء كان قد مزق نسيج حياتك المُنَظَمة جيداً بعد، ومع ذلك، كانت علاقتك مع هاتين المرأتين تقترب من الأزمة التي تشكل خاتمتها الرحلة خارج العادة.

رَحَل القطار، كُنتَ قد ذهبت إلى الممر لتنظر من الناحية الأخرى من النافذة إلى أول ربع للقمر فوق السطوح وخزانات الغاز في الضواحي.

فيما وراء النافذة، لم نعد نرى القمرَ البدر ولكن، أمام أسوار «اوريليان» (Aurélien)، تزداد أعداد الدراجات النارية (فسبا) وتُنار العديد من المصابيح في كل طوابق البنايات الجديدة.

وهذا الذي كنتَ تسميه «بيير» يعود إلى المقصورة، مُبتسماً، وجهه أكثر نضارة، وعيناه مفتوحتان على نحو أوسع ؛ وتلك التي تسميها آنييس، حقيبة يدها الكبيرة تحملها في يدها، تخرج بدورها؛ وتنهض المرأة ذات الوجه الروماني الجالسة إلى جنبك، ترتب معطفها، تسرح شعرها قليلاً، وتُنزل حقيبة سفرها الصغيرة.

تقول لنفسك: ماذا حدث منذ مساء الأربعاء هذا، منذ هذه الرحلة الأخيرة الإعتيادية إلى روما؟ كيف تغير كل شيء، ووصلت إلى ما أنا عليه الآن؟

تفجرت القوة التي كانت متراكمة منذ زمن طويل من خلال قرار هذه الرحلة، لكن آثار الانفجار لم تتوقف عند هذا الحد، فمن خلال تحقيق هذا الحُلم الذي كان يداعبني مدة طويلة، أُجْبرتَ على أن تتبين أن حبك لسيسيل هو تحت طالع هذه النجمة الكبيرة، وأنك إن كُنت تُريدها أن تأتي إلى باريس، فهذا لأنك كنت تريد أن تجعل روما حاضرة كل يوم من خلالها؛ ولكن الذي حدث أنها من خلال مجيئها إلى مكان حياتك اليومية، تفقد كل قدراتها كوسيط، ولا تعود تظهر إلا كامرأة بين أخريات، ستظهر معها هنرييت جديدة، من خلال هذا النوع من بديل الزواج الذي في نيتك أن تُنشئه، صعوبات من النوع نفسه، بل أسوأ بسبب الذكرى الحاضرة للغياب المستديم لهذه المدينة التي كان ينبغي أن تقترب منها.

لكنه ليس خطأ سيسيل إذا كان ضياء روما الذي ينبعث منها ويتركز فيها ينطفيء حالما نكون في باريس؛ إنه خطأ الأسطورة الرومانية نفسها الذي، حالما تبذل جهداً في تجسيدها على نحو حاسم، مهما كان خجولاً، يكشف عن غموضها. كنت تعوض عن عدم رضاك الباريسي من خلال إيمانك الخفي بعودة إلى السلام الروماني(Pax romana)[1]، إلى تنظيم امبراطوري للعالَم حول عاصمة قد لا تكون روما بل باريس على سبيل المثال. كنت تَجد مُسوغات لجبنك، من خلال أملكٍ في أن تختلط هاتان العلامتان.

هل كان يمكن أن تفقد امرأة أخرى غير سيسيل سلطتها أيضاً؛ هل كان يمكن أن تجعلها مدينة أخرى غير باريس تفقد قواها أيضاً.

1- السلام الروماني الطويل الأجل الذي فرضته الإمبراطورية الرومانية على الدول المجاورة الخاضعة لها.

هكذا تنتهي واحدة من موجات التاريخ في وعيك، موجة كان للعالَم فيها مركز، لم تكن الأرض فحسب وسط منطقة نفوذ «بتوليميه» (Ptolémée)[1]، بل روما في مركز الأرض، مركز تَغيرَ موقعه، وأراده أن يكون في بيزنطة بعد أن انهارت روما، ثم بعد حقبة طويلة في باريس الإمبريالية، لكون النجمة السوداء لخطوط السكك الحديدية في فرنسا كالظل لنجمة السكك الحديدية الرومانية.

إن ذكرى الإمبراطورية، القوية الحضور خلال قرون عديدة في جميع الأحلام الأوربية، هي الآن وجه غير كاف للإشارة إلى مستقبل هذا العالَم، الذي وزع على نحو آخر وأصبح أكثر امتداداً لكل واحد منا.

فحينما حاولتَ أن تقربه منك على نحو شخصي، تهدمت صورته؛ وعندما تصل سيسيل إلى باريس، تُصبح بدورها شبيهةً بكل النساء الأخريات، وتَدْلَهِم السماء التي كانت تُضيئها.

أنت تقول: ينبغي أن تبين في هذا الكتاب الدور الذي تؤديه روما في حياة رجل في باريس؛ يمكن أن نتخيل هاتين المدينتين منضدتين (الواحدة فوق الأخرى)، الواحدة تحت الأنفاق نسبة إلى الأخرى، مع أبواب تتيح التواصل يعرفها بعض منا فقط دون أن يتمكن أحد دون شك من معرفتها جميعاً، حتى إنه، للذهاب من مكان إلى آخر، يمكن أن تكون هناك بعض الطرق المُختصرة ومتاهات غير متوقعة، إلى حد أن المسافة من نقطة إلى أخرى، والرحلة من نقطة إلى أخرى، قد تتغير على وفق المعرفة، والألفة التي يملكها الفرد مع مدينة أخرى، إلى حَد أن كل تحديد للموقع قد يكون مزدوجاً، إذ يشوه الفضاء الروماني إلى حد ما الفضاء الباريسي، متيحاً اللقاءات أو موقِعاً في الفخاخ.

ينهض الإيطالي العجوز الجالس قبالتك، يُنزل بعناء حقيبة سفره السوداء الكبيرة، يخرج من المقصورة، يومىء لزوجته أن تتبعه.

ها قد تجمع في الممر، الكثير من المسافرين، حقائب سفرهم في أيديهم، محتشدين بالقرب من باب القطار.

1–كلود بتوليميه، عالم فلك، وجغرافي اغريقي، توصل من خلال بحثه ودراسته للكون إلى أن الأرض ثابتة ومستقرة في مركز الكون.

تمر محطة روما اوستينسي، برأس هرم سيستيوس الأبيض الذي يتبين قليلاً على خلفية سوداء، وتصل أسفلك أولى قطارات الضواحي إلى محطة روما ليدو. على الأرضية الحديدية المسخنة ذات الأشكال المَعينية الشبيهة برسم بياني مثالي لحركة مرور القطارات، تنظر إلى الأتربة، والأوساخ القليلة التي تراكمت كأنها التصقت خلال هذا النهار وهذه الليلة.

ذَهَبْتَ لرؤية البيت الذهبي لنيرون، في اليوم التالي، الخميس، تلبيةً لرغبة سيسيل التي رافقتها الليلة السابقة نحو منتصف الليل إلى ست وخمسين شارع مونتي ديلا فارينا، التي كانت قد قالت لك تحت سمعك، إنه من المُحال أن تصعد إلى بيتها في مثل تلك الساعة لأن عائلة بونتي لن تكون قد أخلدت إلى النوم بعد، وفي مساء الخميس تناولتَ العشاء معها في غرفتها بين الصور الأربعة لباريس التي حاولتَ جاهداً ألا تراها والتي كانت تمنعك من الكلام.

لم تتمكن أن تروي لها زيارتك إلا حين التقيتما في الفراش، والمصباح مُطفَأ، يُنير كما ضوء القمر الذي كان يدخل من النافذة المفتوحة مع قليل من الريح، وكانت مصابيح البيوت المجاورة، ومصابيح الدراجات البخارية التي

تستدير وتحدث ضوضاء في الركن الأسفل ولطخات برتقالية اللون على السقف.

تركتها كالعادة بعد منتصف الليل بقليل؛ عُدت إلى البيركو كيرينال؛ التأمت الوشائج الممزقة من جديد؛ كانت نُدبة جد هشة؛ كان لأدنى تهور أن يقتلعها؛ ولذلك لم تقل لها كلمة واحدة عن إقامتكما معاً في باريس، ولذلك، في اليوم التالي، الجمعة، إزاء كل مخاوفك، لم تقل هي لك كلمة واحدة، وأنتما تتناولان الغداء معاً في مطعم في ساحة «تيرم دي ديوكليسين»، ولا عندما كانت تودعك على رصيف المحطة بينما كان القطار يرحل، ملوحةً بيدها، وعيناها مركزتان عليك.

لقد اقتحمتها مرة أخرى؛ كان كل شيء يبدو ممحواً؛ لم تتحدث عن هذا مرة أخرى، وبسبب هذا الصمت لا يشفى الجرح الآن، بسبب هذا الالتئام الخادع المُبكر تطورت كنكرينا في هذا الجرح الداخلي الذي يتقيح بقوة كبيرة، الآن بعد أن قشطته ظروف هذه الرحلة، واصطداماتها، وحركاتها، وقسوتها.

«وداعاً»، قلت لها صارخاً بينما كانت تجري ورأسها مرفوع، رائعة، وشعرها إكليل من شعلة سوداء، لاهثة وهي تبتسم. كنت تفكر حينئذ: ظننت أني قد فقدتها، لكني عثرت عليها ثانيةً؛ لقد حاذيت هوةً، يجب ألا أتحدث عن ذلك أبداً؛ الآن أعرف كيف أحتفظ بها، سأتمسك بها.

على الأرضية الحديدية الساخنة، تتأمل حذاءَكَ المشوب بنُدب رمادية.

وتدوي في رأسك الآن «وداعاً سيسيل»، وتغرق عيناك خائبتي الأمل بالدموع، قائلاً مع نفسك، كيف لي أن أفسر لها وأن أسامح نفسي على الكذبة التي كانت هذا الحب، إلا بتأليف هذا الكتاب الذي ستظهر فيه بكل جمالها، مزينة بهذا المجد الروماني الذي تجيد تجسيده على نحو متميز.

أليس من الأفضل الاحتفاظ بمسافة بين هاتين المدينتين، كل هذه المحطات، كل هذه المناظر الطبيعية التي تفصل بينهما؟ لكن فضلاً عن الاتصال الطبيعي الذي يمكن للمرء بوساطته أن يتنقل من واحدة إلى أخرى حينما يشاء، هناك عدد معين من نقاط الاتصال، وممرات مؤقتة تفتح في أوقات معينة بقوانين لا يمكن للمرء أن يعرفها إلا شيئاً فشيئاً.

وعليه فالشخصية الرئيسة وهي تتنزه بالقرب من البانتيون الباريسي يمكن ذات يوم، وهي تستدير حول زاوية بيت معروف، أن تجد نفسها فجأة في شارع مختلف تماماً عن ذلك الذي كنت تتوقعه، في ضوء آخر مختلف، مع كتابات بلغة أخرى، تبدو لها إيطالية، تُذكرها بشارع سبق لها أن اجتازته، شبيه بأحد الشوارع القريبة من البانتيون الروماني، والمرأة التي قد تلتقي بها هنا، ستفهم أنه لكي تعثر عليها يجب أن تذهب إلى روما كأي شخص يمكن أن يذهب اليها حينما يشاء، إذا توفر له المال والوقت، آخذاً القطار على سبيل المثال، ومكرساً له الوقت، ماراً بجميع المحطات الوسيطة؛ و تمر هذه المرأة الرومانية كذلك إلى باريس من وقت لآخر؛ بعد أن سافرت شخصية الرواية الرئيسة كثيراً لتعثر عليها تتبين أنها ستصل، لا إرادياً دون شك، إلى المكان نفسه الذي تركته تواً، لتتسلم رسالةً من صديق واصفاً إياها على سبيل المثال، حتى إن جميع مراحل حبهما ستكون محكومة لا بقوانين هذه العلائق بين روما وباريس فحسب،

وهي قوانين قد تكون مختلفة بعض الشيء لكل واحد منهما، بل أيضاً بدرجة المعرفة التي ستكون لديهما عنها.

هذه المرأة الشابة التي كنت تدعوها آنييس، التي تجهل كل شيء عنها، حتى اسمها، والتي لا تعرف منها إلا وجهها ووجهتها، «سيراكوز»، تدلف إلى المقصورة، تجلس بالقرب من زوجها، تتبع بعينيها الدراجات البخارية «فسبا» التي تلتقي قرب سور «أوريليان» الأدكن الذي يبتعد، يخفيه تراب الردم، وبنايات حي بيازا زاما.

يغور القطار بين الجدران، تحت جسر شارع آبيا نيوفا.

تمر محطة «روما توسكولانا». يمرر رجل رأسه من الباب وينظر إلى الجهتين كما لو أنه يتحقق من شيء نسيه (ربما هذا الذي كان جالساً بضع ساعات هذه الليلة في هذا المقعد الفارغ الذي يواجهك والذي لم تتمكن حتى من رؤية وجهه، إذ كان يسبح في الظلام، وأنت كنت غارقاً في نومك السيىء، أثناء أحلامك السيئة المُمَزِقة، أثناء التفكير، والنمو البطيء والقاسي لهذه التساؤلات التي تمزقك هذا الصباح، وأثناء هذا الدوار وهذا الرعب الذي كان يأخذك إلى هذا الفراغ الذي ينفتح، هذا الشق الذي يزداد اتساعاً وعمقاً منذ لحظة وصولك بعد بضع لحظات، حاشية صلبة، الأرضية الوحيدة التي بقيت أكيدة، هذا الشرخ الذي كان يبتلع كل البُنى التي كنت قد شيدتها).

كان كل شيء بالنسبة إليك جديداً في ليلة الربيع الروماني هذه بينما أنت عائد نحو فندق كروس دي مالطا.

لم يكن هناك مترو، ولا باص كهربائي، ولا سكوتر (دراجة بخارية)، كان هناك تراموای، وسيارات أجرة ذات خطوط عمودية وبعض العربات التي تجرها الخيول ولا شيء غيرها.

كانت هنرييت تهزأ مثلك من رجال الدين الشبان والشيوخ الذين كانوا يتنزهون على هيئة مجاميع بأحزمتهم الملونة.

ما زال الدليل الأزرق الذي تُمسك به جديداً، والذي أصبح أكثر فأكثر غير دقيق، كنت تحمله معك في كل رحلة حتى هذه اللحظة التي اعتدت فيها على رؤية سيسيل والاستعانة

بدليلها، هذا الدليل الذي تركته في المكتبة الرومانية بالقرب من النافذة، خمسة عشر ساحة البانتيون.

لا تكلان أنتما الاثنان (كنت تردد جُمل الأسيميل (كتاب تعلم اللغة الإيطالية) في غرفتك صباحاً وأنت تحلق لحيتك، بينما هي تصفف شعرها)، في اليوم التالي ذهبتما إلى الفاتيكان ودرتما حول أسوار المدينة، تقهقهان عند التماثيل الدينية الصغيرة في المخازن، طفتما بعجالة في الأروقة المزدحمة بالتماثيل القديمة الرخيصة أو بهدايا جيدة لأولياء العهد الحديثين.

كنتما تداعبان الناس، والشوارع، والصرح، بعيونكما، متيقنين معاً أنه ليس إلا تواصل أولي فحسب.

ثم بعد أيام سريعة من هذا التنقل العَذب، وأنتما تشتمان سراً، متفقين تماماً، البزات العسكرية العديدة التي كنتما تصادفانها عند كل استدارة، كان يجب أن تسلكا مرة أخرى طريق «ستازيوني تيرميني» القديم البائس القذر، وبينما كان القطار يتحرك، كنت تهمس لها: «سنعود، حالما نتمكن من ذلك».

ثمة رجل آخر يمدّ رأسه من الباب وينظر إلى الجهتين ربما يكون هذا الذي كان جالساً بضع ساعات على المقعد بالقرب من هذا العريس الشاب.

أنت تقول: أعدك بذلك، ياهنرييت، حالما تسنح لنا الظروف، سنعود معاً إلى روما، حالما تهدأ موجات الاضطرابات، حالما تسامحينني؛ لن نكون عجائز إلى هذا الحد.

تَوقَفَ القِطار؛ أنت في روما في «ستازيوني تيرميني» الحديثة. مازال الليل المعتم مُخيماً.

أنت وحيد في مقصورة مع العروسين الشابين اللذين لا ينزلان هنا، اللذين يذهبان حتى سيراكوز.

تسمع صراخ الحمالين، والصفارات، واللهاث، وصرير القطارات الأخرى.

تنهض، تضع معطفك، تأخذ حقيبتك، وتلتقط كتابك.

الأفضل، دون شك، أن تحفظ لهاتين المدينتين علائقها الجغرافية الواقعية، وأن تحاول أن تُحيي بالقراءة هذا الجزء الجوهري من مغامرتك، الحركة التي حدثت في ذهنك ورافقت

تنقل جسدك من محطة إلى أخرى من خلال كل المشاهد الطبيعية الوسيطة، نحو هذا الكتاب المستقبلي والضروري الذي تُمسك بهيكله بيدك.

الممر خالٍ. تنظر إلى الناس على الرصيف. تترك المقصورة.

الواقعية الميثولوجية لميشيل بوتور[1]

بقلم ميشيل ليريس

بين يديك نسخة جديدة جداً من «التحول»، رواية وَقَعَها ميشيل بوتور. تتصفح هذا الكتاب وتقرأ عشوائياً، في ثنايا هذا العمل البسيط جداً، بعض الفقرات. ما الذي يسترعي انتباهك أول وهلة؟

في جميع البلدان، تُكتب الروايات، في الأقل فيما يتعلق بجوهر محتواها، إما باستخدام الشخص الثالث (سرد شبه تاريخي أو خيالي لم يحاول المؤلف أن يُخفي طبيعتة الخيالية)، إو باستخدام الشخص الأول (دليل على سرد السيرة الذاتية، أو خيال وجداني بكل معنى الكلمة). لكن «التحول»، باستثناء بعض المقاطع النادرة، مكتوبة باستخدام الشخص الثاني بصيغة الجمع (أنتم)[2]: يبدو أن الروائي يُقحمك بكياسة أنت، أيها القارىء، ويكفي إلقاء نظرة سريعة على السطور المطبوعة وأنت تفتح الصفحات الملتصقة بقاطعة الورق كي تشعر أنك إزاء دعوة، أو إنذار. يحثك هذا الأسلوب غير المعتاد على التساؤل (لنراهن على ذلك)، إلى أي نوع خاص من القراءات أنت مدعو هنا و يُثار فضولك (أنا أفترض هذا) وأنت لم تنه فتح الصفحات المُغلَقة بعد. فتبدأ إذن (وآمل ألا تتأخر) قراءة الـ283 صفحة ذات القطع المتوسط، التي تبين لك هي بذاتها أي نوع من الانتباه كان المؤلف ينتظر من هذا الجمهور الذي تمثله أنت، ولماذا عمل على إنشاء هذه العلاقة الواضحة بينه وبينك، علاقة شخص مع شخص وإلى ماذا كان يرغب أن يقودك، بوسيلة ربما تحكم عليها بأنها مصطنعة لكنه أشار شفوياً إلى الأسباب المنطقية التي يرى بموجبها هذه الطريقة ضرورية[3].

تستقل الشخصية المركزية والوحيدة تقريباً في الكتاب – رب الأسرة الناضج هذا

1– نُشرَ هذا البحث عن «التحول» في مجلة «كريتيك»(نقد) (Critique)، العدد 129، فبراير/ شباط 1958.

2– في اللغة الفرنسية هناك استخدامان للضمير أنتَ، يُستخدم الأول للعلاقات الحميمة وبين الأصدقاء (tu) والآخر(حضرتكم) (vous) للعلاقات الرسمية. (المترجمة)

3– مقابلة للروائي مع بول كوت (صحيفة الفيغارو، العدد 607، 7 ديسمبر/كانون الأول 1957): «كان لا بد قطعياً أن يكون السرد محكياً من وجهة نظر شخصية روائية. وبما أن الأمر يتعلق بوعي، ما كان يجب أن تقول الشخصية «أنا». كان يلزمني حواراً باطنياً تحت مستوى اللغة الخاصة للشخصية نفسها، من خلال صيغة تقع بين الشخص الأول والشخص الثالث. هذه الـ«أنتَ» تتيح لي أن أصف حالة الشخصية وكيف تولد في داخلها اللغة الخاصة».

الذي لا يمكن للقارىء أو للقارئة، الواقعين في فخ الـ «أنتَ» وصيغة المضارع، ألا يتمثلون به - ذات صباح القطار السريع باريس- روما، في الدرجة الثالثة وبمبادرة خاصة منها، مُحَوِلةً بهذا الفعل العادة التي دأبت عليها ألا وهي السفر بهذا القطار ولكن في الدرجة الأولى في قطار المساء عندما يلزم الأمر، على نفقة رب العمل، لتذهب إلى فرع شركة الآلات الكاتبة في روما وهو مديرها الفرنسي. هدفه من هذه الرحلة هو مفاجئة عشيقة له في روما - المدينة المغرم بها منذ سنوات الدراسة الثانوية- يلتقيها في كل رحلة من رحلات العمل، والتي يعلن لها فيها، هذه المرة، أنه وجد لها (على وفق الرغبة التي أبدتها) عملاً يُتيح لها الاستقرار في باريس، حيث سيتمكنان من الآن فصاعداً أن يعيشا معاً إذ في نيته أن ينفصل عن زوجته وأولاده محدثاً بهذا تحولاً كبيراً في حياته الباهتة والكئيبة ما خلا بعض الضياء الذي ينبعث عليها من النور الروماني. أثناء الطريق، يصبح هذا الهارب بقوة، لعبة لمجموعة من الذكريات المُبهمة، التي من ضمنها (بعد اجتياز نفق مون سني) (Mont–Cenis)الذكرى المؤلمة لما كان احتفاءً خائباً له ولصديقته: عطلة تأتي لتقضيها في باريس. يترك نفسه لعديد من الأفكار والصيغ الخيالية، تأخذ هذه الأخيرة في البدء شكل أحلام يقظة نقية وبسيطة (روايات صغيرة ينسجها بشأن أناس مجهولين هم رفاق رحلته)، ثم أحلام يقظة، وحلم يرتبط معناه العام بقلق الحالم وبالشروط غير المريحة التي يسافر في ظلها، هو هبوط إلى الجحيم، فقرته الأخيرة عيد الغُطاس المعادي للآلهة والأباطرة الرومان. وفي نهاية المطاف، تحولت ذهنية الشخصية إلى حد أنها تنازلت عن التغيير نفسه الذي رحلت من أجله: سيمضي ثلاثة أيام في المكان الذي توجه إليه دون أن يذهب ليرى الصديقة التي يعرف الآن أنه يحبها ما دامت «هي وجه روما»، حتى إنه يفشل في فصلها عن هذا المكان المشرف. وسيختار إبقاء الحالة الراهنة ويعد نفسه أن يمنح هذه المتعة لزوجته فيما بعد: سيقومان برحلة إلى روما، زيارتهما الثالثة المشتركة إلى هذه المدينة التي أسرتهما في المرة الأولى (حينما كانا عروسين شابين)، ولكن خاب ظنهما في الرحلة الثانية عندما كانت حياتهما معاً قد بدأت تفسد. كانت الشخصية تحمل بيدها وهي تصعد في عربتها، كتاباً، اشترته من مكتبة المحطة، دون أن تعبأ بعنوانه ولا بمؤلفه واثقةً من اسم السلسلة.

عندما نزل في ستازيوني تيرميني، كان يمسك أخيراً هذا الكتاب الذي لم يقرأه والذي استخدمه لحجز المكان فحسب عندما كان يخرج من مقصورته، لسبب ما. ولأن من المحال ايجاد مخرج، إذا التفت نحو العشيقة أو نحو الزوجة، نحو روما (الذي اكتشف أنها اسطورة بالنسبة إليه) أو نحو باريس (التي تدهور حالها بجوها الغائم)، إنه كتاب - شبيه مادياً بهذا الكتاب - هو الذي سيخرجه من محنته: الكتاب الذي قرر أن يكتبه لك أنت أيها القارىء «محاولاً أن يُحيي بوساطة القراءة هذا الجزء الجوهري من مغامرتك»، إذ سيتيح لك استخدام الشخص الثاني بصيغة الجمع أن تدخل في جلد الشخصية التي تعود إليها، ظاهرياً، الصفحات نفسها التي قرأتها.

هذا الكتاب الذي يتضمن إشارات جافة تتناوب مع جمل قد يثير طولها النزق لم يكن تركيبها واضحاً جداً واليقين المكتسب مبكراً أنه في سيرها أهمية - والحق يقال- سامية هي تعبير مركز لمادة غزيرة ومتنوعة، هذا الكتاب المحمل بالشِعر في تحليقه نحو الأزمنة التاريخية أو نحو الأسطورة بقدر موضوعية الوصف فيه (الشديد الواقعية إذ، كي يُصدَق المُجمل ويُعاش إن صح القول، من الضروري أن يرى المرء ويشعر بكل ما يمكن أن يُرى ويُحس به في داخل هذه المقصورة وخارجها، مسرح ثابت ومتحرك في الوقت نفسه لتأمل مسافر وحيد)، هذا الكتاب الذي يمكن أن نقول عنه أنه بلغ الكمال بمعنى أنه مغلق على نفسه وأنه ليس شيئاً آخر سوى سرد لجوهره وكذلك ملخص تخطيطي لما يمكن أن نسميه محتواه الظاهر يبين في الحال أنه يلعب على عدة صُعُد. وعليه، فهو يهرب من وحدة الفعل في حين أن وحدة الزمان (مدة الرحلة باريس- روما بالقطار) ووحدة المكان (هذه المقصورة التي لا يتركها البطل إلا ليذهب، خلال انقطاع السرد، إلى ممر العربة، إلى رصيف إحدى المحطات أو إلى عربة المطعم) مُراعاة فيه بإحكام، على ما يبدو، كما في تراجيديا من القرن السابع عشر الفرنسي.

تدور الأحداث التي يسردها ميشيل بوتور بالتأكيد في وقت قصير لا يتجاوز حتى الأربع والعشرين ساعة وفي فضاء مغلق لا تطرأ عليه إلا تغيرات طفيفة (أهمها تغير الإضاءة، تبديل الأمتعة بأمتعة أخرى على وفق دخول وخروج المسافرين، وكذلك اتساخ الأرضية

الساخنة والتنوع الذي يؤثر بفعل مكوناته وترتيبه في عناصر هذا الاتساخ). في هذه الرواية المؤرخة والموضوعة على نحو دقيق، هناك إذن وحدة الزمان ووحدة المكان. مع ذلك، فإن هاتين الوحدتين تتخذان شكلاً آخر يختلف عن مسرحيات مسرحنا الكلاسيكي. إنها ليست رحلة واحدة، بل عدة رِحلات، في أوقات مختلفة يقوم بها البطل في هذا الاتجاه أو ذاك: بنبذ (فترات) تبرز بمعزل عن تسلسلها الزمني، يتذكر رحلات أخرى باريس–روما أو روما– باريس قام بها بل ويفكر حتى، فيما ستؤول إليه رحلة عودته، في المستقبل القريب، وما يتبع هذه العودة. هناك إذن تشابك أزمنة عديدة، ومن ضمنه زمن الرحلة الحالية باريس– روما التي هي بكل بساطة رحلة يولد خلالها تأمل الشخصية ويتطور. أما فيما يتصل بوحدة المكان، فهي في نهاية المطاف، ليست في حال أفضل: هذه الحاوية الثابتة تقريباً حيث لكل شيء فيها مكانه المحدد، هي في الحقيقة، متحركة ونتابع فيها التنقل من محطة إلى أخرى بين باريس وروما؛ من خلال استذكار المسافر ومشاريعه، يحتل حيه الباريسي في ساحة البانتيون وصروح مختلفة أو مواقع رومانية مكاناً كبيراً؛ تظهر أماكن خيالية، ذكرتها أعمال فنية (مثل رواقي الفن هذين المكرسين واحداً لروما القديمة والآخر لروما الحديثة، الظاهرين في لوحتين لـ بانيني اللتين «لا يوجد فيهما أي فرق يذكر بين الأشياء الممثلة وكأنها واقعية وتلك الممثلة وكأنها مرسومة»)؛ أحياناً يقع تأمل المسافر (الذي ما هو إلا نظرة بحتة) على الأماكن الممثلة بصور دعائية مزينة بها قواطع المقصورة؛ أخيراً، ويظهر في حلمه جانب من ديكور بمثابة مقدمة لألغاز (منظر طبيعي صحراوي، مغارة العرافة، نهر للملاح المأتمي، سلسلة لوحات للرسام «بيرانيز» (Piranèse) مفتوحة باستعراض حجري ومنتهية بحقل خرائب). فضلاً عن تشابك الأزمنة، يحدث تشابك في الأماكن ويظهر أن مقصورة الدرجة الثالثة التي تسير حالياً من باريس إلى روما لا تشكل أكثر من مسرح يبقى ثابتاً من خلال تعاقب الخلفيات والناقلات.

تبدو رواية ميشيل بوتور ـ وهي سرد لأزمة لا تتجاوز مدتها أكثر من أربع وعشرين ساعة، مسرحها عربة السكك الحديدية حيث ستجد نفسك أثناء الأثنتي عشرة ساعة الأخيرة «ساخطاً على نفسك»– مبنية مثل تراجيديا كلاسيكية. في حين أن زمان ومكان

الأزمة - تحكيها هنا شخصية واحدة- لا يُشكلان إطاراً مجرداً بل عناصر تفضيلية في تشابك مزدوج، وفيما يتعلق بالحجة (تخلي رجل عن مشروع كان قد خطط له، ينطوي على تجديد حياته العاطفية، واستبداله بآخر ينص على تأليف كتاب يشكل موضوعه هذا التخلي)، فإن دراستها من زاوية حكائية فحسب يعني التمسك فقط بالجانب الظاهر للعيان من هذه الأزمة، في حين أن هناك تداخلاً لعدة أفعال، كل فعل بمستواه. إن كانت ثمة كلاسيكية في الهيكل الشكلي لرواية «التحول»، يبدو أن هذا الهيكل يربكها أو يهددها بالتشظي في كل لحظة وأن هشاشة الحدود القسرية المفروضة (التحديد الدقيق للزمان والمكان، والحبكة التي تبدو في وهلة مبتذلة) تمنح العمل بصفته هذه سمته التراجيدية البحتة، من خلال منح المادة المضغوطة، من الخارج، إلى أقصى حد، قوة متفجرة.

يتنازل رجل متزوج عن استعادة شبابه الذي قد يمنحه إياه هذا التغيير، مؤمِّلاً أن العيش مع عشيقته بدلاً من العيش مع زوجته سيكون - على وفق التعبير السائد- هو الشيء ذاته، ويواسي نفسه بكتابة كتاب: يمكن أن يكون موضوعه كوميديا أخلاقية أو مسرحية هزلية خفيفة ذات مقالب، إن أدخلتَ إليها بعض الأحداث (هاتان المرأتان اللتان يمكن استبدالهما الواحدة بالأخرى باستثناء العمر، هذا اللُبس الذي ينطوي على أن تغيير الشخصية للاسم الأول لعشيقتها بكلمة «كتاب» مشيراً، في الواقع، إلى ما سيعيده معه). إن كون ميشيل بوتور واقعياً لا يعني أنه لا يتناول هذا الموضوع بعمق. إذ إن شخصية روايته لها موقع اجتماعي (من الطبقة البورجوازية المتوسطة) وسماتها مبينة على نحو واضح. رجل بدأ يشعر بتآكل الزمن مع احتفاظه بوجه سليم تقريباً، أحب زوجته دون شك لكنه رأى تراخي العلاقة التي تربطه بها (دون أن يكون السبب خطأ أي واحد منهما). وهو الآن غائص في الحياة العائلية وفي مهنة ما هي إلا لكسب العيش، مع هذه المتنفسات الوحيدة: يمتزج شغفه بروما بصفته رجلاً يحمل ثقافة معينة تغذي هذا الولع، بحبه لهذه المرأة الشابة التي التقى بها أثناء واحدة من رحلاته المهنية في هذا المكان المليء بالتجارب (إذ يكون المرء فيه معزولاً عن الإطار المعتاد وباتصال مباشر مع أناس لا يعرفهم)، ألا وهو القطار. هذا الوكيل التجاري هو ما نسميه بِحالم: ألم يبحث باستمرار في صروح باريس ومقاهيها،

منذ أن اتخذت روما وجه امرأة بالنسبة إليه، عما هو قطعة من روما؟ إنه حساس إزاء مشاهد الأشياء الجميلة (كما يشهد على ذلك فضوله إزاء ثراء روما الفني، والتحف الفنية التي تباع للذكرى، والخرائب القديمة التي تظهر في حلمه). آراؤه هي آراء رجل ليبرالي خالية من الشوفينية ومن كل معتقدات دينية، وتعادي الحماقة المسلحة المرعبة» كالفاشية البوليسية. نقطة ضعفه هي بالتأكيد – كما يُقال– ضعف القدرة على اتخاذ القرارت: فهو يبدو في بداية الرحلة، التي تمثل له استجابة لقرار كبير، وَجِلاً إلى حد أنه لا يُطالب بمكانه الذي أخذه منه رجل عندما غاب دون أن يحجزه بشيء ما؛ زوجته تتصرف معه بشفقة كبيرة وأولاده لا يكنون له إلا تقديراً تافهاً؛ حينما أتت الصديقة الرومانية في إجازة إلى باريس ودعاها إلى بيته، ثمة تواطؤ ينشأ بين المرأتين على حسابه ولم يجد شيئاً يتيح له السيطرة على الحالة؛ في روما حَذَره كبير، إذ يخشى أن يضر به اكتشاف علاقته من قبل مديريه. لا شيء يثير الدهشة في أن رجلاً من هذا النوع، مضطرب بفعل الظروف غير المعتادة التي يقوم في ظلها برحلة اعتادها، تحاصره أفكار تصبح مُقلقة أكثر كلما اقترب من الهدف ومنهَكاً أخيراً بفعل الساعات الطويلة التي أمضاها في الدرجة الثالثة، يلغي، قبل أن يصل حتى إلى روما، القرار الذي كان قد جعله يرحل من باريس، وبما أنه اصطدم بأسباب كانت تبدو له حاسمة لكنها ربما ليست إلا غطاءً لأسباب حاسمة أكثر، حتى وإن كانت أقل اهمية، يخلو إلى هذه الفكرة المغرية بالتأكيد بالنسبة للشخص المتذبذب والمولع بالفنون الموجود في داخله: أن يحمل إلى عدم قدرته على تحويل حياته على نحو إيجابي تعويضاً أدبياً تزوده به مادة سرد فشله.

أنشأ ميشيل بوتور إذن روايته على خلفية نفسية مترابطة تماماً (وهذه جدارة ليست بالقليلة لهذا الكاتب الذي لا يتجاوز عمره الثلاثين في أنه تمكن، بدقة واقتدار كبيرين أن يرتدي ثوب شيخ). مع ذلك نلاحظ أن ليس هناك شيء آخر إلا اللُحْمة وتختلط موضوعات اخرى بالموضوع السيكولوجي على نحو معقد.

تجد شخصية الرواية نفسها بين امرأتين، امرأة تشيخ يومياً وأخرى كانت تبدو له، قبل نيل الرعب في عربة القطار، «كأنها الشباب الدائم»، وهو أيضاً بين مدينتين، باريس

وروما، تلك التي يعيش فيها وتلك التي لا يتركها إلا ليحلم بها. ننفذ من خلال التذكر المبهم، الحلم والأفكار التي يُتَرجم من خلالها الانبهار الذي تمارسه روما على الشخصية، إلى موضوع آخر، ليس هو موضوع رواية سيكولوجية بعد. روما، التي تتماثل فيها هذه المرأة التي لن يجعلها تستقر في باريس، إذ ستكون فيها (إن صح القول) فاقدة لرومانيتها وستفقد روما في الوقت نفسه بالنسبة له الكثير من جاذبيتها، وهذا بالطبع الجزء الشاعري الذي يُضيىء حياته، ولكن ما هي روما في الواقع وماذا تعني الأسطورة التي تبدو أن توضيحها يقع على عاتقها؟

يبدو على نحو سريع، أن هناك في روما أكثر من روما: تتميز روما القديمة عن روما المسيحية الحديثة (وهذا ما توضحه اللوحات المزدوجة لـ «بانيني» التي تشاهدها شخصية الرواية في متحف اللوفر)، وتقف مدينة الفاتيكان إزاء روما القائمة. قبل أن يصل إلى التحول الحاسم الذي سيكون التخلي عن مشروعه، ترتبط المرأتان - إمرأة اليد اليسرى وامرأة اليد اليمنى- واحدة بروما الوثنية، والأخرى بروما المسيحية، إذ يتذكر النفور الذي طالما أبدته الأولى إزاء مكان «المصلى سكستين» خاصة في هذا اليوم الذي قالت له فيه ضاحكةً إنه «كان فاسداً حتى النخاع بالمسيحية» بينما الثانية، أثناء هذه الرحلة الأخيرة التي شعرت خلالها أن روما هي ميدان كان رفيقها يقصيها عنه، أرادت «أن ترى البابا بأي ثمن». أما فيما يتعلق به، الذي من بين كتبه المفضلة الإنيادة (سرد، كما نعرف، لمغامرات أينيه، ابن فينوس مؤسس روما) وكذلك رسائل جوليان لابوستا (الإمبراطور الذي رفض الإيمان المسيحي كي يعيد الشِرك القديم والذي بقيت منه، مع حمامات المياه المعدنية المنسوبة إليه، ذكرى في باريس)، إنه يهدف إلى «استكشاف نظامي للثيمات الرومانية» ويتابع روما متعلقاً بتغيرات الأزمنة المختلفة عليها.

فهي تمثل له «المدينة الأزلية» (حيث سيغطس مرة ثانية كما في نافورة الشباب)، «مكان الأصالة» (حيث إنه لم يعد مغترباً كما هو في باريس بفعل عمل لا يجني منه إلا رضاً مادياً)، ومدينة بدت مرتبطة منذ البداية بالجمال وبالحب أيضاً، إذ تسأله زوجته، خلال رحلة عرسهما حيث زارا معبد فينوس وروما، وهي جالسة بالقرب منه على مصطبة «في

هذه الأمسية المُسكِرة» لماذا كانت عبادة الآلهة وعبادة المدينة مرتبطتين (مشهد سيتذكره، مع تفاصيل أخرى لعرس زواجهما، كعلامة ضمنية للدليل على أن بينه وبين زوجته علاقات تواطؤ مختلفة تماماً عن علاقات الفم المغلق التي تعبر عن علاقتهما اليوم). فيما يتصل «بمدينة المدن» هذه التي كان ينوي الولوج فيها حتى اللب، بفضل صديقته، بعد أن كان قد مَسها مَساً خفيفاً، يكشف له الحلم – الذي تم توقيفه في نهايته، إثر فضيحة على الطريق العام، لكونه لم يلق إلا الحذر أو الشفقة المبهمة من قبل الرومان، يُحاكَم ويُدان من قبل القوى الكاثوليكية (الكاردينالات، والبابا و«ملك الحكم» نفسه) ثم يشعر بجسده ينغمر في الطين بعد ظهور الأباطرة المُرعب، والآلهة والإلاهات («يقترب رهط من الوجوه الضخمة والحاقدة، كما لو أنك حشرة مقلوبة على ظهرها، وبرق يخطط وجوهها وجلدها المتساقط قطعة قطعة») – أن هناك استمرارية في روما عبر تغيراتها: الكاردينالات يعلنون أنهم أيضاً رومان، أما البابا، فيقول لنفسه، «يلازم شبح الأباطرة، منذ قرون عاصمة عالَمهم المُلغى، والمأسوف عليه».

إن كانت الرؤية – الفخمة والمرعبة – تنتهي بتأكيد ذي طابع توفيقي إذ ينمحي فيها أي حل للاستمرارية بين وثنية روما ومسيحيتها، حيث تتحد الوجوه المتضادة من خلال نبذها بالاجماع لذلك الذي لم يَعرف كيف يفهم روما، في نوع من أفول الآلهة(Götterdämmerung)[1]، التي لم تعد إلا أشباحاً.

عندما يقود تأمل الشخصية (وقد تخلصت الآن من نومها السيىء، وحلقت تواً وأوشكت على الوصول) إلى الإقرار بأن الألم الذي يعاني منه ليس ألمه حسب وأن هذا الشرخ الفاغر [...] هو امتداد لشرخ تاريخي كبير جداً»، فتظهر له روما، بذكرى السلام الروماني، كأنها شاهد على الزمان الذي أصبح من الآن فصاعداً غابراً «حيث كان للعالم مركزاً»، أراد أن يستقر في بيزنطة بعد انهيار روما، ثم بعد زمن طويل، في باريس الإمبريالية» التي تشعر اليوم بهذا النقص. ستبقى روما، في نظر شخصية الرواية، بصفتها

1– الجزء الرابع والأخير من الدراما الموسيقية التي ألفها الموسيقار الألماني ريتشارد فاكنر وتتحدث عن الصراع بين الآلهة والجن.

أسطورة ذات جوانب هاربة وغامضة تنغرس جذورها في أعمق الأعماق، لغزاً يعجز أن يجد له حلاً. وستحتفظ، بصفتها مدينةً، بتميزها على الرغم من أنه ادرك ما هو أسطوري فيها وما قد أُزيلت عنه سمة الأسطورية: سيعود إليها مع زوجته التي ستكف عن غيرتها منها الآن وقد أزيحت عنها موجة الأوهام، وسيستمر في الذهاب إليها لزيارة عشيقته على الرغم من معرفته بأن سلطة هذه الأخيرة لن تقاوم «التدهور» الباريسي وأن هذا الحب، كالحب الأول، لن يفلت من قبضة الزمن. وبالتوازي مع التقاء مدينتي روما مع مدينة باريس نتج تقارب بين الوجهين النسويين، ولكن بمعنى سلبي إذ يبدو أن انتهاء كل حب باكتسائه بالرمال، بفعل شيخوخة الشريكين، وكأنه قدرهما المشترك.

هذا هو المخطط الذي يمكن أن نرسمه لتأمل المسافر، فيما يتصل، في الأقل، بتركيبته الرومانية البحتة وبقدر ما نتمكن - دون أن نشوه المعنى - أن نختصر في بضعة سطور عامة جداً تأملاً يزداد فوضى (على إيقاع متسارع بفعل التعب المتزايد للمسافر) بقدر مقاطع حلم تقطعه استيقاظات عديدة تزودها عناصر عديدة من جانب المسافرين الآخرين أو تفاصيل ديكورات أو أحداث الطريق أو وضع هذا الحالم الجالس في عربة تملؤها الفوضى على سكة تتشابك فيها بقايا ذكريات وأفكار متقاطعة، تندمج الواحدة بالأخرى على وفق قوانين آلية عاطفية على نحو أساسي.

في نهاية الإحدى والعشرين ساعة التي استمرت فيها الرحلة من محطة ليون إلى «ستازيوني تيرميني»، لم تكشف شخصية الرواية، بالتأكيد، عن النقاب الأخير ولكنها في الأقل تعلمت عدداً من الأشياء، خاصة فيما يتصل بمشاعرها إزاء الصديقة التي كانت ذاهبة لتفاجئها في روما وإزاء المدينة نفسها. إن رواية ميشيل بوتور، في مستوى يختلف عن المستوى السيكولوجي وعن المستوى البانورامي التاريخي، إذ وصف على نحو دقيق رحلة مادية متداخلة مع رحلة روحية، تنطوي على سرد تعليمي. لا تبرز فيها ميثولوجيا رومانية في إطار واقع يومي- قدمها تفكير المسافر - حسب، بل السرد برمته هو الذي يقع على مستوى الميثولوجيا، دون أن يتأثر بما سأسميه «واقعية» الرواية ما دامت على المستوى الأرضي.

في هذه المقصورة التي تحمل رمز «الشركة الوطنية للسكك الحديدية»(SNCF) التي

تذكّر (إن كان المؤلف يتعمد هذا أو لا) بالرمز الروماني (SPQR)، سيكون المسافر بحضرة نماذج بشرية منوعة يمنح بعضها اسماً وسيرة ذاتية، إلى حد أن علاقة وهمية ستنشأ منه نحوهم على الرغم من أنها غير متبادلة. أناس جد مختلفين في العمر، والجنسية، والشروط: زوجان شابان في رحلة عرس (يُذكران شخصية الرواية بما كان عليه هو وزوجته، وبحوزتهما مثل هذين العروسين، الدليل الأزرق ومنهاج «أسيميل» لتعليم اللغة، قبل بضع سنين)، ورجل كنيسة، وأستاذ جامعة، وعسكري، وممثل مبيعات، وسيدة وطفل، وعمال وبورجوازيون صغار إيطاليون (منهم رجل عجوز وامرأة عجوز)، ورجل انجليزي في البدء، وفي النهاية، امرأة جميلة جداً قد تكون إيطالية أو فرنسية. وعلى طريقة «هيرمان ميلفيل» الذي جمع أناساً من جميع الألوان في القارب الذي غرق وهو يطارد الوحش موبي دك، فإن رفاق الطريق هؤلاء يشكلون بحد ذاتهم مختصراً للبشرية. وعلى الرغم من أن العلاقة بهم هي القرب الفضائي وما يتخيله هو بشأنهم، فإن حاج المدينة الأزلية ليس وحده تماماً ومغامرته، التي يشكل الجزء «الأساسي» الذي يعيشه الآن جزءاً منها، ليست إلا مغامرته هو من بين مغامرات أشخاص عديدين آخرين. ويصب الانتقال من النهار إلى الليل، وتنوعات الأنواء الجوية، واستذكار رحلات سبق أن قام بها في فصول أخرى بل في زمن تاريخي آخر (زواج العرس المعاصر لحكم ذي القمصان السود) في اتجاه عولمة أفق السرد ذاته، إن صح القول.

قبل أن يصبح التأمل من خلال الحلم هبوطاً إلى الجحيم على نحو واضح، تشير ملاحظة غريبة، إلى أن هذه الرحلة ليست رحلة عادية. في واحدة من اصطدامات الزمان والمكان هذه التي تجعلنا نظن أننا، نحن أيضاً، في القطار السريع باريس- روما في يوم من أيام السنة وخارج الزمان والمكان، يحدث - الصفحة 116 من الكتاب- الظهور الشبحي لكبير الصيادين بالكلاب، فارس اسطوري يسكن غابة «فونتينبلو» الذي تجتاز صورته الشبحية شاشة مزدوجة لتأتي إلى ذهن الشخصية: تتذكر الشخصية بالفعل، بين محطتين في بوركونيا، العودة من إحدى رحلاتها إلى روما وكيف، بينما كان القطار يجتاز غابة فونتينبلو، فكرت بالصائد الكبير راكضاً على فرس شبه هزيلة وناطقاً بشكواه: «أتسمعني؟».

في ضواحي مدينة «جين» - مشروعه منحى، إذ يعرف نفسه من الآن فصاعداً أنه مرتبط بالحياة الزوجية هذه التي لم يعد يرغب فيها - يتذكر أن زوجته قد حدثته عن الصائد الكبير أثناء رحلة زواجهما إلى روما، الذي كانت تخشى أن يخطفها وهي صغيرة، بحلول المساء، أثناء تنزهها في غابة فونتينبلو. هذا الظهور المقلق، الذي يُرجع المسافر إلى حينٍ سعيد لكنه انقضى منذ زمن بعيد، وبالنسبة إلى زوجته نفسها يبرز من ماض بعيد، هو أول رسالة يتسلمها من عالم الغم الذي سينزل فيه قريباً وتشكل شكوى الصائد الكبير أول اشارة لما سيكون، أثناء ما تبقي من الرواية، لازمةً للتساؤل: ستعاني الشخصية، في الحلم، من العديد من الأسئلة التي ستكون، في الحقيقة، صدى لسؤاله هو.

إن ظهور «الصائد الكبير»، بين محطتي سنيسي و سينوزان - على الرغم من غرابته - يشبه ظهور العربات (المركبات، وسيارات الحمل، والدراجات البخارية) التي يراها في نقاط مختلفة على امتداد الطريق، يبدو كأنه يشكل على نحو مؤقت حركتها مع التنقل بين باريس وروما. وكذلك، الحلم الذي سيتحول إلى رؤية أو رؤيا يكون فيها النائم معنياً على نحو مباشر، ينطوي على هيئة تكاد تكون غير مُشَخَّصة: لست أنت الذي تسمع العرافة تسألك، لماذا لا تطرح عليها الأسئلة التي دفعتك إلى «مغامرتك، الخطرة جداً» هذه، ثم أنبتكَ لأنكَ غريب على رغباتك حينما قلت لها إن ما ترغب به هو «الخروج من هنا» فحسب؛ لست أنت من التقى بملاح الموتى وموظف الجمارك ذي الوجه المزدوج (أحدهما عدائي والآخر مرحب) الذي يحرس بوابة روما، لكنه الضمير «هو» الذي وضع في نوع من الابتعاد الأسطوري. إن بداية الحلم - الذي تشكل صورته الأولى صورة رجل يسير وسط منظر طبيعي غير مسكون، على غرار هذا التائه الذي فكرت شخصية الرواية أنه لا بد أن يشكل موضوع هذا الكتاب الذي لم يُقرأ، رجل يمكن أن يقال عنه أنه أدبي من محض الخيال -، مَحكِية شخصيته، في الواقع، بصيغة الشخص الثالث وتحدث العودة إلى الشخص الثاني بصيغة الجمع (vous) فقط عندما يجد الحالم - الذي وصل إلى هدفه الطوبوغرافي في بحثه الشخصي بما أنه دخل روما- نفسه في ساحة صغيرة، فريسة لعطش حاد، ولا يمكن أن يشرب إلا من «نبيذ سيىء يحرق الحلق بحدة إلى

حد أنك تصرخ من حدته، وترمي القدح على إحدى الواجهات فيشظي زجاج النافذة، وتبدأ بقعة كبيرة بنخر الجص والطابوق». تأتي المكونات الخرافية أو الأسطورية لتفكير المسافر، إجمالاً، من الخارج وكمعطيات ثقافية (أشياء تُقرأ أو أشياء تُحكى) قبل أن يندمج في واقعه المُعاش، والتخلي عن الشكل غير المُشَخَّص للخطاب،إن صح القول، في اللحظة التي يُصبح فيها التائه متعطشاً يبحث عبثاً عن الارتواء وسيترك غضبه يتفجر، قد يكون شكلاً ملائماً للسمة شبه الفيزيائية للرؤيا التي سيتسنمها هذا الذي خطا، حالياً، وعلى الفور بضع خطوات على رصيف ستازيوني برانسيبي لمدينة جنوة: اكتشاف، ليس لحقيقة مجردة موشحة بالكثير من الأساطير، بل للواقع الواخز لحياته الخاصة الذي يقدم مع الشيء الروماني الذي يشكل لغزاً بقدر ما يشكل توافقاً أكيداً.

يَبدو إذن أن من بين المَبادىء المُنَظِمة المهمة لهذا السرد لرحلةٍ من باريس إلى روما، الذي لم يهمل أي تفصيل غير ذي أهمية (أسماء المحطات، وتفتيشٍ التذاكر، والمرور في الحدود)، هي فكرة مطاردة روحية مُنجَزة على وفق المعايير التقليدية:

فمكان هذا الإنجاز مزود بصيغة تحذير موجهة إلى المتهورين («من الخطر الانحناء إلى الخارج»)؛ العديد من المسافرين المجتمعين في المقصورة لهم إشاراتهم أو صفاتهم (حقائب سفر جديدة للعريسين الشابين، حقيبة سفر من الخشب المضغوط للرجل العسكري، حقيبة الظهر للعمال، جُبة الكاهن، مظلة الرجل الإنجليزي، الحذاء الأسود والأبيض ذو المقدمة المدببة لأحد الإيطاليين، وما إلى ذلك)؛ أسماء محطات السكك الحديد روما تراستفيري، روما اوستينسي، روما توسكولانا وروما تيرميني مذكورة بإلحاح كما لو أنها تشير إلى الأماكن المقدسة التي ينبغي أن يمر بها الحاج شعائرياً؛ رجال الجمارك أو مدققو الجوازات يظهرون كأنهم حماة العتبة؛ الدليل الأزرق يصبح «دليلاً أزرق للضالين» (بمعنى شيء شبيه بكتاب الفيلسوف اليهودي مايموند، «دليل المترددين»، والذي يسمى عامة «دليل الضالين») ويبدو أن منهاج أسيميل لتعلم اللغة الإيطالية يكتسب تميزه لكونه أداة للفهم المُتبادَل وعليه فهو وسيلة آنية لحل الغموض بين اللغات ؛ والنغزات بين الفقرات والتشنجات في الساقين تمنح المسافر نصف النائم انطباعاً بأنه في قبضة «ثعبان شائك»

(بمعنى تنين كالذي يلتقيه أبطال الحكايات). فضلاً عن ذلك، فإن فضاء المقصورة الضيق، والمدة القصيرة نسبياً لهذه الرحلة يتمددان على الطريقة التي يمكن أن يتمدد فيها الزمان والمكان الرسميان حينما تجد سلسلة من الأحداث مسرحاً ظاهرياً لها في العالَم الأسطوري من خلال طقس خاضع إلى حدود مكان ومدة محدودة. أليس ما سيفعله المسافر دورياً في روما حينما يستدعيه العمل إليها، ما هو متعارف على تسميته «حَجاً» ؟ مع ذلك، لا يتعلق الأمر هنا بسحق الرموز - حيث لا يمكن إدراك الحقيقة التي تجسدها على نحو مباشر قط - لكن باستخدام عناصر متعددة التكافؤ (من خلال شبكة مكانية وزمانية جد دقيقة وجد منوعة)، تلعب على صُعُد متعددة لا يمكن لأي واحد منها أن يدعي حق التصدر[1].

وعليه، فإن الرفيق السياحي هو في الوقت نفسه اكسسوار للديكور الواقعي، مفتاح روما، دليل للبحث عن أرض موعودة، كتاب أيضاً من بين كتب تتلمسها الشخصية أو تراها أثناء هذه الرحلة التي ستُفضي إلى كتاب في حين أن توقه إلى أن يعيش بمثابة «رجل حر وصادق» كان قد وجهه نحو مدينة ونحو امرأة.

اقتنى بائع الآلات الكاتبة (الذي سيقرر أخيراً أن يكتب بالمعنى المطلق للكلمة) رواية قبل أن يصعد إلى القطار. هذا الكتاب الذي سيكون، طوال الرحلة، على وشك أن يُفتح - دون أن يُقدم على ذلك - سيبقى يشكل، بالنسبة إليه، موضوعاً تارةً بديلاً وتارةً متروكاً فوق الشبكة وتارةً موضوعاً على ركبتيه أو مضغوطاً تحته أثناء نومه أو حلمه. إن كان هناك في مؤلفات ميشيل بوتور لازمة للتساؤل، هناك أيضاً ثيمة قراءة بأشكالها المتنوعة[2]: بعض رفاق الطريق (العروسان الشابان مع دليلهما السياحي وكتاب تعلم اللغة

1- في تصريح للمؤلف إلى بول كوت - الذي كان قد أراه التخطيطات التي استعان بها أثناء إعداد روايته السابقة،» استخدام الوقت» - يشير إلى كل تعقيدات هذه البنية: «فيما يتصل بـ «التحول»، لم أنجح في إعداد مخطط. اعتمدت نظام حروف، كما في الجبر» (مجتزأ). لو كان هناك رمزية، لكانت البُنية مُبسطة بالطبع، إذ لكانت العناصر قد انتظمت ذاتياً حول التخطيط الذي تُقدمه هذه الرمز.

2- من خلال مشاركته في النقاش لماذا وكيف تقرأ؟ التي نظمتها الحلقة المفتوحة في 9 اكتوبر/تشرين الأول 1956، أشار ميشيل بوتور إلى الفرق بين «القراءة للاستعلام (التي تدخل ضمنها قراءتنا للصحف على سبيل المثال) والقراءة الفنية (التي تدخل ضمنها قراءتنا للروايات والشعر). «الكلمات الموجودة على صفحات رواية ما هي إلا شواخص على طريق يسير معها القارىء نفسه. فهو نفسه الذي يذكر في خياله الشخصيات، والأشياء، والمناظر على وفق تعليمات المؤلف». ينتج عن هذا أن القراءة الفنية «تُعبىء جزءاً من ذهننا أهم بكثير من القراءة للإستعلام» وأنها ليست دون

الإيطالية، الكاهن مع كتابه المقدس، الأستاذ مع أجزاء كتبه المجلدة بالأسود) مزودين بكتب يستخدمونها بصفتها كتباً، وأدوات عمل ؛ وثمة مسافرون آخرون مزودون بصحف أو بدوريات غير معروفة ؛ لافتات ولائحات منوعة تُرى هنا وهناك، كوثائق بحتة، في المحطات، على عربات القطار نفسه أو بمحاذاة السكة الحديدية؛ وأخيراً، تدخل بضعة كُتب مقدسة (من ضمنها الكتاب الذي تنظر اليه العرافة في مغارتها) إلى حُلم الشخصية. تسأل هذه الشخصية، الموغلة في تأملها، تسأل نفسها لماذا لا تقرأ الكتاب الذي كان ينبغي أن يساعدها على قتل الوقت: نسيت الآن عنوان الكتاب واسم الكاتب، ولكن في اللحظة كانا «يُذكرانك بشيء ما»؛ أنت تعرف أن في هذه الرواية «شخصيات تُشبه إلى حد ما أناساً تتابعوا على امتداد الرحلة في داخل هذه المقصورة»؛ مع ذلك، خلال هذه الرحلة أنت ترغب ولو مرة أن تكون أنت ذاتك بالكامل من خلال فعلك» ولذلك لم تقرأ ولن تقرأ هذه القصة، التي ستُبعدك عما لا تريد أن تسهو عنه أو، على النقيض من ذلك، عما يبدو متوافقاً تماماً مع هَمك الحالي وهذا لن يعمل إلا على الإسراع بالكارثة. أهْمَلَتْ شخصية الرواية الكتاب لأنها تنبأت بأنه لا يلائم (بفعل الغياب أو الإفراط) ما تقترح أن تفعله، لكن الكتاب موجود وسيبلغ هذا الموضوع كل مداه من خلال البحث الذي يقوم به التائه في الحُلم الذي يمثل لحظة الشكل التقليدي للبحث عن الكتاب الضائع، بمعنى خلاصة ذات حكمة سامية. تُشير الشخصية إلى الحارس ذي الوجه المزدوج الذي يسألها أين هي، وماذا تفعل وماذا تريد، إلى الهدف الحقيقي لبحثها، «البحث عن هذا الكتاب الذي فقدته لأنني لم أكن أعرف حتى إنه كان بحوزتي، لأنني لم أُعْنَ حتى بفك رموز العنوان في حين أنه كان المتاع الوحيد الحقيقي الذي حملته في مغامرتي»؛ وعلى هذا يجيب الحارس أنه ليس من المستحيل أن يجد الباحث نسخاً إيطالية محفوظة على نحو جيد لكنه ربما لا يعرف الإيطالية على نحو كاف كي يكون قادراً على قراءتها. يمر الحالم، بعد أن دخل روما (حيث في الحقيقة لن يُعرَض عليه أي كتاب) بالتجربة القاسية لعدم قدرته التامة تقريباً على إسماع صوته (كما لو أن بينه وبين الآخرين جداراً شبيهاً

خطر، «إذ إن الكتب السيئة تُغرق الذهن بعادات مؤذية، تجعله غامضاً وظلامياً بدلاً من أن تطوره، وتغذيه».

بذاك الذي ارتفع شيئاً فشيئاً بينه وبين زوجته) وسيظهر مُجمل الحُلم مَشوباً بفكرة العوائق التي تعترض التواصل والتي يمثلها هنا القصور اللغوي للشخصية ثم عدم قدرته حتى على التلفظ. وعلى نحو موازٍ، فإن أفكاره وهو في حالة استيقاظ تقوده إلى التفكير بأنه غير قادر البتة على أن يشرح لعشيقته، دون أن يكون ثمة سوء فهم بشأن دوافعه الحقيقية، لماذا تخلى عن إبقائها في باريس وأن الأفضل، ما دام لا يريد أن يقول لها شيئاً عن هذا المشروع الذي سيكون قد شرع بوضع المخطط الأولي لتحقيقه، هو ألا يذهب لرؤيتها. لكن هذا الاعتراف بعدم القدرة العملية على فهمه والتي تُجبر على الصمت في ظل ظروف مهمة يدعو، بصفته ردة فعل ضرورية، إلى اتخاذ قرار بالتعبير، على نحو يُتيح للمرء أن يكون مسموعاً من الآخرين، بحيث إن المسافر يتخذ قراراً بكتابة هذا الكتاب، ثمرة رحلة لم تلب ما كان ينتظره لكنها أنارته بشأن الطبيعة العميقة للهدف الذي كان يسعى إليه، هذا الهدف الذي تمثل روما صورة له تبقى حدودها غير واضحة، سواء تفحصناها بالعين المجردة أو ذهبنا إلى أقصى حد في تبحرنا المعرفي بها.

تقول الشخصية لنفسها بينما القطار يقترب من محطة روما تراستفيري «لا يمكن أن آمل الخلاص وحدي». إذن الإعداد لهذه الحرية المستقبلية البعيدة عن متناول أيدينا، وإتاحتها، في كتاب على سبيل المثال، وهي في حدود حتى وإن كانت ضيقة، وتكوينها، وانشاؤها، هي الإمكانية الوحيدة بالنسبة إليّ للتمتع في الأقل بمردودها الرائع والمؤثر جداً». وعليه، فإن الكتاب المفقود أسطورياً، الذي بَحَثَتْ عنه الشخصية ثم عثرت عليه، ما هو إلا كتابها، الذي كانت، منذ البداية، تُمسكه بيدها دون أن تدري والذي سيكون، بمثابة رهان على حرية يصعب بلوغها في الظروف القائمة لكن من غير المقبول أن تبقى هكذا، وسيكون أيضاً مَخْرَجاً له، يداً ممدودة نحو الآخر، فالكتابة هي منح الذات للقراءة، بمعنى، إنهاء العزلة بالتواصل مع الآخرين وبوضع ما تمكنا من اكتشافه في متناول أيديهم. إن كان الرأي الأخير للشخصية، من وجهة النظر العاطفية، ينطوي على المصالحة مع المرأة الواقعية (تلك التي داهمتها ذكرى طفولة على نحو مهوّس) وترك الزمن يفعل فعله فيما يتصل بالمرأة الأسطورية، دون تهميش شيء فيما يتصل بالمدينتين (اللتين سيستمر ذهابه

ومجيئه بينهما)، فيمارس، بعد أن اختار أن يكون كاتباً، النشاط الحقيقي وليس البحث الوهمي عن روما أو تجارة الآلات الكاتبة.

إن ما كانت تسعى إليه هذه الشخصية التي تشعر، في حلمها، بتعطش شبيه بذاك الذي يتحدث عنه الزاهدون، من خلال حبها وحجها إلى روما – عاصمة العالم القديم ثم العالَم الكاثوليكي، جنة في بيازا نافونا تجري نافورة الأنهار الأربعة، الإقامة الأسطورية لـ «الأب» (هذا الأب الذي تبحث عنه، تقول العرافة، «كي يُعَلمك مستقبل عِرقك») والإقامة الفعلية لتلك التي تسميها الشخصية «بوابة روما»، جاهلةً ربما أن هذه الصفة الشبيهة بتلك المتصلة بـ«باب السماء» لصلوات العذراء تضعها حتماً كصورة الأنثى الأزلية – ألم يكن شيئاً مُعادلاً للمطلق الذي يشير إليه الوجه الغامض للنقطة المركزية أو النقطة السامية المذكورة في الأدب المُغلَق: المكان الذي تختلط فيه الأضداد وتحل تناقضات المذهبين، ومحور الحياة الكونية، ونواة ثابتة على الرغم من تدفق التحولات؟[1]

كما أن مساح الأرضيات لدى كافكا لا يدخل إلى القلعة، فإن بائع الآلات الكاتبة لا يكتشف سر روما؛ لكنه يكتشف مع ذلك أن «هذا المركز الجوهري للدهشة والغموض» عصيّ بطبيعته على كل محاولة لوصفه حتى وإن كانت تقريبية و يجد تعليله من خلال كتابة كتاب، (ويعني هذا تهيئة دروب حرية ممكنة أو رمي النرد من أجل حرية ممكنة)، مثلما أن مساح الأرضيات، الذي يُقَر له في اللحظة الأخيرة بمكان في القرية. سيحتوي الكتاب الذي سيكتبه، كي يُقرأ وبالنتيجة فهو أدبي، على ما كان سيربطه بالكتاب الآخر «الذي لا بد أنه موجود في جزء منه مهما كان قليلاً، ومهما كان خطأً، ومهما كان قد أُسيىء قوله، رجل يواجه صعوبة يريد أن ينقذ نفسه، يقوم برحلة ويلحظ أن الطريق الذي سلكه لا يقود إلى حيث كان يظن». بعد أن قرر أن يجعل منها عملاً خيالياً يبين «الدور الذي يمكن أن تلعبه روما في حياة رجل في باريس»، يستبعد هذا المشروع بصفته غير ملائم ويقرر أن يكتب، ليس اعترافات بالتحديد (إذ قد يبقى فشلاً باقتصاره على التأكيد على هذا الفشل)، بل سرداً سيعيش من خلاله الآخرون التجربة التي عاشها، – هذا السرد

1- أنظر مقالة، أصبحت قديمة الآن، لميشيل بوتور. «النقطة السامية والعصر الذهبي»، (فنون وآداب، (Arts et letters)السنة الرابعة، العدد 15، مكرسة لـ «جول فيرن»).

نفسه الذي قرأته والذي (إذا تابعت حتى النهاية الاندفاع الذي يثيره استخدام ضمير الشخص الثاني (vous)، تكتشف أنك أنت الفاعل الرئيس فيه وليس أحداً آخر.

لكن الحقيقة، والحالة هذه، هو أنك لست مؤلفاً ولا فاعلاً بل مجرد قارىء لرواية يبدو أن لا شيء فيها ناتج عن نزوة أو مصادفة، لا الوجود الوهمي للديكور الخداع ولا استخدام ضمير الشخص الثاني (الذي أدلى الروائي توضيحاته بشأنه في مبحث آخر) وتجيب ظاهراً، كما لو كان زيادة في الدقة، على الضرورة الملحة التي دفعت بطلها لكتابتها. أين إذن مكانك الصحيح في كل هذا، أنت الذي تُركت تقع في فخ نهج يبدو أنه كان يهدف، فضلاً عن تشبيهك بشخصية الرواية، إلى إشراكك في السرد؟

مع هذه الرواية الشديدة الواقعية (فعناصرها التي تنبع من العجائبي مرتبطة بالحالة الفيزيائية أو بالحالة الذهنية للشخصية)، مع هذه الرواية ذات البنية الكلاسيكية و الغزيرة (كبنية صرح باروكي) يشكل فيها الوعي حجر الزاوية، يحدث الأمر - من الكاتب إليك أيها القارىء - كما لو أن السمة القسرية التي ينطوي عليها استخدام الضمير أنت فيها حث فعلي لوعيك أنت أيضاً أيها القارىء لتُشارك في الفعل على نحو، بحيث أن قصة هذا البورجوازي الباريسي الذي نَوَرَته العشرون ساعة على وجه التقريب في القطار بشأن رغباته الحقيقية تُصبح (إن لم تكن كذلك بالفعل) معادلة لقصتك الحقيقية، ومن خلال الحداثة الفوتوغرافية حصرياً للأسطورة يكتسب وجودك العادي مظهر قدر سامٍ.

«من انت؟ إلى أين تذهب؟ عمّاذا تبحث؟ من تحب؟ ماذا تريد؟ ماذا تنتظر؟ بماذا تشعر؟ هل تراني؟ هل تسمعني؟»». هذه الأسئلة التي كانت تعلن عنها شكوى كبيرالصيادين، والتي كانت تبدو كهذه الشكوى مطروحة على الجميع دون تمييز، يطرحها شخص مجهول («يرتدي ملابسك نفسها، لكنها جديدة، يحمل في يده حقيبة سفر من طراز حقيبة سفرك عينها، يبدو أنه أكبر منك سناً بقليل»)، في الحلم بينما مرت الشخصية التي يُقبَض عليها، وتُقاد إلى مركز الشرطة، من حالة التائه إلى حالة المتهم. لا يقدم الكتاب أي إجابة عن هذه الأسئلة المصوغة في الضمير الثاني «أنت» بصيغة الجمع كما لو أن هناك تشابهاً سرياً بين السرد الذي تقرأه والأسئلة التي تسمعها الشخصية، وكذلك لغز روما

يبقى دون حل. لكن هذا الكتاب الذي يمثل للمؤلف المُفتَرَضْ، جزءاً من سيرة ذاتية، و للمؤلف الواقعي، خيالاً لا يمكن التشكيك بـ «صحته» (في غياب واقعيته) ويجب على الأرجح إذن أن يُعيد سرد التجربة (بعبارات تُغير موضعها) التي قادت إلى إعدادِه، هذا الكتاب الذي توصل اليه المؤلف الحقيقي كالمؤلف المُفتَرَض، الذي ساعدهما – هما الاثنان – على معرفة من هما، هو خطوة نحو إجابة وحل.

الشخص الثاني «أنت» (vous) هو ليس الشخص المثالي لصيغة الأمر فحسب، بل هو الأكثر توضيحاً للتساؤل، إذ يتوجه تساؤل ما، مهما كانت الصيغة القواعدية التي تنطوي عليه، دوماً على نحو مباشر إلى شخص ما (إلى الآخر، شخص خيالي أوالشخص الذي الذي يطرح التساؤل بعينه). أليس الشخص الثاني بصيغة الجمع، هو أيضاً، الشخص المستخدَم لغرض الإيضاحات المدرسية لموضوعات البحوث أو

المشكلات، وصيغ التساؤلات الأخرى؟ لا تتردد الشخصية، متسائلةً إن كان الكاهن الموجود في مقصورتها مدرساً، في اختراع شروح عجائبية يمكن لهذا المُربي أن يلقنها لتلامذته: » تخيلوا أنكم ترغبون في الانفصال عن زوجتكم؛ اكتبوا لها لتشرحوا لها الحالة»... «تخيلوا أنكم أب يسوعي؛ اكتبوا إلى مسؤولكم الأعلى لتعلنوا له أنكم ستتركون الشركة». لا يسع التلميذ، المكلف بهذه الشروحات، إلا أن يتخيل أنه زوج أو أب يسوعي ناظراً إلى دواخله كي يفهم ويصوغ أسبابه بالضبط.

يظهر أن استخدام الشخص الثاني بصيغة الجمع (vous) في مجمل سرد، أُنشىء لهذا الغرض، كأنه بَحث أو شبكة مُفَصَلة من أجل التأمل أو اختبار للوعي يبدو إذن أنه يظهر – أياً كانت الدوافع ذات الطابع التركيبي التي حددت هذا الخيار – وسيلة لرد التساؤل إليك (إلى هذا الأنت المجهول الذي يمكن أن يُقال أنتم جميعاً) الذي يعلن عنه أو التذكير به على امتداد هذه الصفحات حيث تتشابك الكثير من الأنواع، من الانطباعي إلى التعليمي، من خلال حكاية جد شائعة إلى حد أننا نرى فيها خدعة لنا كلما ازداد تعمقنا في الكتاب، اكتشفنا أنه أكثر غنىً في خلفيته.

من البديهي أن هذا التساؤل «هل تسمعني؟» الذي يمهد له كبير الصيادين، في البدء،

بجمل محددة، وبصوت «واضح على نحو عجائبي»، المجهول الذي يشبه الشخصية كأخ لها وبالنتيجة يشبهك، أي إجابة عامة لا يمكن أن تُعطى ولم يبق لذلك الذي يسمعه إلا الانخراط على نحو إيجابي في الدوامة المقترح نموذج منها في هذه الرواية حيث يجري كل شيء، بالتأكيد، في دائرة مغلقة، على نحو مزدوج، إذ إن الشخصية تعود إلى نقطة البداية فيما يتصل بحياتها الشخصية، والكتاب ينتهي في الوقت الذي يتهيأ لكتابته، تتصل نهايته ببدايته، لكنه يقع ظاهرياً فحسب تحت الإشارة السلبية للتكرار الأزلي إذ إن الشخصية التي ستكتب لن تكون هي التي كانت حينما أخذت قطار باريس–روما وستكون إذن قد ذهبت من نقطة إلى أخرى بينما كانت المقصورة تتنقل في الفضاء حيث وضِعَ شيئاً فشيئاً هذا البديل عنك أنت، الذي لم يكن ميتافيزيقياً في شيء، إزاء أكثر المشاكل تعقيداً وحيرةً ألا وهي: توافق وعي مع وعي آخر أو مع شيء آخر غيره.

انزلْ إلى الجحيم. أكمل حجك بدورك، بعد أن أنجزته «على صعيد القراءة» بفضل هذا العمل الإبداعي الذي لن يكون قد أتاح تواصلاً بينك وبين المؤلف فحسب بل يتضمن، فضلاً عن ذلك، درساً. أنت الذي قُدِّمتْ لك الكلمة، من خلال هذه الرواية، تُحقق كتابك (دون أن يكون بالضرورة كتاباً) وربما سيتبين أنه مُخْتَلِفٌ جداً عما ظننت نفسك، بدائياً، أنك تبحث عنه، إذ يُمكن أن تتحول الرحلة بالنسبة إليك، كما تحولت بالنسبة إلى شخصية الرواية التي عثرت على ضالتها في مكان آخر غير الذي كان القطار يقودها إليه وربحت اللعبة بينما كان يبدو أنها قد خسرتها نهائياً، كما لو أن اللعبة التي بدأتها (نعمة أو خطأً) كانت لعبة «من يخسر يربح»[1].

1- إن شرح كتاب كهذا هي مهمة ممتعة بقدر كونها مثبطة للعزيمة: عند تفحصه عن كثب، نرى أنه، في كل مرة، تفتح آفاق أخرى وتنشأ علائق جديدة بين عناصره المنوعة. يجب، أخيراً، أن نخلص إلى تعليق البحث إن أردنا ألا نلتزم في إعداد كتاب آخر.



نبذة عن المؤلف:

ولد ميشيل بوتور عام 1926 في فرنسا، ويعيش اليوم ويعمل في قرية «لوسانج» في مقاطعة «أوت سافوا». عمل مُدَرِّساً للغة الفرنسية في الخارج (لا سيما في مصر) في بداية حياته، ومن ثم أستاذاً للفلسفة في «المدرسة الدولية» في جنيف في الخمسينيات. ثم بدأ مسيرته الجامعية كأستاذ للأدب، في الولايات المتحدة الأمريكية أولاً، ثم في جامعة نيس، وأخيراً في جامعة جنيف. حازت روايته «التحول» على جائزة «Renaudot» عام 1957. وهو أحد رواد «الرواية الجديدة» التي شاعت بين عامي 1939 و1970.

لم تعد الرواية لديه «كتابة مغامرة بل مغامرة كتابة». لا يقتصر نتاجه على الأعمال الروائية، إذ كتب العديد من الدراسات النقدية الفنية، وشارك مع الكثير من الفنانين في تصميم كتب فنية. تتجلى رغبته في التجريب لتمثيل العالم في جميع أعماله، الروائية منها والفنية. من أشهر كتبه «عبقرية المكان» في خمسة أجزاء. حصل على جوائز عديدة منها: جائزة فينيون عن كتابه «استخدام الوقت» (1956)، وجائزة النقد الأدبي عن «الفهرس» (1960)، وجائزة الرومانسية الكبرى شاتوبريان عن «ارتجالات عن بلزاك» (1998)، وجائزة ملارميه عن «ستة عشر ثرياً» (2006).



نبذة عن المترجمة:

من مواليد بغداد. حصلت على شهادة الدكتوراه في الأدب الفرنسي الحديث من جامعة السوربون في باريس عام 1985.

درّست اللغة الفرنسية وآدابها في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية، وكلية اللغات - جامعة بغداد، وأشرفت على العديد من أطروحات طلبة الدراسات العليا، كما عملت في المركز الثقافي الفرنسي في بغداد، كمسؤولة عن الترجمة والأنشطة الأدبية والثقافية وتدريس اللغة الفرنسية (1985-2005).

شاركت في العديد من المؤتمرات العلمية والتظاهرات الثقافية، وترجمت العديد من الكتب والمقالات الثقافية، والملفات الأدبية والفلسفية. كما عملت مترجمة في وكالات الأمم المتحدة في جنيف وبغداد. تعمل حالياً أستاذة للغة والأدب الفرنسي في جامعة باريس-السوربون أبوظبي، وقد ورد اسمها في «موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين»، لدورها المهم في خدمة الثقافة والأدب والترجمة في العراق.

التحول

تعتبر رواية «التحوّل» التي نشرها الروائي الفرنسي ميشيل بوتور- أحد مؤسسي «الرواية الجديدة» - في عام 1957، واحدة من أهم روايات القرن العشرين لما أحدثته من تغيير في بنية الرواية وأسلوب تناول الشخصيات.

تدخل أجواء هذا الكتاب حال قراءتك لجُمَله الأولى؛ هذا الكتاب الذي تَكتبهُ أنت، أيها القارئ، وتقرؤه وتُنهيه ثم تلتقطه مَن علَى مصطبة القطار الذي أقلك من باريس إلى روما، مع كل التوقفات والانعطافات.

يَستخدم الكاتب الضمير «أنتَ» من بداية الرواية إلى نهايتها، كي يصف رحلة رجل في قطاره من باريس إلى روما، ليلتقي بحبيبته. يُرافق القارئ تبلور أفكار شخصية الرواية، وكل تساؤلاتها وقراراتها التي تتغير كلما تقدمت في طريق رحلتها. وتكتشف كذلك إلى أي حد يصعب عليها معرفة ما ترغب به، وكم يعوقها الوقت الذي يمر ببطء شديد كي تستقر على خيار حياتها. ويشعر القارئ، بفعل استخدام الضمير «أنتَ»، أنه معني بالأفكار التي تأتي إليه دون توقف.

استقبل النُقاد الرواية الثالثة لميشيل بوتور «التحول» حال ظهورها في 1957 - أي في السنة نفسها التي ظهرت فيها رواية «الغيرة» لألن روب غرييه، و«الريح» لكلود سيمون و«الانتحاء» لناتالي ساروت - استقبالاً استثنائياً؛ فحصلت على جائزة «رنودو» (1957)، وتُرجِمَت إلى عشرين لغة، ولا تزال إلى يومنا هذا الأكثر قراءةً من بين روايات «الرواية الجديدة».

ويمكن أن نعتبر رواية «التحول» كأنموذج متكامل لحركة «الرواية الجديدة»، وهي حركة أدبية ظهرت في فرنسا في خمسينيات القرن العشرين، ومن بين خصائصها أنها ترفض أن تولي أهمية رئيسة للحبكة وتعنى بكل ما يُحيط بالقصة الأساسية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





ISBN 978-9948-01-449-2
